الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

دائرة المعارف التونسية

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون « بيت الحكمة » ـ قرطاج ـ تونس

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة »

أمانة التحرير
* **الأستاذ عبد الوهاب الدخلي**

التصميم والاشراف الفني
* **فتحي اللواتي**

التوثيق الفوتوغرافي الفني
* **رضا الزيلي**

- تصدر «**دائرة المعارف**» تباعا في كراسات مرتبة موادها ترتيبا أبجديا ومفصلة محتوياتها ضمن أقسام ثلاثة : أعلام ومواقع وقضايا.
- لا يتحمل المجمع «**بيت الحكمة**» أية مسؤولية مادية أو أدبية إذا وقع اعتراض على النص.

المدير المسؤول
رئيس المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة »

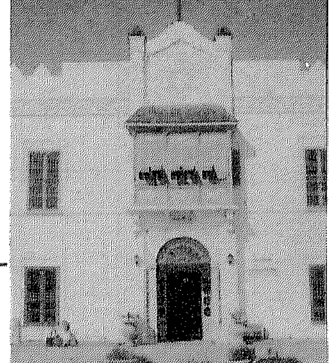
الجمهـورية التـونسيـة
وزارة الثقافـة

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة »

أمانة التحرير
*** الأستاذ عبد الوهاب الدخلي**
التصميم والاشراف الفني
*** فتحي اللواتي**
التوثيق الفوتوغرافي الفني
*** رضا الزيلي**

ـ تصدر «**دائرة المعارف**» تباعا في كراسات مرتبة موادها ترتيبا أبجديا ومفصلة محتوياتها ضمن أقسام ثلاثة : أعلام ومواقع وقضايا.
ـ لا يتحمل المجمع «**بيت الحكمة**» أية مسؤولية مادية أو أدبية إذا وقع اعتراض على النص.

المدير المسؤول
رئيس المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة »



المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون - بيت الحكمة -

تقديم

بهذا الكرّاس الخامس يدرك مشروع «دائرة المعارف التونسية» «دامت » نهاية المرحلة التجريبيّة الأولى. ونحن نستشرف طورًا جديدًا من حياة المجمع للعلوم والآداب والفنون « بيت الحكمة » - باعتباره الهيئة المسؤولة على نشر الدائرة - سيشهد خلاله بعث الهياكل العلميّة الضروريّة لحسن سيره ومن ضمنها اللجان المجمعيّة العلميّة التي ستتولى الإشراف على الدّائرة : تصوّرًا وتخطيطا ثمّ متابعة وإنجازًا ، لابدّ لنا من تقييم منهجيّ نقدّي للمرحلة عسى أن نتوفّق إلى تشخيص نقائص المشروع والسعي ما أمكن لتطويره وضمان أسباب نجاحه.

احتوت هذه المجموعة الأولى على 80 مقالا توزّعت كما يلي :

قسم الأعلام : 40 مقالة

قسم المواقع : 19 مقالة

قسم القضايا : 21 مقالة

أمّا المساهمون فقد بلغ عددهم : 56 ينتمون إلى سائر أجيال الكتّاب والباحثين التونسيّين .

I - قسم الأعلام

وجد إقبالا من الباحثين ورغم بعض الهنات التي تعقّبها نقّاد الدائرة في مقالاتهم (راجع تقديم الكراس الرابع / 1994 ، ص. 9، ملحوظة رقم 2) فإنّ هؤلاء الباحثين وجلهم من الأساتذة الجامعيّين ذوي المكانة العلميّة البارزة قد برهنوا على تشبّع بالروح العلميّة وبقدرة على التأليف الموسوعي الرّصين.

وفي انتظار ملاحظات السادة القرّاء والمهتمّين بالدّائرة في موضوع أعلام التونسيّين الذين سيشملهم المشروع النهائي وضبط الحيّز بعدد الصفحات بل والسّطور الذي ستشغله المقالة الخاصّة بكل واحد منهم رأينا من الضروري الإقدام على استشارة موسّعة تتناول :

تقديم

بهذا الكرّاس الخامس يدرك مشروع «دائرة المعارف التونسية» «دامت » نهاية المرحلة التجريبيّة الأولى. ونحن نستشرف طورًا جديدًا من حياة المجمع للعلوم والآداب والفنون « بيت الحكمة » - باعتباره الهيئة المسؤولة على نشر الدائرة - سيشهد خلاله بعث الهياكل العلميّة الضروريّة لحسن سيره ومن ضمنها اللجان المجمعيّة العلميّة التي ستتولّى الإشراف على الدّائرة : تصوّرًا وتخطيطا ثمّ متابعة وإنجازًا ، لابدّ لنا من تقييم منهجيّ نقدّي للمرحلة عسى أن نتوفّق إلى تشخيص نقائص المشروع والسعي ما أمكن لتطويره وضمان أسباب نجاحه.

احتوت هذه المجموعة الأولى على 80 مقالا توزّعت كما يلي :

قسم الأعلام : 40 مقالة

قسم المواقع : 19 مقالة

قسم القضايا : 21 مقالة

أمّا المساهمون فقد بلغ عددهم : 56 ينتمون إلى سائر أجيال الكتّاب والباحثين التونسيّين .

I - قسم الأعلام

وجد إقبالا من الباحثين ورغم بعض الهنات التي تعقّبها نقّاد الدائرة في مقالاتهم (راجع تقديم الكراس الرابع / 1994 ، ص. 9، ملحوظة رقم 2) فإنّ هؤلاء الباحثين وجلّهم من الأساتذة الجامعيّين ذوي المكانة العلميّة البارزة قد برهنوا على تشبّع بالروح العلميّة وبقدرة على التأليف الموسوعي الرّصين.

وفي انتظار ملاحظات السادة القرّاء والمهتمّين بالدّائرة في موضوع أعلام التونسيّين الذين سيشملهم المشروع النهائي وضبط الحيّز بعدد الصفحات بل والسّطور الذي ستشغله المقالة الخاصّة بكل واحد منهم رأينا من الضروري الإقدام على استشارة موسّعة تتناول :

أ ـ حصر القائمة النهائيّة مرتّبة ترتيبا هجائيًا لمشاهير التونسيّين حسب اختصاصاتهم : شهداء الوطن ـ مشاهير رجال الدولة ـ علماء ـ مؤرخون ـ أدباء ـ فنّانون ـ قضاة ـ فقهاء ...

ب ـ النظر في مسألة إدراج الأحياء من هؤلاء الأعلام وحسب أيّ شروط في «دامت» .

جـ ـ البتّ في قضيّة هويّة المترجم لهم : هل ينبغي الاقتصار في تحرير هذه الهويّة على معيار النسب الجغرافي إن وجد ، أم ينبغي توسيعها على عادة كتب التراجم في تراثنا لتشمل « النزيل » أو من كانت له إقامة طويلة بعض الشيء ببلادنا ؟ وبذلك ندرج في أعلام التونسيّين : ابن خلدون وابن هانئ ومحمود بيرم التونسي وابن الأبّار وأحمد فارس الشدياق ... كما ندرج شارل نيكول وعبد الله الترجمان والجنرال حسين ومنصور كرلتي... (راجع موقف الأستاذ جمعة شيخة: « الصباح » 7/5/1991).

II قسم المواقع

لئن بَدَت لنا حصيلة ما أمكننا الحصول عليه من مادة هذا القسم غير كافية لإبراز أهميّة ما يقوم به العديد من علماء الآثار والجغرافيّين التونسيّين من بحوث جديرة بالنشر. فإننا نعتقد أن تعميم استشارة بين أهل الاختصاص لضبط المواقع والمعالم التونسية أصبحت اليوم ضرورية ومتأكّدة . وبالتالي فإننا نجدّد الدّعوة للمشتغلين في هذا المجال بالإسهام ، من خلال هذه الدائرة ، في هذا السّعي المعرفي الهام ليكون مرجعًا للباحثين خاصة ، ولسائر القراء عامة .

III قسم القضايا

لقد أردنا لهذا المجال أن يتّسع لكل جُهْد يكون صاحبه قد بذله لإعداد بحث هو موضوع أطروحة نوقشت أو دراسة تمّ نشرها . إلاّ أن مجمل ما وصلنا من مادة هذا القسم لم يكن كافيا أيضا لإبراز أهميّة العديد من الأطروحات والدراسات التي نوقشت أو نشرت في السنوات السابقة ، وخاصة منها المادة العلمية

(كالبحوث المتعلقة بالكائنات البحرية « الأسماك » والنباتات ، وكذلك المحميات التونسية وغيرها ...).

إنّ ثقتنا كبيرة في قدرة الأساتذة والعلماء التونسيّين على إنجاز هذا المشروع الحضاريّ الهامّ على أحسن وجه ، ولذلك نجدّد لهم الدعوة للمشاركة ونشرع بداية من هذا الكرّاس في تضمين ملاحظاتهم وتقييداتهم على الكراريس الأولى في باب «تصويب واستدراك » والله الموفق.

أعـــــلام

مواقـــــع

قضـايـــــا



ابن شبّاط

[618-681 هـ / 1221-1282 م]

أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن عمر بن شبّاط المصري التوزري : فقيه، لغوي، أديب ومؤرّخ أصيل مدينة توزر بالجنوب الغربي للبلاد التونسية. يلقّب بابن شبّاط ويعرف بالمصري أيضا، ذلك أن جدّه عليّا قد ولد بمصر حينما انتقل إليها أبوه محمد بن عمر واستقرّ بها، وعقب وفاته عاد ابنه عليّ إلى توزر فلقّب بالمصري لشبه بينه وأهل مصر في كلامهم وهندامهم .

ولد ابن شبّاط ليلة الخميس الموافق للعشرين من شعبان سنة 618 هـ والتاسع من أكتوبر عام 1221 م، من أمّ جزائرية بمدينة قسنطينة حيث كان والده يتعاطى التجارة، ولمّا بلغ من العمر أربع سنوات نقله أبوه إلى توزر فنشأ بها ودرس بجامع القصر، بناحية بلد الحضر، على شيوخ بعضهم أصيلو البلد المذكور وآخرون وفدوا عليه من القيروان، على وجه الخصوص، وأبرز أساتذة صاحب الترجمة والده وأبو عبد الله محمد بن أبي يحيى أبي بكر بن أبي عمر الطولقي وهو الذي روى عنه القصيدة الشقراطسيّة سنة 642 هـ / 1245 م وثالثهم أبو عبد الله بن أبي الفضل أبي القاسم بن شمدون أحد فقهاء توزر في القرن السابع للهجرة. أمّا العلوم التي تلقّاها فهي علوم القرآن والحديث والفقه والنحو واللّغة والأدب .

استقرّ ابن شبّاط بأرض أجداده ولم يبرحها إلاّ نادرا ولمآرب غير طلب العلم، من ذلك أنّه مكث بمدينة تونس سنتين مدرّسا بجامع الزيتونة فأجاد وأفاد، وكانت

إقامته بمكان يعرف اليوم بزنقة ابن شبّاط بالقعّادين. عاد بعد ذلك نهائيّا إلى بلدته حيث ظلّ القاضي الموفّق والمدرّس المتفوّق، فتخرّج على يده خلق كثير من مشاهير رجالات الفكر والأدب، منهم أبو عبد الله محمد بن حيّان الشاطبي (ت 691 هـ / 1292 م). وفي يوم السبت الحادي عشر من ربيع الثاني سنة 681 هـ / 13 جويلية سنة 1282 م توفّي ابن شبّاط ودفن بجوار أضرحة آل الشقراطسي ببلد الحضر .

آثـــاره

لم يصلنا من آثار ابن شبّاط غير نزر يسير طبع منه ما يلي :

- فصل من كتابه « **صلة السمط** » **حول فتح صقليّة** نشره الإيطالي ميكالي أماري باللّغة الإيطاليّة ضمن مؤلفه « المكتبة العربيّة الصقليّة » Biblioteca arabo Sicula بليبسيغ سنة 1857، ص 95-106. ثم نشر النص العربيّ ضمن الكتاب المذكور في نسخته العربيّة بليبسيغ أيضا سنة 1868 .

- فصل من « **صلة السمط** » **عن فتح الأندلس** حقّقه ونشره أحمد مختار العبّادي بصحيفة معهد الدراسات الإسلاميّة بمدريد Revista del Istituto de Estudios Islamicos en Madride سنة 1965-1966 ، عدد 13 ، ص 99-163 .

- **قصيدة الجدي** أنشأها بمناسبة ولادة جدي بتوزر ليلة الفاتح من رجب سنة 674 هـ / 21 ديسمبر 1275 م، غرّته بيضاء كتب عليها باللّون الأسود اسم « محمد ». وقد نشر نص القصيدة في كتاب « الجديد في أدب الجريد » لأحمد البختري ص 70-72 .

- **عجالة الرويّة في تسميط القصيدة النحويّة لأبي الفضل يوسف بن النحوي** (ت 513 هـ / 1121 م) والموسومة بالمنفرجة أو أمّ الفرج، وقد نشر نص العجالة برحلة العبدري ص 52-59 .

- **فقرات من « صلة السمط » تضمّنت فتاوى** انتقاها الهادي روجي إدريس ونشرها ضمن مقال باللّغة الفرنسية عنوانها : La vie intellectuelle en Ifrïqiya méridionale sous les Zirides : « **الحياة الفكريّة بإفريقيّة الجنوبيّة في أيام بني زيري** » . وقد طبع المقال بعاصمة الجزائر سنة 1957 ونشر بالجزء 2، ص 95-105 من كتاب : Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident Musulman «مزيج من تاريخ المغرب الإسلامي وآثاره ».

أمّا ما يزال مخطوطا من آثار الرجل فيتمثّل في :

- تخميس وضعه على القصيدة الشقراطسيّة عنوانه « **سمط الهدي في الفخر المحمدي** ».

- « **صلة السمط وسمة المرط في شرح سمط الهدي في الفخر المحمّدي** » وهو، كما يستفاد من عنوانه، شرح للتخميس السابق ويعرف في أوساط العامّة تحت عنوان « **تاريخ ابن شبّاط** ». يتألّف هذا الكتاب من أربعة أجزاء كبيرة الحجم تنطوي على ما يزيد على 1000 صفحة، وقد اختصره المؤلّف في نسخة متوسطة الحجم وأخرى صغيرة. أمّا المضمون فشرح للتخميس تطرّق إليه على مستوى المعجم والنحو والبلاغة، إلاّ أنه شرح ضمّن استطرادا واسعا تمّ خلاله استعراض قصّة الفتح الإسلامي لمختلف مدن الدنيا والتعريف بها جغرافيّا بشكل جعل هذا الاستطراد يطغى أحيانا على الشرح ويضفي على المؤلّف أهميّة خاصّة .وقد اعتمد ابن شبّاط مصادر متنوّعة ما بين شفويّ ومكتوب وما بين موجود ومفقود اليوم وما بين مخطوط الآن ومطبوع، وجميعها على نصيب موفور من الصدق والعمق. وأبرز من أخذ عنهم وفقدت آثارهم عريب بن سعد القرطبي (ت 409هـ/ 1018 م) وابن حيّان القرطبي (ت 469 هـ / 1076 م) وعبد الحق الإشبيلي (ت 582 هـ / 1186 م). أما أبرز من استند إليهم ووصلتنا أعمالهم فهم الواقدي (ت 207 هـ / 822 م) وابن عبد الحكم (ت 257 هـ/ 871م) واليعقوبي (ت 284 هـ / 897 م) والطبري (ت 310 هـ / 923 م) وابن عبد البرّ (ت 463 هـ / 1070 م) والشقراطسي (ت 466 هـ / 1073م) وابن الكردبوس (ت حوالي 580 هـ / 1186 م) .

وممّا لا ريب فيه أن أعمال صاحب الترجمة تربو على ما ذكر إلاّ أنها تلاشت فلم تحتفظ ذاكرة التاريخ منها، إضافة إلى ما ورد، إلاّ بالعناوين التالية :

- « **الغرّة اللائحة والمسك الفائحة في المعجزة الواضحة** »، وهو كتاب روى فيه المؤلّف قصّة الجدي وضمّنه قصيدته في الغرض والمشار إليها أعلاه .

- « **العقد الفريد في التعريف بأهل الجريد** »، وهو مصنّف في تراجم رجالات منطقة الجريد بالجنوب التونسي، أشار إليه حسن حسني عبد الوهّاب في غضون تقديمه لكتاب « **مؤنس الاحبّة في أخبار جربة** » لأبي رأس الجربي، وذكره الهادي ابن مصطفى التوزري في ص 61 من كتابه « **عبد الله الشقراطسي** » .

- « **تحف المسائل بمنتخب الرسائل** »، وهو مؤلف يبدو أنّه في المكاتبات الأدبية .

- « **دلائل اليقين إلى مسائل التلقين** » .

- « **الشعب الشهيّة والتحف الفقهيّة** » وهو مصنّف في الفقه الإسلامي .

- « **درر السمط** » **في علم الفلك** » .

- **حاشية على أحد شروح صحيح مسلم** .

- **رسالة في الهندسة** أوضح فيها نظريّته في توزيع المياه. ومعلوم أن التقسيم الثلاثي ثمّ السداسي انطلاقا من كلّ ثلث هو إنجاز روماني لا محالة ويكمن فضل ابن شبّاط إذن في بعث نظام توزيع يبدأ من حيث وقف الرومان ويصل بذلك إلى ريّ جميع بساتين توزر كلّ حسب حاجته. وقد بقي هذا النظام قيد الاستعمال حتى اليوم وكلّما رام أحد تغييره انتهى إلى إقراره إذ ليس في الإمكان أبدع ممّا كان .

مراجع البحث

- باي (محمد الأزهر)

تحقيق مقدّمة صلة السمط لابن شبّاط، ش . ك . ب، الجامعة التونسية 1976، ص 46-53 .

- البختري (أحمد بن إبراهيم)

الجديد في أدب الجريد، تونس 1973 ، ص 68-75 .

- خليفة (حاجي)

كشف الظنون، اسطنبول 1960 ، ص 1198 .

- **الزركلي** (خير الدين)

الاعلام، القاهرة د . ت، 7 / 172 -173 .

- ابن شبّاط (محمد بن علي)

صلة السمط، مخط، المكتبة الوطنية بتونس، عدد 18590 ، 4 / 210 .

- العبّادي (أحمد مختار)

تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن شبّاط، صحيفة معهد الدراسات الإسلاميّة بمدريد، 1965 ، 1966 ، 13/7-26 ، 1967-1968 ، 14/99-163 .

- العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد)

الرحلة، الرباط 1968 ، ص 52-59 .

- عبد الوهّاب (حسن حسني)

ابن شبّاط، الثريّا، ماي 1945 ، ص 4-6 .

- العيّاشي (محمد بن علي)

الرحلة، ط. حجريّة، فاس 1897 ، 2 / 408 .

- كحّالة (رضا)

معجم المؤلّفين، دمشق د . ت، 11 / 57 .

- مجهول

المهندس ابن شبّاط من نوابغ الجريد التونسي، مجلة المناظر، باريس، مارس 1962 ، ص 3 .

- محفوظ (محمد)

تراجم المؤلّفين التونسيّين، بيروت 1404 هـ / 1984 ، 141-143 .

- مخلوف (محمد)

شجرة النّور الزكيّة، القاهرة 1350 هـ / 1930 م، ص 191 .

- AMARI Michele

Biblioteca arbo-Sicula, Turın et Rome 1980, I/345-352.

- BEY Mohamed Lazhar

L'Afrıque du Nord dans l'oeuvre d'Ibn Sabbat, Thèse de 3e cycle, Université des Sciences Humaines, Strasbourg II, 1984, I/33-43.

- BRUNSCHVIG Robert

La Berbérie Orientale sous les Hafsides, Paris 1940-7, II / 211.

محمد الأزهر باي



الزبير التركي

يبقى اسم **الزبير التركي** مقترنا عند عامة الناس في تونس بفنّ الرسم. وتملأ تخطيطاته أذهان مواطنيه مؤثرة بوضوح في تصوراتهم عن الفنّ التشكيلي، بعد أن نهضت أعماله لفترة طويلة بالإبلاغ الشامل عن حياة مجتمع بصدد التحوّل وبالتعبير عن رؤية فنيّة فذّة إلى حدّ يكاد يصبح معه الفنان شخصية ضمن شخصياته المتخيّلة وجزءا من أجزاء عالمه المبتدع. إنّ البحث في تضاريس هذه الشخصية الفنيّة يأخذنا إلى سفر طويل بين عوالم حسية وشعرية مختلفة، بين أجواء المدينة الإسلامية وأصقاع الشمال الأوروبي الجليدية، بين حياة باطنة مطمئنة واضطرابات النفس الحائرة ؛ كما تطالعنا من خلال أحداثها المعيشة نشوة الانتصار والتمكن من الشكل والسيطرة على الإبداع أحيانا ولحظات ريبة وشك في مغزى العمل الفنّي وجدواه. ولا تقف أهميّة أعمال الزبير التركي عند حدّ الشهادة بصدق على ثقافة عصر بأكمله، وإنّما تتجاوز ذلك إلى الإسهام إيجابيا في حلّ مشكلة تأصيل الفنّ التشكيلي كقضية مطروحة في إطار الثقافة العربية المعاصرة.

ولد الزبير التركي في 19 نوفمبر سنة 1924 بأحد أحياء ربض باب السويقة من مدينة تونس العتيقة، وكان أبوه المرحوم مصطفى التركي موظفا صغيرا بدواوين الحكومة وقد اختار له، بعد الدراسة الابتدائية، مواصلة تعليم تقليدي في جامع الزيتونة. ولكنه سرعان ما غادره للالتحاق في سن الثامنة عشرة بمدرسة الفنون

الجميلة بتونس» ولم يطل به المقام هناك فانتقل إلى معهد الدراسات العليا بتونس" حيث تابع تكوينا أدبيا حتى سنة 1946 ثم انخرط في سلك الموظفين حتى تاريخ سفره إلى السويد سنة 1952.

لم يظفر الزبير في مدرسة الفنون الجميلة التي غادرها سريعا، ولا في معارض الصالون التونسي، حيث كان يعرض الرسامون الأجانب، بما يساعده على اتباع طريق خاص وخوض مغامرة فنية متميّزة ؛ وأنّى له ذلك في وسط فنّي يعجّ بالأعمال السطحية والمواضيع المجترّة التي تحاول نقل الواقع من خلال قوالب جاهزة مثل المناظر الطبيعية الفجة وصور الأهالي العرب في أوضاع الفقر والحرمان أو المواضيع الأكاديمية التي عفّى عليها الدهر. كانت تظاهرات "الصالون التونسي" وغيره من القاعات الخاصّة في الثلاثينات تعرض محاولات فنية جامدة غير قادرة على الارتباط بما جدّ من تجارب رائدة في أوروبا، فضلا عن التعبير بصورة حيّة عن حياة المجتمع التونسي العربي في ذلك الوقت. وإزاء هذا التخلّف في التقنيات والموضوعات أحجم الزبير عن آقتفاء خطى أولائك الرسامين الأوروبيين الذين كانوا ينصبون مساندهم في معابر المدينة العتيقة وأزقتها لرسم "المشاهد العربية" و "الملامح المحليّة". كان يحسّ إحساسا عميقا بالحياة الدافعة الحارّة في قلب تلك المدينة وكان ينفر، لذلك، من الصور الجامدة الفقيرة التي صاغها لها الوجدان الأجنبي دون وفاء لملامحها الإنسانية الثرية. وبعد تلك الفترة بسنوات طويلة، وعندما آختمرت الذكريات داخله وآلتحمت بتجربته الوجدانية على مدى سنوات الغربة في البلاد السكندينافية، أخرج في بداية الستينات مجموعة من النصوص المصورة في كتاب " تونس بالأمس القريب واليوم» تعبر عن الروح العميقة لمدينة تونس التي أخفق الفنانون الأجانب في فهمها.

تمتزج في هذا الكتاب براعة التخطيطات والقدرة على رواية الأحداث والعادات المنظمة لحياة المدينة، بالتعليقات الفكهة المصوّرة في حسّ مرهف للملامح الحضرية التونسية. ومن خلال الصور المتتالية نرى تحوّل جسد المدينة وروحها بين الأمس واليوم : الصناعات والحرف المنقرضة أو السائرة إلى الانقراض والأعياد والأفراح والمأثورات الشعبية والعادات الغذائية إلى غير ذلك مما تحفل به حياة مدينة. ويقدّم الزبير التركي هذا العالم المتكامل برؤية الشاهد المشارك الذي يصوّر الشخصيات والأشياء بروح متعاطفة.

ويُعزى هذا الاهتمام بالمجموعة البشرية المحيطة كموضوع للتعبير الفني، إلى إحساس الفنان، في مرحلة مبكّرة، بثنائية الإطار الثقافي الذي عاشه المجتمع التونسي قبل الاستقلال بين انتمائه الأصيل وتبعيته للأجنبي، وهو في الواقع آهتمام بإبراز مقوّمات الثقافة الوطنية كواقع حضاري وإنساني قائم بذاته ومغاير للثقافة الأجنبية، ولا يقصد إلى تسجيل اثنوغرافي جامد للخصائص المحلية كما تتراءى للنظرة الاستشراقية السائدة عند الفنانين الأجانب.

كانت تونس في بداية الخمسينات لا تزال ترزح تحت وطأة حضور أجنبي زاد في حدّته ما شهدته البلاد من تململ الأهالي وتفاقم الإضطرابات وتصاعد الكفاح من أجل التحرّر. وكان الطريق مسدودا في وجه الفنانين التونسيين الشبان ممن كانوا يطمحون إلى تعميق تقنياتهم ورؤياهم الفنية، فاختار بعضهم الاغتراب في أعقاب الحرب العالمية الثانية لآستكمال دراستهم الفنية أو للتعرف على الأجواء الفنية في أوروبا وخاصةّ في باريس. وفي سنة 1952 هاجر الزبير التركي بدوره إلى السويد. وفي خلال إقامته بستوكهولم التي دامت حتى سنة 1958 آلتحق لمدّة سنتين **بالكونستفاك سكولا**، مدرسة الفنون الجميلة في العاصمة السويدية.
كان في ثقافة الشبّان التونسيين المزدوجة ما يجذبهم آنذاك في طفرة حالمة إلى أجواء الغرب الصاخبة المؤتلقة، وإلى أسطورة التقدم الحضاري الواعدة بآفاق إنسانية جديدة وبالخلاص من أوضاع التخلّف والتبعية للأجانب. ولعلّ الزبير التركي كان من ضمن أولئك المتطلعين إلى وعود الحياة الأوروبية، غير أنّ المسافة بين التخيّل والممارسة، بين الحلم والواقع كانت أبعد ممّا يتصوّره وجدان شاب مصمّم على تغيير نسق حياته ومعناها. وفي طيات هذه المسافة يولد الوعي بالواقع وتولد الرؤية ويحدث الانقلاب، وفعلا لم يلبث أن تبلور وعي الزبير بكلّ ما يفصله عن السويد. كان وجوده هناك على آمتداد سنوات اضطرارا واغترابا ولم تحمل لوحاته وتصاويره في تلك المرحلة أكثر من المظاهر الخارجية للأشياء، وثقل الظلال الداكنة في المشاهد الطبيعية الملتفعة بالثلج مثلما كان ينظر إليها بعين المغترب الذي لا يرى فيها غير الإطار الشاهد على غربته. وعندما كان يرسم الطبيعة الشماليّة وأعين النساء الشقراوات في زرقتها الجامدة، لم يكن في الواقع يفعل إلاّ ما يفعله الرسامون الأوروبيون أمام المشاهد والمواضيع الشرقية. أي أنّه كان يحاول بلا جدوى استبطان حقيقة إنسانية وجمالية يفصله عنها حاجز وضعه الوجودي. وفي خضم تلك الحيرة ومن خلال ذلك الصراع كانت تطفو على سطح ذاكرته الرؤى القديمة والمشاهد الغارقة في الشمس الإفريقية والوجوه

الأليفة الآتية من أعماق طفولته وشبابه. وكان مدفوعا إلى إعادة تشكيل تلك الحياة الدفينة في داخله من خلال ابتسامة، أو حركة، أو وضع جسدي، كمن يجمّع أجزاء صورة ممزّقة. كانت تلك الرؤى المتفرّقة المتطايرة من باطن الذاكرة في الفترة السويدية إيذانا بالتصاعد البطيء لعالم بأكمله يقوم على قوّة التذكّر وتشدّ أجزاءه إلى بعضها روح الفنان الدائمة التفاعل بأحداثه الروحية والإنسانية.

ومنذ ذلك العهد ظهرت عند الزبير التركي إرهاصات التحوّل عن المفهوم السائد للفنّ الغربي الحديث والمؤدي إلى اعتبار الإنجاز المادي للوحة في خطوطها وألوانها كنهاية في حدّ ذاتها بصرف النظر عن المضمون الروائي. وتعمّق هذا التحوّل تدريجيا ليفضي إلى انقلاب واع ضدّ ذلك المفهوم اللاروائي الذي يحصر التعبير التشكيلي في بعده البصري ويهدّد بالتالي عالمه الخاصّ المبني على التذكّر. وقد وصل به الإصرار على مناقضة المنحى التشكيلي المحض إلى رفض صفة الرسام والتشبّه بالفداوي (الحكواتي أو الراوي) في تقاليد القصص الشعبي، ملتمسا بذلك اقترابا من الحسّ التقليدي وتحقيقا ممكنا للتأصيل الفني.

والواقع أنّ الزبير التركي قد حقق هذا الاقتراب في مستوى المضمون الحكائي وكذلك في مجال الصيغة التشكيلية. فالحكاية كمضمون لا علاقة لها عنده بالصبغة الأدبية التي تميّز الفنّ التشبيهي الغربي السابق لثورة الفنّ الحديث. ثمّ أنّ العالم الذي يصوّره، رغم مصداقيته، ليس منقولا عن نموذج محدّد وهو لا يسجّل أحداثا ذات تاريخية مضبوطة ومدقّقة، كما أنّه، من حيث الطرح التشكيلي المحض، لا يتورّط في معالجة الحيّز أو الفضاء من خلال المنظور الواقعي. إنّه عالم مُتمثّل تماما تنظمه رؤية بالغة التفرّد وتخترقه من أقصاه إلى أقصاه قوّة تعبيرية ذاتية.

ونلاحظ أنّ الزبير التركي قد اختار، خلافا للفنانين التونسيين الذين شُغلوا مثله بالتراث ، الطريق الأصعب والأكثر طرافة لضمان التواصل بين إبداعاته والحسّ الفنّي التقليدي. فبينما اتجه الكثيرون، تحت تأثير النظريات الأوروبية حول الشكل والتكوين، إلى الاهتمام بالعناصرالتشكيلية التراثية كالوحدات الزخرفية، أو إلى تحييد الشكل الإنساني بإفراغه من كلّ محتوى وجودي حيّ وتحويله إلى مجرّد عنصر شكلي يتلاءم مع الواقع المسطّح للوحة، نجد الزبير يتّجه رأسا إلى الإنسان كموضوع للبحث التشكيلي، دون أن يفقده حضوره الإنساني في العمل

الفنّي. ويبدو أنّ ما يدفعه إلى هذا التحدّي هو إيمانه بأنّ التعلّل بشكلانية التراث الزخرفي العربي الإسلامي لاستبعاد أو لتحييد الشكل الإنساني، إنّما هو ذريعة سهلة للالتحاق بالجماليات الغربية تحت ستار الأصالة والعبور إلى الكونية من خلال فهم مزيف لحقيقة الصورة الإنسانية في الفنّ الإسلامي. ولعله يرتبط هنا بتقاليد المصوّرين المسلمين الذين توصّلوا من خلال تأويل الأحاديث الشريفة الناهية عن التصوير إلى إنتاج فنّ لا يرتكز إلاّ على الصورة البشرية. وبالإضافة إلى الأهميّة الشكلية لخطوط الجسد الإنساني في فنّ الزبير التركي واندماجها التخطيطي في التكوين العام لأعماله، فإنّ الإنسان يتعدى عندد البعد الشكلي ويظلّ محتفظا في اللوحة بالسيادة والمنزلة الرفيعة التي يحظى بها في الخليقة، إلى حدّ يجعل أعماله تستند في مجموعها إلى ما يشبهُ الفلسفة الإنسانية، والواضح أنه يربط مع العنصر البشري علاقة جوهرية وتفضيلية من خلال تنوّع كبير في المواقف والمشاهد والنماذج الاجتماعية. وعندما يحدثك الزبير عن شخصية من شخصياته المصوّرة فإنّك تشعر بعمق الصلة العاطفية والروحية التي تربطه بها وهو قادر على أن يصف لك آمال تلك الشخصية وآلامها وعلاقاتها المفترضة بالوسط الاجتماعي ويحدثك عن آرائها وميولها إلى غير ذلك .إن ينبوع خياله الفني ومنظومة أشكاله يرجعان إلى البيئة التقليدية مما يجعله يصرّح مرّة أنّه تعلّم الرسم في جامع الزيتونة ! ويتجاوز هذا التركيز على الإنسان، الصيغة الحكائية التي قد تروي الإنسان ببرود وحياد كعنصر عادي من عناصر بيئته التي تحيط به، فنرى الفنان يعمل دائما على نقض هذا الحياد لصالح الإنسان على حساب العناصر الأخرى.

يحشد الزبير التركي في عالمه صورا ومشاهد مختلفة من الحياة التونسية ؛ إنّه الشاعر الذي يغنّي الإنسان من الولادة إلى الموت مرورا بشتى الأحوال والأوضاع التي تعرض له في حياته، وتنقل لوحاته وتخطيطاته حركة المدينة في تنوّعها وثرائها وتمسح الحيّزين المكاني والزماني بقدرة يقظة على رصد ما يزخران به من أحاسيس وأحداث. فالرؤى تمر مثل صور شريط واحد يروي الحياة الشاملة للتونسيين : مشاهد الشوارع والأسواق العتيقة والحمامات والمؤسسات والأعياد والحياة المنزلية والشعائر والطقوس والوجوه الأليفة والغريبة. ويجمع بين كلّ الصور مناخ واحد يربطها جميعا إلى روح متميّزة تلف العمائر والحارات والأقواس والشوارع والناس في وحدة فنيّة وروحيّة تجعل من كلّ صورة مظهرا مختلفا لحقيقة واحدة، هي حقيقة المدينة التي هام الفنان في معابرها طفلا، وهي

التي كانت تتراءى له غارقة في غبار الشمس وراء ضباب الأصقاع الشمالية، وهي الإطار الثقافي والإنساني الذي آثر في النهاية أن يعود إليه ويكرّس له طاقاته التعبيرية.

إنّ تاريخية هذا العالم الزاخر الملوّن مطابقة بصورة عامة لتجربة الفنان الزمنية، فليس فيه ما هو خارج عن علاقته الذاتية بالأشخاص والأشياء وهو لا يعكس ولعا خالصا بتسجيل الموروث من التقاليد والمشاهد. وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أنّ تصوير الجزئيات في أعمال الزبير التركي ليس بالدقّة التي يتطلّبها الوصف التسجيلي الدقيق، بل أنّ مفهومه الحرّ للإبداع كثيرا ما يصادم المطابقة الوثائقية الدقيقة للواقع. إنّ الإنسانية التي آختلط بها وتفاعل معها وجهد في التعبير عن خصائصها الإجتماعية والحضارية تؤلف عالما مشتركا بين الواقع والخيال، بين التجربة التاريخية الفعلية واستمرارها في وجدان الفنان في شكل ذكرى قد تختلط بعناصر مُتخيّلة. فقد يحدث أن نتعرّف، وهذه المرّة من خلال الحركة أو الهيئة أو اللباس، على شخصية أخرى ولكن المشابهة الذاتية ليست هي المقصودة بل المهمّ هي المصداقية العامة للمشهد وانتمائه للمناخ الاجتماعي والثقافي والنفساني كما يحسّ به الفنان وبطريقة تجعل الأشخاص ممكني الوجود، إن لم يكونواقد وجدوا فعلا. وأحيانا تكون الشخصية الواحدة مزيجا من عناصر وخصائص مختلفة يقدّمها في صيغة تأليفية جديدة بوجود خاص وحضور مستقلّ.

ومن هذه الناحية يمكن القول إنّ للزّبير التركي اتجاها واقعيا بشكل من الأشكال. ويتأكّد ذلك في قدرته على شحن شخوصه بحياة ذاتية نابضة وإعطائها جملة من الخصائص النفسية المميّزة، محاولا أن يجعل المشاهد ينفذ إلى عمق تلك الخصائص كما تمثّلها وتواصل معها هو نفسه. وهكذا تبدو لنا الشخصيات بعيدة عن الجمود والنمطيّة رغم آكتسابها لبعد متخيّل يربطها جميعا بالأسلوب الموحّد الفنان ويجعلنا نتعرّف عليها سريعا.

ولنتساءل : ما هي علاقة هذا العالم بالتجربة التقنية للزبير التركي ؟ كان لا بد لتلك الرؤية المتميّزة أن تبحث لها في مستوى الإنجاز، عن أسلوب متميّز يلائمها، وقد كانت مسألة الشكل فعلا إحدى المسائل الهامّة التي واجهها الفنان وعمل على إيجاد حلّ لها. ونلمس أثر تلك المحاولات في مختلف مراحل عمله الفنّي، بل انّ

البحث عن الأسلوب كان في الواقع هدفه الأوّل بآعتباره الوسيلة الوحيدة التي كان عليه إيجادها - بصفته تشكيليا - للتعبير الملائم عن رؤيته الذاتية.

ولعلّ الزبير التركي كان موزّعا، في بداية حياته الفنيّة، بين ضرورة التعبير التلقائي عن عالمه الحكائي المتنامي باطنيا، وبين الرغبة في الإسهام كغيره من الرسامين في التجارب الشكلية التي تعطي الأهمية لآستقلالية المعالجة التقنية ومراعاة التعبيرية الخاصة لمادّة الخطّ واللون. ونراه في لوحاته الزيتية أو الصمغيّة يواجه هذه الثنائية محاولا إيجاد توازن بين المضمون الحكائي والضرورات التشكيلية البحتة. ولعلّه أحسّ في بداية السبعينات بالرغبة في خرم هذا التوازن لصالح الاهتمامات التشكيلية فأنجز لوحات اكتسبت فيها مادّة الألوان شيئا من الحضور المستقلّ، ولكنّه سرعان ما تخلّى عن تلك التجربة لبعدها عن مشاغله الفنيّة العميقة ولم يكن ذلك يخلو من إحساس بالإحباط لازمه بضع سنوات أمسك خلالها عن الإنتاج بصورة تكاد تكون تامة.

كانت معالجة الزبير التركي للألوان تتراوح قبل تلك الفترة بين المساحات اللونية الهادئة المتجاورة دون اهتزاز أو توتّر وبين اللمسات المنفعلة، السريعة والعريضة. ويبدو أن اهتمامه كان مركّزا على إيجاد التآلفات الأكثر تلاؤما مع الموضوع والأكثر تناسقا مع الهيكل التخطيطي للّوحة الذي يظلّ العنصر الأساسيّ في التكوين. لقد أشار الناقد التشيكي ميلوسلاف كرايني في الكتاب الذي نشره عن الزبير التركي في الستينات إلى أنّ الأخير يقترب في تعامله مع الألوان من جمالية المدرسة « الوحشية» وينبغي في رأينا أخذ هذا الحكم بشيء من الاحتراز، إذ أننا لا نجد في رسوم تلك الفترة إلحاحا خاصّا على تعبيرية الألوان بصورة متضادّة أو صاخبة، بل كثيرا ما نلاحظ بحثا حول التآلفات الخفيضة الهادئة بين اللوينات، هذا بالإضافة إلى الحضور المسيطر للتخطيط على اللوحة.

والواقع أنّ الفنان في سنوات ابتعاده عن الإنتاج وآشتغاله مستشارا لدى وزارة الثقافة خلال فترة السبعينات وبداية الثمانينات، قد عمّق قضيّة التقنية وعلاقتها بأصالة التعبير وقد يكون انتهى (وذلك ما نستنتجه من معرضه الكبير في قاعة قرجي للفنون سنة 1982) إلى أنّ طبيعة عالمه الفنّي الخاصّة تفرض عليه نقل البحث التشكيلي إلى مستوى التخطيطات لقدرة الأخيرة على ملاءمة الصيغة الحكائية، ولأنّها أقرب الوسائل للتعبير عن شخصيته الأسلوبية. إنّه يرى في الخطّ تعبيرية مكتملة لا تحتاج إلى اللّون لتجسيم رؤاه الفنيّة كما يريد لها أن

تتجسّم. فالخطّ يبيح امتلاك الفضاء البكر للوحة وتعميرها، وله كلّ الطاقات التعبيرية والانفعالية والموسيقية اللازمة لإنجاز الموضوع من خلال مغامرة باحثة، مخترقة لبياض اللوحة. وإنّ في تلك المغامرة من الإثارة ما في تجربة النحّات في اتصاله الأوّل بالمادّة الغُفل لتجسيدها في شكل يوحي بالحياة. وما من شكّ في أنّ أسبقية الخطّ وروحه الحاضرة يرمزان إلى الحريّة المنطلقة الباحثة بينما يخضع اللون عنده إلى اهتمامات بنائية تتمثل في ملء الفضاءات التي يحددها الخطّ. كما أنّ انسياب الخطّ يذكّر بالخيط السردي في الحكاية، وهنا نلمس أهميّته في التعبير عن عالم الزبير التركي.

إننا نلاحظ داخل المنظومة التخطيطية للفنان، تنوع الخط وتعبيريته مع المحافظة على وحدة الأسلوب. فتارة يكون سريعا ومختزلا وتلميحيا، ويغلب هذا الجانب العاري والمختزل للخطّ على تصاوير الخمسينات والستينات، وأحيانا يكون متّصلا ومتأنيّا خاصة في التصاوير المتأخّرة وقد يصبح أنيقا وقشيبا بأبعاد زخرفية. ويرجع الزبير هذا الإختلاف في النسق والتعبير الخطّي إلى حالاته النفسية حيث يرى أنّ الخطّ أداةيلهو بها حسب الإيقاع النغمي الذي يعنّ له.

ولعلّ في هذا الجانب اللاهي تعبيرا عن بعد هامّ يميّز الأجواء الذهنية والروحية التي يتحرّك فيها، فعالمه متناغم متصالح مع نفسه لا أثر فيه للتمزّق والانهيار والشذوذ. يقول الزبير التركي إنّه غير قادر على التعبير عن الاضطراب واليأس والخيبة وهو مؤمن بأنّ الكون متوازن منظّم وأمره بيد الله وحتى عندما يصوّر الإنسان في حالات المرض والفقر والحزن فإنّه مقتنع بأنّ تلك عوارض تزول ولا تمسّ بالجوهر الإنساني. فشخوصه هادئة لا تعرف الانسحاق والقلق النفسي وهي متصالحة مع عالم لا يعرف القطيعة.

الزبير التركي

- ولد في 19 نوفمبر سنة 1924 بتونس

1941 : - درس لمدّة قصيرة في مدرسة الفنون الجميلة بتونس.

1953 : - سافر إلى السويد وزاول الدراسة مدّة سنتين بالكونستفاك سكولا (مدرسة الفنون الجميلة) بستوكهولم.

1958 ـ 1970 : بعد عودة الزبير التركي سنة 1958 إلى تونس مارس نشاطا مكثفا كرسام ومصوّر في الجرائد والمجلاّت ممّا أكسبه شعبية واسعة.

وقد شارك خلال تلك الفترة في تظاهرات فنيّة بالخارج مثل معارض السنتين في البندقية وباريس وساو باولو والمعرض الدولي بمونريال.

نشر مجموعة تخطيطات في كتاب "تونس بالأمس القريب واليوم" (منشورات كتابة الدولة للإعلام والسياحة) ورسم مجموعة من الجداريات في أماكن مختلفة من بينها قاعة المؤتمرات بالمنستير والقاعة الكبرى لدار الإذاعة والتلفزيون بتونس ورواق إدارة البريد والبرق والهاتف بصفاقس.

1961 : شارك في معرض الفنّ التونسي المعاصر بالولايات المتحدة (واشنطن ونيويورك وشيكاغو).

1962 ـ 1963 : ساهم مرتين متتاليتين في معرض جماعي سنوي بقاعة الفنون بتونس.

1964 : شارك في معرض الفن التونسي المعاصر بمدينة ميلانو (إيطاليا).

1968 : إنتخب كأوّل رئيس للاتحاد الوطني للفنون التشكيلية والتخطيطية وظلّ رئيسا له حتى سنة 1975.

1970 : نال الجائزة الكبرى لمعرض الاتحاد الوطني للفنون التشكيلية والتخطيطية.

1970 ـ 1979 : شغل خطة مكلف بمهمة لدى وزارة الثقافة طيلة تلك الفترة.

1973 : انتخب رئيسا للجنة الثقافية في المجلس البلدي لمدينة تونس.

1975 : انتخب رئيسا لاتحاد الفنانين التشكيليين للمغرب العربي.

1977 ـ 1979 : أوّل مدير لمركز الفن الحيّ بحديقة البلفيدير تونس (متحف الفن الحديث). وانتخب خلال تلك الفترة عضوا في مجلس النواب (البرلمان).

1982 : أقام معرضا شخصيا لتخطيطاته بقاعة قرجي بتونس. كما اشتغل منذ بداية الثمانينات بالنحت وأنجز منحوتات لفائدة الدولة من بينها تمثال " ابن خلدون" المقام في ساحة الاستقلال بتونس.

ويواصل الزبير إلى اليوم نشاطه الفنّي والثقافي بصفته مستشارا لدى وزارة الثقافة وهو بصدد إعداد متحف خاصّ بأعماله في حديقة بيته في ضاحية شوشة رادس القريبة من تونس.

المراجع

- الزبير التركي : " **تونس بالأمس القريب واليوم** " (بالفرنسية) تخطيطات عن الحياة الحضرية بتونس مصحوبة بنصوص وتعليقات للفنان أعاد صياغتها بالفرنسية كلود روا. منشورات كتابة الدولة للإعلام والسياحة - تونس (بلا تاريخ).

- ميلوسلاف كرايني : " **الزبير التركي** " (بالفرنسية) " منشورات الآداب والفنّ". براغ (تشيكوسلوكيا) 1963.

- علي اللواتي : " **نظرات في الفنّ التونسي المعاصر** " جريدة "لوموند" الفرنسية، عدد 3/4 جوان 1984، باريس

- علي اللواتي : " **الرسم في تونس منذ البدايات إلى اليوم** " دليل معرض أقيم بمركز الفنّ الحيّ لمدينة تونس، 1982.

علي اللواتي



البشير خريّف

[1983 - 1917]

تمهيد

لقد تدرّب البشير خريّف على نول مدرسة الأقصوصة التونسيّة الفتيّة في الثلاثينات وتغذّى بثمار حركة أدبيّة وفنّيّة تجديديّة أينعت في تونس خلال تلك المرحلة التاريخيّة الحاسمة التي اضطربت فيها أركان المجتمع وتلاطمت في خضمّها أمواج الصراع بين المقلّدين والمجدّدين. ولذلك مال البشير خريّف إلى التيّار التجديديّ وواجه مناهضيه بشجاعة أدبيّة فتحت له مسلكا بكرا ورشّحته للتربّع على عرش الرواية التونسيّة منذ فجر الاستقلال.

والحقّ أنّ البشير خريّف قد توصّل إلى كتم أصوات خصومه وترصيع تاج الفنّ القصصيّ في تونس بدرر نفيسة بفضل تميّزه بموهبة أدبيّة أصيلة ومهارة فنّيّة رائقة ورؤية فكريّة عميقة وروح نقديّة مرحة. فمن ذلك الرحم الخصب تولّد عالم البشير خريّف القصصيّ طافحا بشذى التراث، متلوّنا بلون الواقع التونسيّ، مردّدا أصداء أفراح التونسيّين وأتراحهم، كاشفا عن تاريخهم القديم وواقعهم الرّاهن، سابرا نفسيّاتهم وطبائعهم. ولا نظنّ أنّ أديبا تونسيّا احتفل بالتونسيّين في أريافهم وقراهم ومدنهم وتعمّق في تحليل واقعهم مثلما فعل البشير خريّف. ولعلّه أبرز من أنصف المرأة التونسيّة المغبونة قبل الاستقلال، تلك المرأة التي تفتّقت حيلها في آثاره وتمرّدت على العادات المكبّلة وبدّلت نظرة بعض الرجال إلى الحياة وساندت حركات التحرير ووقفت مواقف إنسانيّة رائعة.

بتلك السمات التحم أدب البشير خريّف بأعماق المجتمع التونسيّ وخلب القرّاء بنكهة عربيّة تليدة وعمق إنسانيّ زاخر وتناغم مع روائع كوكبة من الأدباء والفنّانين التونسيّين اللاّمعين. وهكذا أمسى البشير خريّف علما من أعلام الأدب التونسي الحديث فأدرجت آثاره في برامج التعليم بالمعاهد الثانويّة وشغلت الجامعيّين تدريسا وبحثا وتُرجمت إلى عدّة لغات أجنبيّة وعُرض بعضها في شكل تمثيليّات إذاعيّة وأشرطة سينمائيّة وتعلّقت بها عدّة دراسات نقديّة داخل تونس وخارجها تعلّقا ساق إلى صاحبها أهمّ الجوائز التقديريّة التونسيّة. فقد أُسندت إلى البشير خريّف جائزة علي البلهوان البلديّة سنة 1960 والجائزة التقديريّة الكبرى للأدب والفكر سنة 1981 والوشاح الأكبر للثقافة سنة 1990.

مسيرته

1 ـ الدربة

ولد البشير خريّف بنفطة سنة 1917 ثمّ انتقل سنة 1920 إلى حيّ رحبة الغنم بالعاصمة صحبة والديه وإخوته. وبعد أن اختلف إلى كتّاب « سيدي البغدادي» وإلى «مدرسة السّلام» القرآنية التحق سنة 1925 بالمدرسة العربيّة الفرنسيّة الكائنة بنهج دار الجلد فأحرز على الشهادة الابتدائيّة سنة 1932. وفي فضاء العائلة جنى البشير خريّف منذ فجر شبابه ثمار الأدب العربي القديم والحديث وحفظ بعض عيون الشعر العربيّ [1]. وكانت المدرسة الابتدائيّة نافذة تسلّلت منها أشعّة الأدب الفرنسيّ إلى حياة صاحبنا تسلّلا خلبه بروائع كوكبة من الشعراء والقصّاصين الفرنسيّين [2].

لقد تضافرت هذه العوامل على دفع البشير خريّف إلى حقول الأدب وأغرته بتدوين يوميّاته وتأليف بعض القصص والأشعار والانصراف عن مادّتي العلوم والرياضيّات بمعهد العلويّة الثانويّ. وقد أدّى ذلك إلى فصله عن الدراسة في نهاية السنة الثانية فركن إلى عزلة مريرة لم يتخلّص منها إلاّ عندما لازم أخاه الشاعر مصطفى. وفي هذا الطور اتّصل البشير خريّف بأبي القاسم الشابي ومحمد البشروش وعلي الدوعاجي ومحمد صالح المهيدي وانضمّ إلى نوادي رجال الصحافة والمسرح انضماما أثار فيه الحنين إلى دروب الأدب فراوح بين ممارسة ألوان من الأنشطة الصناعيّة والتجاريّة وقراءة روائع الأدب العربيّ والأدب الفرنسيّ. وعندما أصدر مصطفى خريّف جريدة الدستور سنة 1937 عاضده أخوه البشير بالإشراف على توزيعها ثمّ نشر بها مقالات في النقد المسرحيّ

وأقصوصته الشهيرة الموسومة بـ « ليلة الوطيّة». وبتلك الأقصوصة تجلّى ميله إلى المنزع الواقعيّ الاجتماعي وتعلّقه باستعمال الدّارجة في الحوار وكلفه بسبر أغوار الحياة العاطفيّة. غير أنّ النقّاد الصحافيّين انتقدوا أقصوصة « ليلة الوطيّة» وتهجّموا على البشير خريّف تهجّما كدّر حياته وحمله على الصمت.

وسرعان ما احتجبت جريدة «الدستور» فالتحق صاحبنا بمدرسة « سمنجة» الفلاحيّة ثمّ غادرها في نفس السنة نظرا إلى اعتلال صحّته وعمل كاتبا لدى أحد المحامين بالعاصمة. وقد حرص خريّف - إثر زواجه - على التوفيق بين الدراسة والكسب ففتح متجرا لبيع الأقمشة وتابع دروس «الخلدونية» مساء متابعة يسّرت له الإحراز على شهادة « البروفي» «Brevet élémentaire d'arabe » سنة 1940.

وقد تلوّنت حياة البشير خريّف في هذا الطور بظروف الحرب العالميّة، إذ أزهرت تجارته في ظلّ السوق السوداء ثمّ كسدت بكسادها فانصرف عن التجارة ورجع إلى مجالس أهل الفكر والأدب واختلف إلى مدرسة « العطّارين». ومن تلك المدرسة أحرز سنة 1947 على «شهادة الدراسات العليا » «Diplome supérieur d'arabe» التي فتحت له مجال التدريس بالمدارس الابتدائيّة.

إنّ التحاق البشير خريّف بسلك المعلّمين قد مثّل منعرجا حاسما في حياته، إذ وفّر له الوظيف الحكوميّ دخلا قارّا ويسّر له الإقبال على المطالعة والتأليف. فمنذ فجر الثلاثينات أمسى صاحبنا مولعا بقراءة القصص والروايات، متلذّذا بتصفّح كتب الأخبار والتاريخ والمناقب تلذّذا غذّى شغفه بتاريخ تونس ودعم اعتزازه ببطولات الأسلاف. وقد كان العهد الحفصيّ من أهمّ العهود التي شغلت البشير خريّف نظرا إلى خطورة الصراع الذي دار آنذاك بين المسلمين والنصارى وصعود نجم الأتراك وبسالتهم في مواجهة النصارى. ولا شكّ في أنّ ظروف استقلال تونس قد غذّت نخوته بتحقيق النّصر وأحيت أمله في تقارب المسلمين وأذكت جذوة اعتزازه بتعاضد الأتراك والتونسيّين على تخليص البلاد من قبضة النصارى في العهد الحفصي فعزم على تأليف رواية تخلّد أحداث ذلك العهد الحفصي.

لقد درس البشير خريّف أهمّ المراجع المتعلّقة بالعهد الحفصي وجمع عدّة وثائق وزار مواطن الأحداث الخطيرة التي شهدتها البلاد في عهد إحْمَيْدَة الحفصي ووضع تخطيطا دقيقا لرواية وسمها بـ « بلاّرة» ثمّ حرّر جميع فصولها. وإثر ذلك أعاد النظر في المخطوط ونقّح بعض فصوله وغيّر بنيتها وفق تخطيط جديد. ورغم

ذلك فإنّ صاحبنا أعرض عن نشر روايته هذه لأنّه كان يفكّر - حسب ما دلّت عليه هوامش المخطوط - في فتح عالمها على فضاء أرحب.

ولا شكّ عندنا في أنّ ظروف النشر آنذاك وغياب الفنّ الروائيّ عن الحركة القصصيّة في تونس والخوف من ألسنة النقّاد قد كبّلت البشير خريّف تكبيلا جعله لا يجازف بنشر روايته في تلك الفترة.

2 - التحدّي

لقد اختلط البشير خريّف بجميع فئات المجتمع التونسيّ فألمّ بأهواء التونسيّين وسبر نفسيّاتهم ووقف على ثراء عالمهم وطرافة لهجاتهم وقوفا هداه إلى معدن ثريّ للأدب وغذّى ميله إلى الاتّجاه الواقعيّ الاجتماعيّ ونمّى إعجابه بروّاده التونسيّين الذين لمعوا في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن. وعندما تبلورت رؤيته الفنيّة عزم على تحدّي أنصار التقليد الذين تحاملوا على أقصوصة « ليلة الوطيّة » وألجموا صوته طوال عشرين سنة وصرفوا علي الدوعاجي عن استعمال الدّارجة في قصصه رغم تميّز أزجاله ومسرحيّاته المكتوبة بالدّارجة. فقد حرص البشير خريّف على تحقيق « ما تاق إليه علي الدّوعاجي » وجاهر بتمرّده على النقّاد وتمسّكه باستعمال الدّارجة في آثاره القصصيّة إيمانا منه بأنّ «اللّغة عند القاص غيرها عند غيره من الكتّاب : فالقاص شاهد عصره واللّغة مرآة النفس وصورة العقليّة » (3)

وبينما كان صاحبنا منكبّا على تحرير رواية « بلاّرة » تفتّحت حياته على حادثة وجدانيّة أحيت فيه أحلام الشباب وذكّرته بعالم رجال المسرح في الثلاثينات فأعرض عن رواية « بلاّرة» واستغلّ تلك المؤثّرات لتأليف رواية «حبّك درباني» (4).
وفي هذه الرواية عمّق البشير خريّف منزعه الواقعيّ الاجتماعيّ الذي دشّنه بأقصوصة «ليلة الوطيّة» فحلّل العلاقات الاجتماعيّة ووقف على مؤثّراتها وسبر أعماق الحياة العاطفيّة وتفنّن في استعمال الدارجة في الحوار. وقد ظنّ صاحبنا أنّ انتشار موجات التجديد وتبدّل أذواق القرّاء وتنوّع الفنون الأدبيّة في تونس ستصرف الدّارسين عن التهجّم عليه، وإذا بالأقلام تشنّ عليه حملة انتقاديّة وتتّهمه بالتطفّل على الأدب.

إنّ هذه الموجة الثانية من الانتقادات قد كدّرت حياة صاحبنا تكديرا حمله على مكاتبة الناقد التونسي فريد غازي - المقيم آنذاك بفرنسا - ليستنير برأيه في رواية

«حبك درباني» فأجابه فريد غازي بدراسة حلّل فيها الرواية وأبرز أنّ اللّغة الدّارجة لا تُعدّ نقيصة فيها [5]. ومنذ ذلك الحين ثبت للبشير خريّف زيف تلك الأقلام المتحاملة عليه وقرّ عزمه على تحدّي خصومه ومواجهتهم بالإصرار على اتّباع منهجه الخاصّ في القصّ والتعبير عن مكامن رؤيته. ولذلك رجع إلى مخطوط رواية بلاّرة فنقّح فصوله وغيّر ترتيبها وفكّر في توسيع أركان عالمها. وعندما استعصى عليه إثراء أحداث رواية بلاّرة اختار عددا من الشخصيّات التي شهدت في شبابها حكم الحسن الحفصي وألّف رواية « برق الليل » التي تُعتبر أوّل رواية تاريخيّة في الأدب التونسيّ وثمرة من ثمار وفاء البشير خريّف لذاته وإخلاصه لطبعه ورصده لتاريخ بلاده. وكان حصول « برق الليل » على جائزة علي البلهوان عربون اعتراف بقيمة قلم البشير خريّف وإيذانا بتحليقه في فضاء رحب.

3 . التـألـّق

انتبه رجال الأدب والصحافة في فجر الاستقلال إلى قيمة البشير خريّف فنقدوا آثاره وتهافتوا على مجالسه بمقاهي العاصمة تهافتا كشف لهم عن عمق ثقافته وطرافة فكره وكلفه بالفنّ القصصيّ. والحقّ أنّ حياة البشير خريّف قد سارت على إيقاع إنصاته لواقع مجتمعه وشغفه بالأدب ونزوعه إلى التأمّل منذ أن خفّف عنه بعض أبنائه أعباء العائلة وأغروه بجعل منزل والده بتونس العتيقة ركنا هادئا للمطالعة والتأمّل والتأليف ومنتدى يختلي فيه بأصفيائه. ففي ذلك المحراب العابق بعطر السنين الخوالي والمرصّع بتراث العائلة تبحّر صاحبنا في مطالعة روائع الأدب العربي والأدب الغربي قديمها وحديثها ورصد حياة سكّان الحيّ وأتمّ نسج خيوط عالمه القصصيّ.

وقد كان البشير خريّف في هذا الطور من حياته يجتمع بأهل الجريد المقيمين بالعاصمة ويختلف إلى مجالس أهل الفنّ والأدب ويتابع جلسات روّاد نادي القصّة ويخصّص أوقاتا للإقامة بنفطة. وبفضل تلك العوامل التحمت حياته بحياة التونسيّين في العاصمة وتغذّى بثمار الأدب السرديّ وشحذ أدواته القصصيّة وعمّق رؤاه للحياة والفنّ تعميقا تجلّت سماته في روايته « الدقلة في عراجينها » وفي مجموعته القصصيّة « مشموم الفلّ ».

وهكذا أمسى البشير خريّف الأب الحقيقي للرواية التونسيّة وعلما من أعلام الأقصوصة والقصّة القصيرة وأشهدنا على أصالة منزعه القصصيّ وحرصه على

تجذير أدبه في التربة التونسيّة وبراعته في تطويع الفنّ القصصيّ للتعبير عن مكامن رؤاه.

4 . الصمت

إنّ تنوّع الفنّ القصصيّ في تونس لغة وأشكالا واتجاهات قد كتم أصوات أولئك الذين آخذوا البشير خريّف على استعمال الدّارجة أو على طرق « نواحي نفسانيّة لا ينبغي تشريحها »، بل إنّ تلك الجوانب نفسها أمست مواضيع لأبحاث جامعيّة. ورغم أنّ أدب البشير خريّف أصبح ركنا قارّا في الدراسات التي اهتمّت بأدبنا القصصيّ وفي المنتخبات الأدبيّة التي تُرجمت إلى لغات أجنبيّة فإنّ صاحبنا لم ينشر رواية « بلاّرة » وانقطع عن التأليف منذ مطلع السبعينات ،مفضّلا الركون إلى الصمت. ومردّ ذلك أنّ بعض الناشرين والسينمائيّين والصحفيّين والمترجمين قد سطوا على آثاره سطوا كبّل قلمه وأقحمه في مسالك القضاء المتشعّبة.

وعندما أقدم البشير خريّف على طبع رواية « حبّك درباني » بنفسه تجنّبا لعالم النّاشرين واجهته شروط الموزّعين فوأد آلاف النسخ في مخزن وبقي يجترّ طعم المرارة سنوات [6]. وقد رأى في الكتابة المسرحيّة منفذا للخلاص من الناشرين والموزّعين ومجالا لإيصال صوته إلى الجمهور الأميّ الذي اعتنى بقضاياه وتفنّن في استعمال لغته فألّف عدداً من المسرحيّات. وعندما قدّم مسرحيّة «سوق البلاط» إلى لجنة المسرح وطلبت منه أن يحوّر بعض فقراتها سخر من تلك الشروط وانصرف عن التأليف إلى أن فارق الحياة سنة 1983.

آثاره القصصيّة

لقد أعجب البشير خريّف منذ فجر شبابه بالأدب السرديّ العربيّ ورصد أصداءه في الأدب الغربيّ رصدا نمّى تعلّقه بالتراث العربي وخلّصه من ضروب التبعيّة والمحاكاة. كما أنّه نهل من روائع الفنّ القصصيّ الغربي نهلا غذّى مواهبه القصصيّة وبلور رؤيته للفنّ والحياة. وبفضل تلك العوامل تدعّم توق البشير خريّف إلى نحت عالم قصصيّ من معدن المجتمع التونسيّ وبانت أوجه التناسق بين أركان رؤيته الفكريّة ونصوصه الإبداعيّة. فقد تعلّق بالاتّجاه الواقعيّ الاجتماعيّ في القصّة وشُغف بالقصص التاريخي إيمانا منه بأنّ « الكاتب فرد من المجتمع أوتي محنة التعبير كتابة عن خوالجه وأفكاره فيما يعيشه من مشاكل مجتمعه ذاك وعلله، والقصّة عرض لتلك المشاكل والعلل وتحليل لها ومفرّج منها بها » [7].

إنّ هذه الرؤية الحاضنة لعالم البشير خريّف القصصيّ قد أضفت على كتابته مسحة من « الصدق الفنّيّ » على تعدّد أشكال آثاره واتّجاهاتها. وكانت ضروب الوصف ولغة الحديث الباطنيّ والحوار من أهمّ الوسائل المحقّقة لذلك « الصدق الفنّيّ ». فقد وصف الشخصيّات وصفا رشّحها لتمثيل فئات هامّة من المجتمع التونسيّ ووظّفه لتصوير البيئة التي تجري فيها الأحداث والتمهيد لبروز المواقف الحاسمة كما طوّع الوصف للإيحاء بنظرته إلى واقع المجتمع وطبائع أفراده. وقد نمّت طرق الوصف تلك عن ميل خريّف إلى منزع القصّاصين الواقعيّين وأشارت إلى صلات عالمه القصصي بواقع المجتمع التونسيّ. أمّا لغة الحديث الباطني والحوار فكانت - في جلّ الحالات - كاشفة عن أحاسيس الشخصيّات وعقليّاتها ومشاغلها بعبارات مناسبة لدرجة وعيها ودالّة على أنّها تمثّل نماذج بارزة في المجتمع التونسيّ.

والحقّ أنّ البشير خريّف لم يقتصر على استعمال العاميّة في الحوار، ذلك أنّه فتح اللّغة الفصحى في السّرد والوصف على العبارات العاميّة كلّما وجد فيها إيقاعا متميّزا أو شحنة دلاليّة مفقودة في الفصحى. فقد اكتشف صاحبنا غزارة الطاقات الكامنة في العاميّة فتفنّن في استعمالها وتعلّق بها تعلّقا شجّعه على التهكّم من النقّاد في هوامش قصّته القصيرة الموسومة بـ « محفظة السمار ». وكثيرا ما نقد القصّاصين العرب العازفين عن العاميّة مبيّنا لهم أنّ الإعراض عنها « هروب من واقعنا ومن زماننا ومكاننا » (8).

إنّ نهل البشير خريّف من تراثه واطّلاعه العميق على روائع القصّاصين الغربيّين وحرصه الدّائم على الإخلاص لطبعه والاهتمام بواقع بلاده قد مكّنته من شحذ مواهبه القصصيّة وبلورة رؤيته بلورة وسمت آثاره بطابع أصيل. ذلك أنّها انطوت على خصائص الفنّ القصصيّ العربي والغربي وكشفت في الآن نفسه عن أسلوبه الخاصّ وطبعه المرح ونظرته إلى الفنّ والحياة وصوّرت التحام قضايا الشخصيّات بقضايا المجتمع التونسيّ في ماضيه وحاضره. ولئن تراءت لنا سمات أعلام القصص التاريخيّة والقصص الواقعيّة ظاهرة في آثاره ظهورا ينمّ عن عزوفه عن موجة الرواية الجديدة الغربيّة التي تسرّبت إلى حقول الرواية العربيّة فلأنّه ألمّ بمرجعيّات القارئ العربيّ في عصره إلماما يسرّ له التناغم مع ذوقه الأدبيّ (9).

1 . النزعة التاريخيّة

ألّف البشير خريّف آثاره القصصيّة التاريخيّة (10) في فجر الاستقلال تأثّرا بموجة الاعتزاز بالذّات والانتشاء بالحريّة والكلف بإرساء أسس الدولة الحديثة. وقد اهتمّت تلك الآثار بالمنعرجات الخطيرة التي هزّت أركان البلاد وكشفت عن وجوه ثلّة من الأعلام اضطلعوا بأدوار بطوليّة خلال الأحداث التاريخيّة الحاسمة. وقد تفنّن البشير خريّف في المزاوجة بين الأحداث التاريخيّة والأحداث القصصيّة مزاوجة حافظت على الجوانب التاريخيّة الثابتة وأثرتها بأحداث خياليّة وفّرت لها أركان « القصص الفنّي ». فآثار البشير خريّف التاريخيّة جمعت بين الشخصيّات التاريخيّة و الخياليّة وتفتّحت على قصص عاطفيّة طبعتها بطابع إنسانيّ مشرق وأطلّت من زواياها وجوه أبطال خياليّين مثّلوانماذج لفئات باسلة تجاهلها التاريخ.

لقد نوّه البشير خريّف في « محفظة السمار » بأدوار الزعماء التونسيّين في الحركة الوطنيّة ووصف مواقفهم ومواقف الأبطال المغمورين، إنصافا منه لجميع من قاموا بأدوار حاسمة خلال أحداث أفريل 1938. فقد أسند إلى طالب زيتونيّ دورا بطوليّا ونسج خيوط قصّة عاطفيّة ربطته بالفتاة « نفيسة » نسجا كشف عن مساهمة المرأة التونسيّة في تحرير بلادها. وقد وسم صاحبنا قصّته القصيرة هذه بـ «محفظة السمار » وجعل نفيسة تفضّل حرق المحفظة في فجر الاستقلال على تركها بين « أيدغبيّة »، تلك المحفظة الملطّخة بدم « الصّادق » والشاهدة على دور طلبة الزيتونة في الحركة الوطنيّة.

إنّ اعتناء البشير خريّف بالشخصيّات القصصيّة وتفنّنه في جعل القصّة الإطار محتضنة لقصّة مضمّنة وحرصه على تشويق القارئ في المقدّمة قد وسمت «محفظة السمار » بسمات قصصيّة فنيّة وخوّلت له رصد مظاهر نموّ الشّخصيّات وانفعالها بالأحداث. فبطل هذه القصّة القصيرة نشأ مكبوت العواطف في وسط يفصل المرأة عن الرجل، وعندما انتقل إلى العاصمة تبلور وعيه السياسيّ وتفتّحت حياته على عالم عاطفيّ زاخر ملأ كيانه وأنار أركان وجوده، ذلك أنّ الحبّ ربط بينه وبين فتاة مُحجبة ربطا بثّ فيهما روحا وطنيّة دافقة وغيّر مجرى حياتهما. فقد أمست الفتاة « نفيسة » مهتمّة بالنضال السياسيّ، مساندة للمقاومين مساندة بدّلت نظرتها إلى الوجود بعد أن كانت تقيم

في بيت عائلتها معزولة عن العالم الخارجيّ و أضحى « الصّادق » مدفوعا بعاطفة جيّاشة.

وهكذا كانت « محفظة السمار » شهادة إنصاف للأبطال المغمورين وعامل إذكاء للنزعة الوطنيّة ومساهمة من الكاتب في وضع أسس مجتمع جديد يعتزّ بجميع أفراده ويعترف بمنزلة المرأة ويسمو بعاطفة الحبّ سموّا مطهّرا من الشوائب.

وفي رواية « برق الليل » حافظ البشير خريّف على أهمّ الأحداث التاريخيّة التي شهدتها تونس أيّام الحسن الحفصي واستشهد بكتب التاريخ والأخبار وقرن الأحداث التاريخيّة بأحداث خياليّة قرنا ولّد قصّة عاطفيّة كان لبرق اللّيل دور البطولة فيها.

لقد صوّرت رواية برق اللّيل مظاهر العبوديّات المكبّلة للمجتمع التونسيّ أيّام الحسن الحفصيّ ووقفت على اهتزاز أركان البلاد بقدوم « خيرالدّين بربروس » واستنجاد السلطان بالنصارى. وقد أفاض الكاتب في التنويه بحرص خيرالدين على نشر الأمن بتونس وضمّها إلى الخلافة العثمانيّة وحلّل عوامل الاحتلال الإسباني وصوّر فظاعة تنكيل جنود « شارلكان » بالأهالي. وبذلك ألمّت الرواية بالأحداث السياسيّة التي عصفت بالبلاد ورصدت عوامل انبثاق الوعي في حياة الأفراد وتوقهم إلى الحرية رصدا فتح عالمها على فضاء رحب. فقد انفتح عالم الرواية على قصّة حبّ بين العبد برق الليل والمرأة الشّابة ريم تأثّرت أطوارها بالأحداث التي شهدتها تونس في عهد الحسن الحفصي وبثّت في العبد طاقات عجيبة سخّرها للظفر بحريّته والمساهمة في تخليص البلاد من الإسبانيّين.

إنّ تأليف الكاتب بين الأحداث التاريخيّة والأحداث القصصيّة وإسناد دور بطوليّ عجيب إلى العبد برق اللّيل قد ربط الرواية بالواقع التاريخيّ ووسمها في الآن نفسه بطابع خرافيّ موصول بالعقليّة الخرافيّة التي شاعت زمن الأحداث وتجلّى صداها في كتب المناقب والأخبار وفي حكايات القصّاصين الشعبيّين. وقد حافظ الكاتب على الأحداث الثابتة تاريخيّا ووظّف الوصف والحديث الباطنيّ ولغة الحوار وبنية الأحداث لإيهامنا بحقيقة عالمه الروائيّ، ذلك أنّه لم يطلق عنان خياله إلاّ في الفجوات التي تركها المؤرّخون أو في الوقائع التي اختلفت فيها كتب الأخبار فكان أصدق منها لهجة وأعمق منها رؤية.

وهكذا أسفر تأثّر البشير خريّف بظروف تونس زمن الاستقلال عن توظيف التاريخ في الرواية توظيفا أبرز للتونسيّين أنّهم من سلالة شعب توّاق إلى الحريّة بمختلف وجوهها وذكّرهم بأنّ تعاضد أجدادهم مع الأتراك كفّ عن بلادهم ضروب الأذى وبيّن لهم أنّ التخاذل عن نصرة خير الدّين أوقعهم بين مخالب النصارى والحفصيّين الذين أوقدوا نيران « خطرة الأربعاء » الشنيعة. وكان لرؤية الكاتب دخل في إبراز نقمة التونسيّين على الحسن الحفصي وتكفيره عندما استنجد بالإسبان والسخرية من ارتباك حركة بعض الأجداد في خضمّ الأحداث التاريخيّة الجسيمة.

وتحمل رواية « برق الليل » رسالة حضاريّة جليلة بإبرازها روح تسامح المسلمين مع متّبعي الديانات السماوية جمعاء وتصويرها حسن معاملة الأتراك للأسرى المسيحيّين وإشارتها إلى المراتب السّامية التي احتلّها المسيحيّون المعتنقون للإسلام. وما تصويرها لبطولات العبد برق اللّيل واحتفالها برقّة مشاعره وسموّ أخلاقه وذكرها لتحرّره من العبوديّة إلاّ شاهد على نبذ الكاتب لمظاهر التعصّب وألوان الاستعباد.

أمّا في رواية « بلاّرة » فقد حدّد البشير خريّف خطوط الأحداث التاريخيّة الكبرى التي عاشتها تونس خلال عهد السلطان « إحْمَيْدَة الحفصي » ثمّ فرّعها تفريعا رمّم به الفجوات التي اخترقت التاريخ وتوصّل إلى احتضان حياة النّاس الخاصّة والعامّة بتنويع المشاهد القصصيّة. وبذلك ألمّت الرواية بمظاهر الفزع التي شتّتت شمل التونسيّين زمن الحرب وصوّرت حياة الأنس والدّعة التي تنعّموا بها في أوقات السلم، مشهدة على قدرة العواطف الإنسانيّة على تحطيم حواجز التعصّب والعنصريّة والاستعباد.

وقد نفخ البشير خريّف في التاريخ روحا بعثته بعثا أنار تجاويفه ودلّ على عوامل انتشار الوعي في الأجداد وتبدّل مواقفهم وانبثاق توقهم الطبيعي إلى الحريّة ورغد العيش . وبذلك المسعى أوقفتنا رواية « بلاّرة » على حياة المجتمع التونسيّ عندما كوته نيران الصراع بين الحفصيّين والأتراك والإسبان وبرّرت خروج التونسيّين من طور الخوف من الأتراك ومحاربتهم إلى طور الاستنجاد بهم والاحتماء بسيوفهم.

والحقّ أنّ الكاتب قد بيّن لنا أنّ الشخصيّات التاريخيّة الشهيرة هي التي قادت الجيوش وخطّطت للمعارك وظفرت بالنّصر فكان - بذلك - وفيّا للحقائق التاريخيّة.

ولكنّه اعتنى - علاوة على هذا- بشخصيّات تاريخيّة أهملها التاريخ وجمع بينها وبين الشّخصيات القصصيّة ليقرن الجانب التاريخي بالجانب القصصيّ قرنا طريفا. فقد صوّرت لنا الرواية ثلاث أميرات نسجن خيوطا خفيّة واضطلعن بأدوار حاسمة في السرّ والعلن هيّأت لتحقيق النصر وكانت الأميرة الحفصيّة بلاّرة بطلة الرواية نظرا إلى صلة والدها بالأحداث التاريخيّة ومتانة علاقتها بأهمّ الشخصيّات وقيمة أدوارها في جلّ الفصول.

وهكذا تعاضدت رواية « بلاّرة » مع رواية « برق الليل » على حمل رسالة حضاريّة ذات عبر، ذلك أنّها أذكت نزعة الافتخار بعزّة الأجداد وقدرتهم على مواجهة جيوش الأعداء مواجهة الأنداد وتوصّلهم إلى التغلب على النصارى بفضل اتحادهم في ظلّ الوحدة الإسلاميّة. كما ذكّرتهم الروايتان بمواقف الخزي ونتائجها الوخيمة الباقية على صفحات التاريخ. وبذلك أبرز البشير خريّف للتونسيّين وقت خلاصهم من الاستعمار الفرنسي أنّهم من سلالة شعب توّاق إلى الحريّة، متفان في التضحية في سبيل عزّته ، ومجّد مسيرة التونسيّين الطويلة على ذلك الدرب وقدرتهم على الخلاص من أسباب الوهن.

2 - النزعة الواقعيّة الاجتماعيّة

أنشأ البشير خريّف بآثاره ذات النزعة الواقعيّة الاجتماعيّة [11] عالما قصصيّا احتلّت فيه نفطة وتونس العاصمة رقعة شاسعة. وقد حلّل في تلك الآثار طبائع التونسيّين ورصد واقعهم الاجتماعيّ والسياسيّ والفكريّ وسبر أغوار حياتهم العاطفيّة ووقف على ألوان الصراع بين القديم والجديد في مجتمعهم، مقتفيا آثارها في حياة الأفراد ومصير البلاد من فترة الثلاثينات إلى فجر الاستقلال.

ورغم أنّ صورة المجتمع التونسي في بعض آثار خريّف، تبدو بعيدة عن الواقع الرّاهن، منصرفة عن القضايا التي تشغل التونسيّين في فجر الاستقلال فإنّها تبقى متينة الصلّة بحياة كاتبها، مشدودة إلى ظروف تأليفها شدّا. فاستعمال الفنّ القصصيّ لاستعادة الذكريات غاية لا تقلّ شأنا في نظر صاحبنا عن غيرها من غايات التأليف القصصيّ، ذلك أنّه يعتبر « الذكر أثمن ما يتميّز به الإنسان » [12] ويرى أنّه لو لم يكن للقصص « إلاّ الاحتفاظ لصاحبها بصفحات من ماضيه يستعيدها عند غروب الحياة لكفاها فضلا » [13] . ولذلك احتضن الحنين عالم البشير خريّف القصصيّ ولوّن صوت الرّاوي بألوان من الدعابة والتهكّم والسخرية وسمت بعض القصص القصيرة وقسما من المواقف الروائيّة بسمة

النوادر. وقد كانت آثار خريّف ذات النزعة الواقعيّة الاجتماعيّة متأثّرة بحركة بناء مجتمع جديد، إذ أحالت على العوامل التي دفعت التونسيّين إلى التبرّم بأوضاعهم زمن الاستعمار والثورة لإصلاح المجتمع والظّفر بالنصر ونوّهت بحركات زعماء الإصلاح التي هدت مسيرة البلاد منذ فجر الاستقلال.

لقد كتب البشير خريّف روايته « حبّك درباني » و « الدقلة في عراجينها » عندما أثمرت بذور الوعي وتخلّصت البلاد من الاستعمار وظفرت المرأة بحقوقها وأُلغيت هياكل الأنظمة القديمة. وكانت ظروف النخوة بتحقيق تلك الإنجازات حافزة للبشير خريّف على البحث عن زمنه الضائع واستعادة ماضي جيله الذي استبدّت به العواطف المكتومة وخنقته الهياكل الهرمة وكتمت أنفاسه قبضة المستعمر. ولذلك مجّد الكاتب أعمال الأبطال المجهولين وأثبت مظاهر روعتها ونوّه بفضل من تسبّب في تغيير وجه البلاد وإزالة عوائق النهضة. وقد وظّفّ البشير خريّف التقنيات القصصيّة لتحقيق « الصدق الفنّي » في آثاره تحقيقا وصلها بالمنزع الواقعيّ، ذلك أنّه استغلّ الوصف لتصوير البيئة التي تجري فيها الأحداث تصويرا كشف عن واقع المجتمع وأنار أخلاق أفراده ونفسيّاتهم. كما تمكّن من جعل لغة الحوار ومضامينه مناسبة لوعي الشخصيّات ودالّة على عقليّاتها وطبائعها.

والحقّ أنّ تلك الآثار القصصيّة قد انطوت على سمات مذاهب أخرى ساعدت الكاتب على تجسيم رؤيته وإثراء عالمه القصصيّ. فبعض تصريحاته هدت إلى صلة « ليلة الوطيّة » و « حبّك درباني » بحياته الخاصّة ودلّت على أنّها من قصص الترجمة الذاتيّة. وفي رواية « الدقلة في عراجينها » ملامح الاتّجاه الطبيعي وخروج في الآن نفسه عن حدود الواقعيّة والطبيعيّة. وبذلك أشهدنا البشير خريّف على أنّه يستند إلى رؤية غزيرة الروافد ويُخضع أدواته الفنّيّة للتعبير عن تلك الرؤية دون اكتراث بما سنّه المنظّرون.

وقد دلّت بنية آثار البشير خريّف وسمات شخصيّاتها وفنّيّاتها القصصيّة على خضوعها لمقوّمات أهمّ الأشكال القصصيّة الغربيّة وتجذّرها في التراث السرديّ العربيّ في الآن نفسه. فقد طبع صاحبنا « حبّك درباني » و « الدقلة في عراجينها » بطابع الرواية ووسم « ليلة الوطيّة » بسمات الأقصوصة ووظّف تقنيّات القصّة القصيرة في « النقرة مسدودة » و « خليفة الأقرع » و « رحلة الصيف ». ولكنّه لم يتقيّد في جميع تلك الآثار بالقوالب الجاهزة التي وضعها المنظّرون ولوّنها

بألوان التراث السرديّ العربيّ بالمزج بين الجدّ و الهزل واحتضان الشعر والاستفادة من التضمين القصصيّ وتمزيق قناع الرّاوي.

والحقّ أنّ التكالب على المادّة وتحجّرالعقليّات وكبت العواطف وإقصاء النساء عن عالم الرجال قد طبعت آثار البشير خريّف ذات النزعة الواقعيّة الاجتماعيّة بسمة قاتمة وكدّرت حياة عدّة شخصيّات. غير أن ّتنوّع مظاهر الفكاهة في تلك الآثار وميل الكاتب إلى النقد الهادئ السّاخر قد وصلها بإحدى السمات المميّزة لتراثنا السرديّ ونمّ عن أصالة البشير خريّف في نحت أسلوبه الخاصّ في القصّ. وقد حقّق ذلك بفضل تدخّلات الرّاوي للتعليق على المواقف ومداعبة الشخصيّات والتهكّم منها، إضافة إلى تفنّنه في توظيف الوصف والحوار لتوليد المواقف الهزليّة وبراعته في مفاجأة القارئ بإقحام بعض العبارات الدّارجة في سياق السرد الفصيح.

وهكذا اتّصلت آثار البشير خريّف بروائع الفنّ القصصيّ الغربي وبالتراث السرديّ العربيّ دون محاكاة وكشفت عن أركان عالم قصصيّ متناسق الرؤى والأدوات ودلّت على مهارة صاحبنا في إنشاء لون قصصيّ أصيل.

3. النزعة الرمزيّة

ألّف البشير خريّف أقصوصته الرمزيّة الموسومة بـ « المروّض والثور » للتلميح إلى موقفه من الصراع العربيّ الإسرائيليّ بعد أن رفضت الصحف التونسيّة نشر مقالة له عبّر فيها عن ذلك الموقف في نهاية الستّينات. والحقّ أنّنا لا نعثر على قرائن دالّة على العرب والاسرائليّين في هذه الأقصوصة التي صوّرت صراعا بين ثور ومروّض في إحدى مدن الأندلس، رغم تصريح الرّاوي بأنّ الثور إنسان «ممسوخ لبعض ما اقترف في حياته الإنسانيّة » وإشارته إلى أنّه ثاب إلى رشده في نهاية المطاف وغيّر سلوكه مع المروّض. وعندما هدانا البشير خريّف إلى أنّه استغلّ سمات المرّوض لنحت ملامح الإسرائيليّين واعتمد صفات الثورللدلالة على العرب بانت لنا خيوط الرمز واتّضحت مظاهر تأثير رؤية الكاتب في صياغة هذه الأقصوصة [14].

إنّ المروّض شخص ذكيّ أدرك مظاهر قوّة الثيران وعوامل ضعفها واستعان بمجموعة من الأتباع لإنهاكها والقضاء عليها. ولذلك نجده يختار ثورا من الثيران

في كلّ واقعة ويدفع به إلى الحلبة ليتولّى غيره إضعافه. وإثر ذلك يواجه المروّض الثور ولكنّه لا يشرع في مصارعته إلاّ بإذن الملكة ولا يجهز عليه إلاّ بإشارة منها. بهذه الملامح تنكشف إحدى وجوه الرمز ويصبح التشابه بين تصرّف المروّض مع الثور وتصرّف الإسرائيليّين مع العرب واضحا. فالمروّض يحيل على الإسرائيليّين الذين توصّلوا - رغم قلّة عددهم - إلى تبديد قوّة العرب بفضل استعانتهم بأدوات الإضعاف التي يمتلكها أعوانهم. ثمّ إنّهم لا يجهزون على العرب بعد إصابتهم بالوهن إلاّ بإذن أولئك الذين يهيّئون للمصارعة ويخطّطون لها. ويمسي تصرّف الثيران مماثلا لتصرّف العرب لأنّ غياب فكرها - حسب رأي الرّاوي - حجب عنها عوامل قوّة المروّض وتسبّب في صرعها.

لقد هجم الفرسان على الثور فـ « جندل من جيادهم ثمانية كرّتها البغال خارج الملعب » ولكنّه لم يصب الفرسان الذين سدّدوا إليه الطعنات الأولى. وعندما جاء دور الرّاجلين هجم الثور على راياتهم الحمراء « لا يرى إلاّ إياها مسهويا بلونها الأحمر غير مبال بالشخص الذي يغرز فيه الحديد ». وتنتهي المصارعة بالمواجهة بين ثور منهك القوى، مطعون بسهام شتّى ومروّض « ثابت الجنان محكم الحركات في يمناه سيف قصير وفي يسراه الحريرة ».

وكانت المواجهات تنتهي بمصرع الثيران لأنّها لا تهتمّ إلاّ بالحريرة بينما المروّض «ساكن ، ماعدا العقل منه فهو يقظ متحفّز » وعندما يحين وقت الضربة القاضية يستأذن الملكة ويجهز على خصمه. وبذلك برّر البشير خريّف أسباب انتصار إسرائيل على العرب في جميع الحروب ومهّد للكشف عن عوامل تبدّل تلك العلاقة.

لقد آمن صاحبنا بأنّ العقل هو الكفيل بتقوية ضربات العرب إلى عدوّهم وإجباره على تجنّب مواجهتهم وبنى حادثة الأقصوصة بناء مجسّما لرؤيته تلك. ففي خاتمة « المروّض والثور » كادت المواجهة أن تسفر عن انتصار المروّض مرّة أخرى، غير أنّ الثور انتبه فجأة و « ثاب إلى رشده ولم يعد يهتمّ بالحريرة الحمراء بل بصاحبها وقلّ نفخه وهدأت أعصابه » فارتاع المروّض وانسحب من الحلبة.

وقد بثّت خاتمة الأقصوصة رسالة حضاريّة سامية نمّت عن رؤية الكاتب بإبراز أنّ استناد العرب والإسرائيليّين إلى العقل يسفر عن إيقاف سلسلة الحروب الدامية التي عصفت بكيانهم ويحملهم على التآلف والتصافي. وآية ذلك أنّ الثور «الرّاشد» تلطّف مع المروّض وبدّد فزعه تبديدا جعله يُعرض عن لجنة الاحتفال ويغادر الحلبة برفقته.

الهوامش

1) انظر : البشير خريّف في **ترجمة له**. الفكر، مارس 1984، ص 9.

2) انظر المرجع نفسه.

3) البشير خريّف : **تجربتي القصصيّة**. ضمن ملتقى القصّاصين المغاربة. الحمّامات 1968 ص 95 .

4) انظر : فوزي الزمرلي : **الكتابة القصصيّة عند البشير خريّف** . الدار العربيــة للكتــاب. 1988 ص ص 63 . 69.

5) انظر : فريد غازي : حول « **إفلاس» أو في مشاكل القصّة** . الفكر، ماي 1959، ص ص 40 . 49.

6) انظر : كلمة السيّد البشير خريّف : **يا ابن بلدي إليك أكتب**. الفكر، ماي 1982 ص 7.

7) البشير خريّف : **تجربتي القصصيّة** ، ص 97.

8) البشير خريّف : **تجربتي القصصيّة**، ص. 96.

9) انظر: محمد الهادي بن صالح : **لقاء مع البشير خريّف**. مجلّة « قصص » عدد 63 ـ جانفي 1984 ـ ص 140.

10) **برق اللّيل . بلاّرة . محفظة السمار.**

11) **حبّك درباني . الدقلة في عراجينها . ليلة الوطيّة . النقرة مسدودة . خليفة الاقرع . من رزقة . رحلة الصيف.**

12) محمد الصادق عبد اللّطيف : **لقاء أدبيّ مع القصّاص البشير خريّف**. الفكــر، جويليــة 1968 ص 56.

13) المرجع نفسه .

14) هدانا خريّف إلى ذلك خلال حوار سجّلناه معه في شهر ماي 1982 .

آثار البشير خريّف

« **ليلة الوطية** » (أقصوصة بقلم صمصام)

الدستور (جريدة) . العدد 3 السنة الأولى، 10 سبتمبر 1937.

ـ **إفلاس أو حبّك درباني** (رواية).

الفكر . ديسمبر 1958 + جانفي 1959 + مارس 1959.

ط 1 : الشركة التونسية لفنون الرسم (بعنوان : حبّك درباني). تونس 1980 .

- **برق الليل** (رواية)

الفكر - ديسمبر 1960 + جانفي 1961 + فيفري 1961

ط 1 : الشركة التونسيّة للنشر والتوزيع 1961.

- **من رزقه** (أقصوصة)

الفكر - جوان 1962

- **الدقلة في عراجينها** (رواية)

ط 1 : الدار التونسيّة للنشر 1969

- **مشموم الفلّ** (مجموعة قصصيّة)

ط 1 : الدار التونسيّة للنشر 1971

- **بلّارة** (رواية)

تقديم وتحقيق : فوزي الزمرلي.

ط 1 : المؤسسّة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات : بيت الحكمة - تونس 1992.

بعض المراجع

- عبد الفتّاح ابراهم : « **المنطق القصصي في رواية البشير خريّف : حبّك درباني**».

الحياة الثقافية - العدد 30 ، سنة 1984.

- توفيق بكّار : **معنى الحرية في أدب البشير خريّف.** الفكر - ماي 1982

- صلاح الدين بوجاه : **دراسة علامية لنظام الاشياء في الدقلة في عراجينها.**

شهادة الكفاءة في البحث (مرقونة) - كليّة الآداب - تونس 1984.

- محمد صالح الجابري : **دراسات في الأدب التونسي.**

الدار العربية للكتاب - تونس / ليبيا 1978.

- محمد رشاد الحمزاوي : أدب البشير خريّف في الذهنيّة الأدبيّة السائدة.

الفكر - ماي 1982.

- فوزي الزمرلي

- **الكتابة القصصيّة عند البشير خريّف : الاشكال والدلالات.**

الدار العربية للكتاب - تونس / ليبيا 1988

- **البداية والنهاية في روايات البشير خريّف.**

حوليات الجامعة التونسيّة - العدد 24، سنة 1985.

- **تحديد اتّجاهات الرواية التونسيّة : « الدقلة في عراجينها » نموذجا.**

المسار - العدد 19 ، سنة 1993.

- عبد اللّطيف عبيد : دراسة خصائص العربيّة الفصيحة في رواية البشير خريّف: **« الدقلة في عراجينها ».**

شهادة الكفاءة في البحث (مرقونة) كلية الآداب - تونس 1973.

- محمد فريد غازي : **حول « إفلاس » أو في مشاكل القصّة.** الفكر - ماي 1959

- مصطفى الكيلاني : **الواقع و المتخيّل والحريّة في رواية « الدقلة في عراجينها »**

الحياة الثقافية - العدد 63 سنة 1992

- مختار المصعبي : **قضيّة الجنس في قصص البشير خريّف.**

شهادة الكفاءة في البحث (مرقونة) كلية الآداب - تونس 1980

- رياض المرزوقي : **هل « برق الليل » رواية تاريخيّة ؟** الفكر - ماي 1982

- فوزي عبد القادر الميلادي : **دراسات في القصّة التونسية المعاصرة.**

قصص - العدد 13 - سنة 1969 .

- Taoufik Baccar

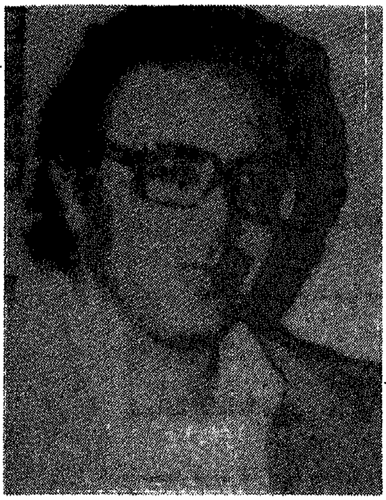
"Itinéraire de la littérature tunisienne contemporaine (introduction)- Ecrivains de Tunisie"

La Bibliothèque arabe, éd. Sindbad Paris 1981

- Jean Fontaine : "Regards sur la littérature tunisienne". Cérès Productions. Tunis 1991.

- M. Férid Ghazi: Le roman et la nouvelle en Tunisie - M.T.E. 1970

فوزي الزمرلي



صلاح الدين العامي
[1986 ـ 1936]

1 ـ حياته

صلاح الدين العامي المولود في 20/ 01/ 1936 بصفاقس هو أصيل منطقة المكناسي. كانت دراسته إلى حد إنهاء شهادة ختم الدروس الثانوية بصفاقس حيث تحصل منها بمعهد الذكور سنة 1957 على شهادة الباكالوريا في الرياضيات. وكان قد أحرز سنة 1956 على دبلوم الدراسات العربية للمعهد الصادقي . ثم أمضى سنتي 1957-1958 و 1958 ـ 1959 ببوردو في دورة تحضيرية بمعهد «مونتانييه». (Lycée Montaigne) للدخول إلى المدارس الفلاحية العليا : وهو ما مكّنه سنة 1959 من الالتحاق بالمعهد الوطني للفلاحة بباريس (Institut National Agronomique de Paris) وقد قضى هناك السنوات 1959 ـ 1962 وأحرز في ختامها على دبلوم « مهندس فلاحي » مع تخصص في مجال «المناخ الحيوي » (Bioclimatologie).

وقد التحق صلاح الدين العامي بعد عودته من فرنسا سنة 1962 بالمعهد الوطني للبحوث الزراعية التونسي (Institut National des Recherches Agronomiques de Tunisie, INRAT) بمرتبة مهندس أوّل واشتغل هناك لمدّة سنتين (1962 ـ 1964) إلى أن وقع تعيينه سنة 1964 مديرا لمخبر «المناخ الحيوي». وقد شغل في نفس الوقت خطة الممثل التونسي في مشروع المنظمة الأمميّة

للتغذية والزراعة المسمى «التخطيط المتكامل لتونس الوسطى » (Planification intégrée de la Tunisie Centrale).

وفي سنة 1971 تمّت ترقية صلاح الدين العمامي إلى رتبة مهندس رئيس . ثم كانت تسميته سنة 1974، كمدير لمركز بحوث الهندسة الريفية (Centre de Recherche du génie Rural) وقد شغل في نفس الوقت وظيفة مدير مشروع «تحسين كفاءة الري والتصريف » الذي اعتبر مشروعا إقليميّا رائدا أنجز بالتعاون بين مركز بحوث الهندسة الريفية (CRGR) واليونسكو (UNESCO) ومنظمة التغذية والزراعة (FAO). ومازالت نتائج أبحاث هذا المشروع تعتبر مرجعا على المستوى الدولي في مجال استعمال المياه المالحة في الريّ.

وقد تمّت ترقية صلاح الدين العمامي إلى رتبة مهندس عام سنة 1979 وكانت وفاته يوم الأحد 16 نوفمبر 1986 إثر مرض ألم به في السنوات الأخيرة من حياته .

2ـ نشاطه العلمي في مجال البحوث الزراعية بالمعهد الوطني للبحوث الزراعية

عرف عن صلاح الدين العمامي تخصصه في المشاكل الفلاحية للمناطق الجافة وشبه الجافة ، وخاصة مجالات الاقتصاد في استعمال المياه وتحسين كفاءة تقنيات الريّ واستعمال المياه المالحة في الزراعة. وقد دعّم خبرته العلمية بالعديد من البحوث بمحطّات ميدانية مختصة بمشاكل تقنيات الريّ ونوعية المياه والطاقة المستعملة للضخ والتحكم في مياه الأمطار وتحسين المشاتل للعديد من أنواع الغراسات . وقد كانت البحوث العلمية التي قام بها صلاح الدين العمامي في بداية حياته العلمية تتم في نطاق أشغال المعهد الوطني للبحوث الزراعية بتونس ثم تواصلت بعد ذلك في صلب مركز بحوث الهندسة الريفية الذي عمل على بعثه للوجود، وقد شملت هذه البحوث مختلف القطاعات الفلاحية وخاصة ما كان منها متعلقا بالنطاق المتوسطي والمناطق الجافة . أمّا أهمّ المجالات التي تناولتها هذه البحوث فهي متعلقة بتأثير المناخ وكيفيّة تحسين كفاءة المغروسات والتحكم في مؤثراتها البيئية . ويبرز منها على وجه الخصوص الاهتمامات التالية :

- البخر والنتح (El Ammami S., 1967, Damagnez J. et al, 1964)
- الاقتصاد في استعمال الماء (El Ammami S. et Koubaa C., 1967)
- الزراعات المروية (El Ammami et al., 1967 Ls).

- المناطق الجافة وتهيئة الواحات

.(El Ammami S., 1968. El Ammami S., 1973 a. El Ammami 1973 b)

- إدخال زراعة القطن إلى البلاد التونسية .(Monteny B. et al., 1969)

- تحسين إنتاجية الحمضيات

Cointepas et al., 1968. El Ammami S. et Nigond J., 1969. El Ammami S., 1970. El Ammami S., 1971. El Ammami S., 1972 a et 1972 b. El Ammami S., 1974).

- استعمال المياه المالحة في الري

El Ammami, 1975. El Ammami et al., 1979; El Ammami et al, 1990. El Ammami, 1981,)

(Bahri et al 1985

- الاقتصاد في استعمال مياه الري

.(El Ammami et al., 1976. El Ammami, 1979. El Ammami , 1983.)

- التحكم في مياه السيلان السطحي

Bahri et El Ammami , 1983, El Ammami, 1984 . El Ammami , 1977, El)

.(Ammami 1979 a. El Ammami et Chaabouni , 1981 b

3 - مشاركته في المشاريع واللجان الزراعية المختصة

عرف صلاح الدين العمامي بمشاركاته المتنوعة في العديد من اللجان ومن المشاريع المتصلة بالزراعة والتنمية الفلاحية في مرحلة كانت فيها البلاد، في أحوج ما تكون للخبرة التونسية لتعويض الكفاءات الأجنبية التي رحلت مع استقلال البلاد، كما كانت له أيضا مساهمات بنّاءة في مختلف اللجان الاستشارية وخاصة تلك المتعلقة بوضع مخططات التنمية . ومن أبرز مساهماته في هذا المجال ما يلي :

- مساهمة في مشروع إنقاذ حمضيات الوطن القبلي
- مساهمة في مشروع التهيئة الزراعية لتونس الوسطى
- مساهمة في مشروع إنقاذ الواحات بالجنوب التونسي .

ـ مساهمة في إعداد مخططي التنمية الرباعي (1972 . 1975) في مجال الفلاحة بصفة مقرر « للجنة البحث العلمي الفلاحي » والسادس (1982 . 1986) بصفة رئيس لجنة «المناطق السقوية» .

ـ مساهمة في « لجنة الاتصال لزراعة الحمضيات في المنطقة المتوسطيّة » (CLAM) وفي « لجنة الحمضيات للمنطقة الفرنكوفونيّة » (CAZF) وفي «اللجنة المغاربية للحمضيات والباكورات » (COMAP).

4ـ مساهمته العلمية

تعددت المجالات العلميّة لصلاح الدين العمّامي في نطاق البحوث الزراعية، ولكن مجال التهيئة المائية كان دائما في مقدّمة اهتماماته، وذلك من منطلقين أساسيين:

ـ متابعته لتطوّر البنية المائية بالمغرب العربي خلال المراحل التاريخية المختلفة وتبيّن مدى استجابتها للحاجيات الاقتصادية المرتبطة بها مع انسجامها مع المعطيات المناخية والطبيعية للمنطقة .

ـ إيمانه بضرورة ضمان الأمن الغذائي للبلاد التونسية اعتمادا على فلاحة متلائمة مع الموارد الطبيعية الأساسية من مياه وتربة وفي نطاق خطة تنموية متكاملة.

ـ التهيئة المائية

ينبني موقف صلاح الدين العمّامي في مجال التهيئة المائية على استقراء شامل لتاريخ هذه التهيئة بالبلاد التونسية وملابسات إدخال المفاهيم الحديثة للتحكم في الموارد المائية، وكيف أنّ إنشاء السدود التخزينية الكبرى الحديثة لم يرتبط بنمط تنموي يراعي تكامل التهيئة وضمان التنمية الزراعية . وفي هذا الصدد كان تركيز صلاح الدين العمامي على المنشآت المائية التقليدية باعتبارها موروثا حضاريا متلائما مع المعطيات الطبيعية للبلاد وظروفها المناخية . وهو يرى «أنّ من أهمّ المكاسب التي اشتهرت بها البلدان المغربية طرق استغلال مياه السيلان في الشتاء لتكثيف الفلاحة وذلك بواسطة منشآت محليّة كالمساقي والجسور وغيرها ـ وكان هذا الجهاز مسخرًا خصيصا للإنتاج الغذائي . لذا اشتهر المغرب بوفرة إنتاجه وخصوبة تربته وكان دائما مطمعا للغزاة حتى أنه عرف بمطمور روما... ومن أهمّ المكاسب التكنولوجيّة تنويع المنشآت المائية المرتكزة على

استغلال مياه السيلان والمياه الجوفية فتكاثرت نقط الإحياء والعمران وتعددت الآبار وبلغ التحكم في مياه العيون أوجه في الجنوب الصحراوي وسنّت نظم ومقاييس لتسيير هذه المنشآت المائية الهامة واشتهر مهندسون كابن الشبّاط في براعة تسيير وتوزيع مياه الريّ. فكانت هذه التهئية تخضع لتوازن هيدرولوجي، فالظروف الطبيعية والتاريخية كيّفت البيئة الريفية حسب تنظيم فضائي متكامل العناصر. وهذه التهيئة ترتكز على الاستغلال المتكامل للمياه السطحيّة والجوفيّة » (ص. العمامي، 1986). ثمّ لمّا جاءت المرحلة الاستعمارية في تاريخ المنطقة ، وقع التحكم مركزيا في الموارد الطبيعية وخاصة المياه والأراضي وأصبح تسيير المنشآت المائية يخضع لرقابة إدارية وتراجع التسيير الذاتي الذي كانت تقوم به المجموعات المعنية باستغلال هذه المنشآت . وقد ورثت حكومات ما بعد الاستقلال هذه الطريقة في التسيير وزادت الكثافة السكانية في الطلب على الموارد المائية مما استوجب تنمية استغلالها بإنشاء المشاريع الكبرى والتركيز عليها . وقد ثبت أن هذه السياسة المائية باهضة التكاليف ولا تضمن الاكتفاء الذاتي من الغذاء، خاصة إذا كانت منتوجاتها الفلاحية موجهة بالأساس إلى السوق الخارجية.

يلح صلاح الدين العمامي على « ضرورة إقرار التوازن الهيدرولوجي » وهو يرى ذلك في صورة تهيئة متكاملة للبيئة الطبيعية تقوم على منشآت مائية في المرتفعات والمنحدرات الجبلية (مدارج وجسور وطوابي ومساقي) لاستغلال مياه السيلان لإنتاج مزروعات وغراسات جبلية وكذلك لتمكين هذه المياه من التسرب إلى باطن الأرض لتغذية المائدة الجوفية المستغلة في المنطقة السفلى حيث الآبار وأشغال فرش المياه في المزارع والحقول. ويستنتج صلاح الدين العمامي من هذه التهيئة المتكاملة أنّه « إذا تدهورت هذه المنشآت العليا وأهملت وهاجر السكّان المرتفعات والمنحدرات وقلّت الأنشطة الفلاحية فيها ، تفقد إمكانيات تغذية المائدة الجوفية ويتفاقم الانجراف ويحصل عدم توازن واستغلال مشط للمياه الجوفية في المناطق السفلى . وبانعدام التوازن بين هذين المصدرين من الموارد المائية تتدهور البيئة » (ص. العمامي ، 1986).

ـ الاستصلاح الزراعي

يقترن الاستصلاح الزراعي بالبلاد التونسية لدى صلاح الدين العمامي بضرورة توفير الأمن الغذائي، وهو يرى أنّ هذا الاستصلاح يستوجب وضع خطة متكاملة تراعي الجوانب التالية :

- إقرار التوازن الهيدرولوجي ومراجعة السياسة المائية الحالية لإحكام استغلال المياه حسب سياسة جهوية تراعي خصوصيات المنطقة.

- تنظيم قطاع الإنتاج الغذائي (الحبوب ، الزيتون ، التمور ، الخضر ، تربية الماشية) بضمان استثمار أفضل للموارد الطبيعية (الماء والتربة والغابات والمراعي) وانتاجية قصوى لمختلف القطاعات.

- دعم البحث العلمي الفلاحي والتخلص من التبعية التكنولوجية وتوفير البذور والمشاتل الوطنية.

وهو يرى أن السياسة الفلاحية التي وضعت عند استقلال البلاد قد اهتمت بالأساس بتوفير حاجيات التجمعات السكنية والسياحية الكبرى من الماء الصالح للشراب وتكثيف الفلاحة ذات المنتوجات التصديرية . فكانت نتيجة هذه السياسة الفلاحية قطاعية (الحوامض، الباكورات، التمور) لا تعكس الحاجيات الغذائية الأساسية الداخلية وبذلك « أخذت السياسة المائية اتجاها تجاريا قطاعيا يخضع لتقلبات الأسواق الخارجية ولا يضمن لا الأمن الغذائي للبلاد ولا مورد رزق قار للفلاحين...» (ص. العمامي ، 1986). أمّا مجال البحث العلمي الفلاحي فقد تميّز بفقدان سياسة طويلة المدى وقلّة عدد الباحثين وغياب قانون تنظيمي للقطاع زيادة على اعتماد التكوين في مرحلة التخصص، على المعاهد والكليات الأجنبية. هذا إضافة إلى أن الموروث الفلاحي من تقاليد مائية وبذور متعددة الأصناف ومتلائمة مع البيئة التونسية قد تراجعت أمام استجلاب تقنيات ومشاتل مستوردة وضعت حسب تصور فوقي لا يراعي مستلزمات البيئة الفلاحية التونسية.

المراجع

DAMAGNEZ J; RIOU Ch. DE VILLELE O; et AMMAMI S; (1964) Problèmes d'évaporation potentielle en Tunisie, l'eau et la production végétale, INRA-France , 1964.

EL AMMAMI S. (1967 a) La sonde à neutrons et le bilan hydrique du sol, compte rendu du IV Colloque sur l'irrigation et l'utilisation de l'eau dans l'agrumiculture. CLAM-CAGLIARI (Italie), 17-19 Nov. 1967;

EL AMMAMI S. et KOUBAA C. (1967b) . L'effet de Mulch sur l'économie de l'eau dans le sol. IVè Colloque CLAM-CAGLIARI (Italie), 17-19 Nov.1967.

EL AMMAMI S. BALDY Ch., et POUGET M. (1967 c). Rénovation d'une palmeraie littorale ancienne. Etude de sa remise en culture intensive -Annale INRAT, N.40, 42 p.

EL AMMAMI S. (1968 a) Interaction climatique de deux milieux écologiques, cas d'un système oasis -désert . Annales de l'INRAT N41 (6). 14 p.

COINTEPAS J. EL AMMAMI S. et HAMZA M. (1968 b) . Comportement de l'oranger maltaise demi-sanguine irriguee à l'eau douce et à l'eau salée. Compte rendu de la réunion de la Commission Agro-Technique du Comité Agrumes de la Zone Franc. Tunis, 21-23 février 1968.

MONTENY B.POUPON H. EL AMMAMI S. (1969 a) Quelques résultats concernant le comportement d'une nouvelle variété de cotonnier introduite en zone semi-aride. Annales de l'INRAT, 1969, N 42 Fasc. 4.

EL AMMAMI S. et NIGOND J. (1969 b) observations relatives à la biométrie de fruits et à la morphologie des inflorescences de l'oranger Var. Maltaise-demi-sanguine de Tunisie. Compte rendu du 6ème Colloque sur l'étude des techniques d'entretien du sol en agrumicultre C.L.A.M. -Bastia, 12-14 Mai 1969.

EL AMMAMI S. (1970) croissance et évolution de la maturité du fruit de la variété d'oranger Maltaise de Tunisie sous irrigation limitée. Compte rendu de la réunion de la Commission technique du Comité des Agrumes de la Zone Franc (C.A.Z.F.) Bastia, 24-27 Fevrier 1970.

EL AMMAMI S . (1971). L'effet de conservation sur pied des fruits sur la chute de l'oranger Maltaise de Tunisie. Compte rendu de la réunion de la Commission Technique des Agrumes de la Zone Franc (C.A.Z.F), Annaba (Algérie), 12-25 Fevrier 1971.

EL AMMAMI S. (1972 a) . L'influence de quelques facteurs climatiques sur l'évolution de la maturité de fruit de l'oranger Maltaise de Tunisie. Compte rendu de la commission Agro-technique du Comité des Agrumes de la Zone Franc. Hammamet (Tunisie), 28 Fév.-3 Mars 1972.

EL AMMAMI S. (1972 b) . Etude de la qualité des fruits de l'oranger Maltaise de Tunısie en fonction de la quatlité et de l'eau d'irrigation . Compte rendu de la commission Agro-technique du Comité des Agrumes de la Zone Franc. Hammamet (Tunisie) , 28 Fev. - 3 Mars 1972.

El AMMAMI S. (1974) . Contribution à l'évolution des pousses chez l'oranger maltaise de Tunisie et son effet sur le calibre du fruit. Annales de l'INRAT. Vol. 47, 25 p.

EL AMMAMI S. BEN SALAH A. PONTANIER R. (1973 a). Rénovation . d'une palmeraie littorale ancienne. parcelle d'essai de Bou Chemma- Gabès Résultats de 1967 - 70. Ministère de l'Agriculture -Division des Sols , Es. 87.

EL AMMAMI S. et LABERCHE J;C, (1973 b) . Climats et micro-climats des oasis de Gabès comparés à l'environnement désertique. Annales de l'INAT, N 46, Fasc. 3, 20 p.

EL AMMAMI S. (1975) . Le comportement de l'olivier irrigué à l'eau douce et à l'eau salée. Séminaire oléicole international de Cordoue (Espagne) . Oct. 1975.

EL AMMAMI S. et BEN MECHLIAN. (1976). L'irrigation "goutte à goutte" des agrumes de Tunisie. Cahiers du C.R.G.R. N. 18.

El AMMAMI S. (1977) . L'utilisation des eaux de ruissellement pour l'agriculture dans les zones arides tunisiennes . L'étude du cas d'aménagement hydraulique des "Meskats" du Sahel de Sousse. Les cahiers du C.R.G. N 7 Aout 1977.

EL AMMAMI S. BAHRI A. et MARRACKCHI M. (1979 a) problèmes de la productivité en milieu salé, recherches et perspectives. Séminaire sur la physiologie et le développement des plantes en milieu salé . Sfax 17-20 Mai 1979.

EL AMMAMI S. (1979 b) . L'automatisation de l'irrigation par combinaison du pompage solaire et du système "goutte à goutte". Machinisme Agricole Tropical-Paris. N68, 1979 et in Cahiers du C.R.G.R. N12, 1979.

EL AMMAMI S. (1979 c). Utilisation des eaux de ruissellement, les "Meskats" et autres techniques en Tunisie " Environnement Africain", Vol. III. N 3 - 4 , Dakar 1979.

BOUZAIDI A. et EL AMMAMI S. (1980) Irrigation à l'eau salée de deux variétés de cotonnier dans les essais de plein champ-Physiologie Végétale - Paris, 1980 18(1) , pp 35-44.

EL AMMMAMI S. (1981 a) . L'expérience tunisienne dans l'utilisation des eaux saumatres en Agriculture. Colloque Arabe sur L'utilisation des eaux saumatres en Agriculture, Tunis, 18-22 Mai 1981.

El AMMMAMI S. et CHAABOUNI Z. (1981 b). Les aménagements hydrauliques traditionnels (Meskats et Jessours), moyens de lutte contre l'érosion. IIème Colloque Arabe sur les ressources en eau. Rabat, 21-27 Sept.1979.

EL AMMAMI (1983 a) . L'irrigation "goutte à goutte" , chez Ibn El Awam. IVème Congrés International sur l'histoire des sciences chez les Arabes. Koweït , 10-14 Décembre.1983.

BAHRI A. EL AMMAMI S. (1983 b) . Le rôle des ouvrages hydrauliques traditionnels dans l'équilibre régional. Séminaire de l'UNESCO sur les ouvrages hydrauliques traditionnels. C.R.G.R.- Tunis 3-14 Octobre 1983.

EL AMMAMI S. (1984) . Les aménagements hydrauliques traditionnels en Tunisie. C.R.G. R.- Tunis, Janvier 1984 , 69 p. (édité en Arabe avec version en Français).

BAHRI A. et EL AMMAMI S. (1985) . Utilisation of saline waters and soils in Tunisia. US -Pakistan Biosaline Research Workshop", karachi -Pakistan 22-26 Septembre , 1985. 16 p.

صلاح الدين العمّامي (1986) الاستصلاح الزراعي في تونس . منشورات مركز بحوث الهندسة الريفية . تونس ، 1986 ، 64 ص .

أحمد حمّو



الطاهر قيقة

[1993 - 1922]

القرية و العائلة

كان جد الطاهر قيقة شيخ قرية تاكرونة ومن كبار فلاحيها. وفي بداية عهد الاستعمار الفرنسي استولت الشركة الفرنسية الافريقية سنة 1883 على أراضي منطقة النفيضة وتاكرونة ويوفيشة وجانب من منطقة زغوان فثار الفلاحون وقدموا القضايا وأراد الجد محمد أن يكافح الاستعمار فألقي به في السجن؛ ويقول الطاهر قيقة متحدثا عن جده :« فكان لهذه النكبات تأثيرها العظيم في نفسه فقرّر ارسال ابنه حمودة وهو أكبر أعمامي إلى المكتب الفرنسي بالنفيضة رغم المعارضة الشديدة التي لاقاها لدى أصهاره وكانوا عدولا ذوي ثقافة عربية صرف، كان يعتقد أنه إذا دفع أبناءه إلى تعلم الفرنسيّة واصلوا الكفاح لاسترجاع أراضيهم وهم على دراية من أساليب الخصم وعقليته[1].. " ولاقى الطفل الصغير حمودة أنوعا من العذاب وهو يتردّد على المدرسة بالنفيضة فوق حماره...ووسط هذا الجو القاسي والظلم الشديد نشأ عبد الرحمان قيقة والد الكاتب...واقتفى أثر أخيه حمودة الذي أصبح معلما في مدينة تستور فسافر إليه ليتعلم عنده ثمّ صار معلما بدوره..

ولادته ونشأته

ولد الطاهر قيقة يوم 30 ديسمبر 1922 أثناء عطلة الشتاء في قرية تاكرونة وكانت عائلته تسكن في نهج الجرمان من حي الحجامين في تونس العاصمة وأبوه يعمل معلّما بمدرسة معقل الزعيم بساحة (رحبة الغنم) سابقا...كانت ولادته حدثا سعيدا إذ كانت أمه لا تبقي الجنين إلى أوانه...فكان الابن البكر وبعده بنات....ولشدة تعلّق الأب عبد الرحمان بقريته تاكرونة كان يرحل بعائلته إليها لقضاء العطل المدرسية ولا سيما عطلة الصيف. ويقول الطاهر قيقة :

" و ما أن ننزل القرية حتى أنزع حذائي وأنطلق حافيا ويتواصل ذلك ثلاثة أشهر لا أنتعل حذائي من جديد إلاّ عندما تحملنا السيارة من جديد في اتّجاه المدينة...أمّا في المدينة فحياتي كانت تختلف تماما عن ذلك إذ أنّ والدي المحافظ كان يرعاني عن قرب ويحرّم عليّ الخروج إلى الشارع (2)....» فكان في صباه لا يفارق الدّار، ففي المدينة الجد والدراسة والمطالعة وعين الوالد ترقبه....وفي القرية كان الانطلاق والحرية وركوب الخيل واللّعب مع الأطفال. زاول تعلّمه الابتدائي بنفس المدرسة حيث يعمل والده ثم تلقّى تعلّمه الثانوي بالمعهد الصّادقي ثم بمعهد كارنو وأحرز الباكالوريا (آداب كلاسيكية) سنة 1941، ثم سافر إلى الجزائر أثناء الحرب ليلتحق بكلية الآداب فحصل على إجازة في اللّغة والآداب العربية سنة 1944 كما حصل على الديبلوم العالي للآداب الكلاسيكية سنة 1945 ثم سافر إلى باريس وواصل دراسته الجامعيّة بالسربون لتهيئة التبريز في نفس الاختصاص ....وانتمى آنذاك إلى حزب الشّعب الجزائري وكتب مقالات في جريدته السّريّة وألقى محاضرات في تاريخ المغرب العربي في المقاهي الباريسية أمام العمال الجزائريّين وذلك بتوجيه من الحزب كما ألقى دروسا لمقاومة الأمية...ولم يتمّ التبريز فعاد إلى تونس سنة 1949 ودرّس مدة عشر سنوات بالمعاهد الثّانويّة بالعاصمة ودرّس في الأثناء في مدرسة المسرح من سنة 1951 إلى سنة 1961 وذلك في عهدها الأول عندما كانت مدرسة حرّة لها منحة متواضعة من إدارة العلوم والمعارف. وفي عهدها الثاني، عندما أصبحت مدرسة حكومية بفضل الاستقلال وكان يديرها المرحوم حسن الزمرلي ويدرس فيها المغفور لهم عبد العزيز العقربي ومحمد الحبيب وعثمان الكعاك، كانت مهمته تحليل مسرحيّات من التّراث اليوناني ومسرح شكسبير والمسرح الكلاسيكي الفرنسي ومسرحيات برشت ويونسكو وسارتر.... ثم سمّي سنة 1959 رئيسا للمصلحة الاجتماعية بكتابة الدولة للتّربية

القومية. وانتدب سنة 1963 كبيرا لخبراء اليونسكو بالجزائر كما انتدب سنة 1965 مسؤولا عن المشروع التّجريبي العالميّ لمحو الأمّيّة في نفس المنطقة بباريس ... ثم عاد إلى تونس سنة 1966 وعيّن مديرا للتعليم الثّانوي والفنّي بكتابة الدولة للتّربية القوميّة والتحق سنة 1968 بوزارة الشؤون الثّقافية وأشرف فيها على إدارة الفنون والآداب... وعيّن مديرا للمركز الثّقافي الدوليّ بالحمّامات في أواخر سنة 1967 وقد صادف ذلك انتخابه رئيسا للنادي الثّقافي " أبو القاسم الشابي" فكانت صدفة طيّبة مفيدة لأنّها مكنته من ممارسة نوعين من التنشيط الثقافي بصورة متوازية مدة إحدى عشرة سنة فكان لعمله بالحمامات صبغة دوليّة متعدّدة الجوانب يتناول تنظيم الندوات العلميّة والأدبيّة والفنيّة الوطنيّة منها والدوليّة ويتعاطى تشجيع الإبداعات المسرحيّة والموسيقيّة في إطار المهرجان الذي ينتظم سنويّا بالمركز، وكانت علاقته مثبتة بالمسرح بفضل تجربته الطويلة أثناء التدريس، كما تعمقت صلته بالأوساط المسرحية فاندفع إلى متابعة تلامذته وتشجيعهم إلى أن أصبحوا محترفين ذوي إبداعات قيّمة... ويعتقد أنّ المسرح هو سنان الرمح في إنتاجنا الأدبي ويتمنّى أن يجرّ الأنماط الأخرى من الفنون حتى ترقى إلى الحداثة مما جعله يضع سُنّة افتتاح مهرجان الحمّامات كلّ سنة بمسرحيّة تونسيّة جديدة نصّا وإخراجا وتمثيلا .... أمّا عمله في النّادي الثّقافي «أبو القاسم الشابي» بالوردية فكان مركّزا على متابعة الإنتاج الأدبي التونسيّ وتشجيعه والتّعريف به وسط حيّ شعبيّ فقير قريب من منطقة صناعيّة....كما قضى أربع سنوات (1978 . 1982) مديرا عاما مساعدا مسؤولا عن الثقافة بالمنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) وأحيل الأستاذ الطاهر قيقة على المعاش سنة 1982. فتفرغ للعمل الثقافي والابداع الأدبي إلى أنّ كلّف بتسيير اللجنة الثقافيّة القوميّة قبل أشهر قليلة من وفاته (1993)

يعتقد الأستاذ الطاهر قيقة أن الابداع هو الأساس وهاجسه الأول هو القصة والأعمال الأخرى من إنتاجه ثانويّة بالنسبة له، ويقول في حديث : « أنا لا أعترف بنفسي مبدعا كاتبا إلاّ في كتابة الإبداع، فأنا قاصّ فقط...فقد كتبت كتابا عن رحلة إلى الصين قمت بها ونشرت (**سيرة بني هلال**) التي جمعها والدي برا به، وكتبت كتبا في التاريخ ومقالات في النقد الأدبي، وترجمت كتبا... لكنها مجموعة من الأنشطة الثقافية المتنوّعة التي لا تضاهي في قيمتها في نظري كتابة القصة[3]» وله ثلاث مجموعات قصصية : (**نسور وضفادع**) و(**الصخرة العالية**) و(**تسع ليال مع كاليبسو**)، وهي تمتاز باللغة الصافية التي تقترب من لغة الحياة

اليوميّة وتترجم عنها وكأنّها هي بذاتها دون تكلّف أو ثقل وذلك لتمكّن الرجل من اللغة وقدرته على كتابة أعماله الفنيّة دون الغموض السائد في كثير من الإبداعات في أيّامنا.

أتت المجموعة الأولى (**نسور وضفادع**) في بدايتها بأقاصيص اختزل الكاتب في فضائها كلّ ما يريد قوله وأرسل صوتا واحدا من أوّل القصة إلى آخرها، نذكر من بينها قصة (الوصية)، و(بطن يتحدّث) و (مناجاة أبي جراب وموسى)، ثم أتت المرحلة الثانية في نفس المجموعة بجملة من الأقاصيص اعتمد الكاتب في صياغتها على الحوار وتعدّد الأبطال كما ركّز على الوصف والتحليل، ويقول عزالدين المدني في مقدمة المجموعة متحدّثا عن النّمطين من الكتابة « ولئن كان هذا الاختلاف ظاهرا فإن هناك قاسما مشتركا بينها وهو الفضاء، فضاء الرّيف والبادية والزّرع والخضرة والسّواقي والوديان والأنهار والغدران والجبل والقمم العالية مواطن الحيوان [4] » ونذكر من بين هذه القصص قصة (مروّض الأفاعي) و (النّسر المقعد) و (غدير الضفادع) و (دنيا الكلاب) لما تشتمل عليه من خيال وأبعاد وأساليب من الرّمز وهي تعجّ بأنواع من الحيوانات أصاب الكاتب في توظيفها إذ أعطى لكلّ حيوان يتحرك في قصصه حيويّة حسب فصيلته قلّما نعثر عليها في أعمال قصصيّة أخرى وذلك لالتصاق ڤيڤة بالأرض والطبيعة...جل الأحداث تدور في قرية تاكرونة وضواحيها وقليل منها في المدينة ولا غرابة في ذلك فهو متعلّق بقريته منذ صغره إذ وجد فيها الحريّة والانطلاق واللّعب مع أقرانه من الأطفال، ففضاؤها فضاؤه وأهلها أهله...كما يجد القارئ للقصص أنماطا من البشر جلّهم من الرّيف في حركة دائمة ...يحاولون العيش مرفوعي الرأس وأخذ نصيبهم من الدّنيا وتناول لقمة العيش بعرق الجبين لكن العرق يسيل واللّقمة تضيع والحقّ يهضم والكرامة تداس...ولا يكتفي القاصّ بالقصّ والوصف أو التّحليل بل يشير إلى مكمن الدّاء وتنطلق صيحات النقمة والثّورة على الأوضاع عند شدّة الأزمات، وقد أعطى إشارة الانطلاق في قصة (الوصية) أولى قصص المجموعة إذ يقول " وأركز عصاي في الأرض تلك العصا التي جابت كامل أنحاء الوطن - وصح صيحتي التي علمتك إياها فإنك تجد آذانا صاغية [5] »...وتنطلق الصيحات منبعثة من القلب إلى قلب وأعماق المتلقي : صاح فاتل الحبال أمام ظلم خادم الحكومة في قصة" (ما أوسع الأرض ما أعلى الجبال) كما صاح الجائع المسكين في قصة بطن يتحدّث (وصاح مفتاح في قصة) (أبي جراب وموسى) وتتتابع الصّيحات مدوية في قصة (دنيا الكلاب) شديدة حادّة تهزّ النفس هزّا،

ثم تستمرّ في مجموعة « **الصخرة العالية** » ثم في المجموعة الثالثة " **تسع ليال مع كاليبسو** » ويطلق سقراط في قصة (جنون سقراط) صيحة قويّة مدويّة في تلميذه كريتون « يا هذا، مدينتكم أكلها الكلام وغمرها فيض الكلام وقوّضها الكلام أما كفى؟» (6) هكذا حياة لا تطاق في عالم متدهور القيم والناس للناس ذئاب... وننظر في قصة الكلاب والكلاب من سلالة الذّئاب وقد ملأت الدنيا و " عجلة الزمان تدور انظروا إليها تدور وفي كل دورة يخرج منها كلب" (7)... ولا يخفى عن الكاتب أنّ الصراع قائم والطريق طويل. ويقول الأب لابنه في قصة (الوصية) التي نعتبرها العبوّة المشحونة بجلّ أفكار الكاتب ومواقفه الانسانية" ولا تظن أنك تستطيع وحدك أن تقلب الوضع فتجلّد بالصبر واترك الوعي يتغلغل في نفوس البطّالين المعدمين المرهقين (8) "... فالنّجاح يكمن مع الأيام في انقلاب الصوت إلى أصوات...فلا نعجب إذن بانبهار الكاتب بالصّين عندما زارها سنة 1957 وبكلّ ما حققت من إنجازات عديدة وضخمة في فترة وجيزة بعد خروج الاستعمار فكان يشعر بعطف تلقائي يدفعه إلى الشّعب الصّيني المناضل كما كان يشعر بالإعجاب به فيقول : " كم كنت أشعر بتجاوب روحيّ بيني وبينهم لأنّ تسيير قاعدة فولاذية...من طرف أمة فلاحية ناقصة التطور بعث في أملا في مستقبل أمّتي وجميع الأمم التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار (9).." ومن الجدير أن نلاحظ أن والده المغفور له عبد الرحمان قيقة هو الذي حرّضه على تأليف الكتاب لما وجد في حديث ابنه عن الصّين ما وجد من تحقيق آمال وأخذ بأيدي ضعفاء الحال ونشر العدالة بين الناس والتسوية بين البشر. وللوالد موقعه المتميّز في حياة ابنه الطّاهر سواء في تربيته وتثقيفه أو في أعماله الأدبيّة. فالروابط متماسكة مثبتة بينهما، وما ابتدأه الأب أنجزه الابن خير إنجاز، والإنسان لا يحقّق كلّ ما يصبو إليه فيجعل في ابنه آمالا وأحلاما ويناوله قصب السبق في خاتمة المطاف وتتحقّق سعادته بذلك التواصل والامتداد وذلك حكمة الله في خلقه... يقول الأستاذ أحمد السماوي : " اعترافا للوالد بالجميل، هذا الوالد الحاني الذي لا يكاد كتاب من كتب الطاهر قيقة يخلو من ذكره والإشادة به فهو الأب الذي حضّ على تأليف « **الصين الحديثة** » ومات ولم يشهده، وهو الذي جمع « **أقاصيص بني هلال** » مروية له رواية شفهية وهو الذّي روى مجموعة « **الصخرة العالية** » فاستفاد منها الابن مادّة ثمينة لأقاصيص فنيّة وهو الذي ترفرف روحه على مجموعة « **نسور وضفادع** » إذ تتصدّر مجموعة الأقاصيص هذه أقصوصة (الوصيّة) التي فيها يعدّد الأب النّصائح لابنه قبل موته فيقول "أي

بنّي إنّي مفارق هذه الدنيا ولست بتارك لك شيئا الا هذه النصائح فأصغ إليها[10]...."

ويتابع الكاتب القاصّ مسيرته في مجموعته الثانية « **الصخرة العالية** » وبها يرمز بالطبع إلى قريته تاكرونة التي يسميها أبو الواعر قائد أولاد سعيد " الحجرة الزّرقاء" مدافعا عن ضعفاء الحال وعن الذين عضّهم الدهر كما يقول في عدّة مناسبات، وذلك بصوت جديد يختلف عن أصوات مجموعة « **نسور وضفادع** » إذ يدخل عالم القصص الشعبي بما فيه من خيال وحكم وغوص في حياة الطبقة الضعيفة . يقول في التوطئة " إن كان هناك ما يجمع بين هذه القصص الذّاتية منها والشّعبيّة فهو العطف الذي يحس به الكاتب نحو الفئات الفقيرة في المجتمع المتعرّضة للظّلم والقهر وما تتضمّنه القصص هذه وتلك من دعوة إلى نصيب أوفر من العدل والأخوّة بين الناس[11]" كما يبدأ أوّل جملة في الكتاب : " كان أبي رحمه الله لا يقصّ عليّ قصة إلا إذا كانت تتضمّن عبرة أو عظة...." [12] هكذا ذكرى الوالد باقية لا تتزحزح رغم الأعوام والسّنين ورغم دخول الكاتب العقد السابع من العمر وبلوغه مرتبة الجدّ وسط عائلته....وكأنّنا به يكتب هذه القصص ورنين صوت أبيه في لهجته البدوية الأصيلة يعود إليه كما كان يسمعه في عهد طفولته وشبابه، وهو يحكي له حكايات تتضمّن ما تتضمّن من عبر ونصائح وحكم كحكاية " قاضي الكاف " و "واقعة وادي قرباطة " و" قاضي سيدي أبي سعيد» و"التوبة" وغيرها من الحكايات التي تلقاّها الوالد بدوره من النّوادي واختار منها ما اختار لابنه.... إذ كانت «لهذا القرويّ الأصيل هواية وهي التردد على نوادي القصّاص بالمقاهي الشعبية بباب المنارة ونهج المرّ ونهج سيدي البشير بتونس وبمضارب أولاد سعيد بالنفيضة والقبائل المجاورة لتستور وكذلك معاشرة شعراء الملحون والمغنّين الشعبيّن وجمع شعرهم[13] " .

في يوم من الأيام بينما كان الطاهر قيقة في مدينة من المدن الكبرى يجوب شوارعها عادت إليه صورة سقراط وقد كان في قديم الزمان يتجوّل في شوارع أثينا وكأن حوارا دار بين الرجلين.... وكلاهما يبحث عن نفسه وينشد طريق الفضيلة ويقول الكاتب « وأنكرت فيه الحيرة البادية في ملامحه وهي صورة من حيرتي[14] » وقصّة (جنون سقراط) هي أولى قصص مجموعة « **تسع ليال مع كاليبسو** » وهي قائمة على الحوار خالية من السّرد، متعدّدة الأبطال قريبة من المسرحية من ناحية البناء وتطوّر الاحداث في شوارع أثينا ... وتنتهي وسط حانة

في جو ساخن بالرّقص والغناء والشّرب ... وكأنّنا بالقاص كتب (جنون سقراط) بشيء من المرارة وكثير من السخرية من هذا العالم الغريب الذي نعيش فيه ... ولم يتغيّر منذ القدم وكلّ ما يتمنى المرء لا يدركه فالتّمنّي ضرب من الجنون وهذا ما حدث لسقراط في قديم الزمان جُنّ وهو يبحث عن الحقيقة وكان جزاؤه.ما نعلمه في خاتمة المطاف، فاستقبل حكم الإعدام بالرقص والغناء في قعر حانة وكأن الكاتب شعر بالخيبة بعد طول الأمل إذ ذهبت المساعي أدراج الرياح وتلاشت الصّيحات بعدما ظلّت أصداؤها زمنا تتجاوب بين الكهوف وبقي وحيدا هائما كسقراط تماما وعجلة الزمان تدور ببرودة وقسوة الحديد . وظلّ يسعى دون توقّف إذ أنه يأبى الركود واليأس، ونفسه تبغض الاستقرار والجمود إذ هو مسكون بالحركة وفكّ القيود وعصا الترحال في يده تلك العصا التي تسلّمها أحد أبطاله في (الوصية) عند بداية الكتابة وتابع الخطاب والمسيرة بلا توقّف والنفس جيّاشة . وكتب قصة «**تسع ليال مع كاليبسو**» وتحدّث عن الانطلاق والحرية وكأنه التقى بأوديسيوس في عرض البحار كما التقى بسقراط في مدينة من مدن أوروبا، وكلاهما يبحث عن نفسه . وعاش أوديسيوس بطل القصة أجمل ليالي الحب بين ذراعي إلهة خالدة في جزيرة نائية ، لكن البطل لا يتحمّل الاستقرار بدوره ولا السكون ولو في مخدع ملكة من ملكات الجمال ويقول لكاليبسو يوما :

« - كاليبسو أشاهد في مخيّلتي سفينة طويلة ممشوقة سوداء طويلة مطليّة بالقار ذات مجادف ترتفع وتنزل، تنساب في الماء كالسمكة المذعورة...و أراني ماسكا دفّتها أسيّرها كما يسيّر الراكب الفرس الجموح، البحر يدعوني ولا مناص من تلبية الدعوة. أريد أن أصنع سفينة...» [15].

وجلّ القصص إن عدنا على أعقابنا هي حركة مستمرّة : فالأعرج العاجز عن السّير يقود أعمى على سطح الأرض و " الفكرون" المطرود يهرول حول الغدير ولا يقرّ له قرار والمكدي في الوصية ينصح ابنه قبل أن يمدّ له عصا الترحال وعجلة الزمان تدور في قصّة (دنيا الكلاب) وفي كل دورة ينطلق منها كلب وقرية تاكرونة كنّا نظنّ أنه سيكفّ عنها لشدة محبته لها ويتركها هاجعة فوق صخرتها الزّرقاء الصلّدة لكن لم يرتح لها بال إلاّ بعدما أرسل إليها عمّ عثمان الذي غادرها مبصرا منذ عشرين سنة ثم عاد إليها من المدينة أعمى سعيا على الأقدام هائجا مائجا ليقضّ مضجع الراكدين المقوقعين من أهاليها ويشبّههم " بعقبان شاخوا فعجزوا عن الطيران والتحليق في الفضاء فعوّضوا عجزهم بالتأمّل والحكمة [16]"

وعم محفوظ مروض الأفاعي يقتفي أثر الأفاعي والحيّات دون هوادة، حاسر الرأس تحت أشعّة شمس محرقة....وبعض الأبطال في مختلف القصص يدورون حول " أنفسهم " كمن ضرب على أمّ رأسه» [17] ... وفرخ النسور في قصة «النسر المقعد » ماكث في عشّه لا يبرحه منذ نشأته إلى أن ترهّل وشاخ يتأمّل هذا العالم الغريب من عليائه ويقصّ ويحكي...

وإذا كان هناك ما يجمع بين هذه القصص الذّاتيّة منها وغير الذّاتيّة وبين أعمال الأستاذ الطاهر قيقة غير الابداعية، فهو العطف الذي يحس به ويجعلنا نشعر به بدورنا نحو الفئات الفقيرة في المجتمع، المتعرّضة للظلم والقهر والاستغلال وما تتضمنه كافّة أعماله من دعوة إلى حياة أفضل ونصيب أوفر من العدل بين الناس.

الهوامش

(1) عبد الرحمان قيقة - من أقاصيص بني هلال ص 8

(2) قصص عدد 94 1991 ص 43

(3) المسار عدد 7 1990 ص 59

(4) الطاهر قيقة - نسور وضفادع ص 22

(5) ن.م ص 41

(6) الطاهر قيقة - تسع ليال مع كاليبسو ص 15

(7) قيقة الطاهر - نسور وضفادع ص 176، 177، 178

(8) ن.م ص 40

(9) الطاهر قيقة - الصين الحديثة ص 75

(10) المسار عدد 7 1990 ص 42

(11) الطاهر قيقة - الصخرة العالية ص 6

(12) ن.م ص 5

(13) عبد الرحمان قيقة - من اقاصيص بني هلال ص 10

(14) الطاهر قيقة - تسع ليال مع كاليبسو ص 8

(15) ن.م ص 77

(16) الطاهر قيقة - الصخرة العالية ص 115

(17) ن.م. ص 119

بيبليوغرافيا الطاهر قيقة

«الكتب»

العنوان	نوع التأليف	دار النشر	سنة النشر
- الصين الحديثة	رحلة	د . ن	1960
- من أقاصيص بني هلال	أدب شعبي	الدار التونسية للنشر	1968
- نسور وضفادع	مجموعة قصصيّة	الدار التونسية للنشر	1973
- الملحمة الهلاليّة	أدب شعبي (بالفرنسية)	الدار التونسية للنشر	1968
- درغوث رايس	دراسة تاريخيّة في قالب أدبي (بالفرنسية)	الدار التونسية للنشر	1974
- السيرة الهلالية لعبد الرحمان الأبنودي	ترجمة بالفرنسية	المؤسسة العامّة للكتاب القاهرة - مصر	1978
- الصخرة العالية	مجموعة قصصيّة	دار تركي للنشر	1988
Contes et Nouvelles de Tunisie	قصص وحكايات تونسية	CILF Paris	1986
- مذكّرات الإسكندر الكبير لماتساس (نسطور)	ترجمة أدبية	الشركة التونسية للتوزيع	1989
- تسع ليال مع كاليبيسو	مجموعة قصصية	دار تركي للنشر	1991

2) **البحوث والمقالات** : نشر المرحوم الطاهر قيقة مجموعة كبيرة من البحوث والمقالات في المجلات التونسية والعربية، وقد اعتمدنا في هذا الجرد على النشرية التي أعدّها المركز الثقافي الدولي بالحمامات بمناسبة تكريم الطاهر قيقة (1991).

المباحث : عدد 2 ماي 1944 ص 7

المباحث : عدد 15 جوان 1945 ص 3 . 5

الحياة الثقافية : عدد 15 جوان 1978 ص 93

- نشر الإنتاج الثقافي في الوطن العربي

العمل الثقافي عدد 98 ، 23 ماي 1983.

- قرصنة أم جهاد البحر

. الهداية 1 / 2 جانفي 1974 ص 7 - 8

- قرصنة أم جهاد البحر

. الهداية 1 / 3 أفريل 1974 ص 31 . 34

- الإبداع أساس الثقافة

. مجلة فنون : عدد 1 1983 ص 6 - 10

- ندوة قضايا الشعر المعاصر

. مجلة أدب عدد 7 . 8 1981 ص 11 . 14

- القصّة في مجلّة الفكر

. مجلة الفكر السنة 30 عدد 1 اكتوبر 1985 ص 39 . 63

- الشعر الشعبي بين الواقع والخيال

. الفكر عدد 4 31 جانفي 1986 ص 24 - 28

- الثقافة العربية والمنظمات الدّولية

. المجلة العربية للثقافة عدد 13 سبتمبر 1987 ص 53 - 63

- الثقافة المتفتّحة

. قضايا الكتب والمصطلح

Tunis INSE 1976 p 15 - 16

- الوجه الآخر للسيرة الهلالية

. فنون عدد 6 1986 ص 18 . 28

- L'appel de l'aube : Aboul Quacim Chabbi

Centenaire de la Banque de Tunisie p. 107 - 114

- من وحي الماضي (قصّة)

. مجلّة الفكر - السنة 25 - العدد 5 فيفري 1980 - ص 6 - 8

- جنون سقراط (قصّة)

الفكر ، السنة 25 - العدد 6 - مارس 1980 - ص 14 - 41

- تسع ليال مع كاليبسو (الليلة الثالثة)

. المسار عدد 7 خريف 1990 - ص 60 - 66

- مقال : درغوث، دائرة المعارف التونسية، الكراس الأوّل بيت الحكمة، 1990، ص ص . 30 - 39

- مقال . الجازية الهلاليّة ، دائرة المعارف التونسية، الكراس الثالث ، بيت الحكمة ، 1992 ، ص ص 17 . 21.

3) بعض ما كتب عنه

- Férid Ghazi : le Roman et la Nouvelle en Tunisie M.T.E 1970 p.66-69

- مصطفى الفارسي البطل في القصّة التونسية حتّى الاستقلال، المؤسسة الوطنيّة للكتاب - الجزائر 1985 ص 375 - 386

- Jean Fontaine : Aspects de la littérature tunisienne contemporaine ; dans IBLA,1974, pp. 165 - 177.

- مقابلة مع الطاهر قيقة

• قصص عدد 18 (1971) ص 48 - 58

- حوار بلا بروتكول مع الأستاذ الطاهر قيقة

. المسار عدد 7 - خريف 1990 - ص 49 - 59

- قراءة في أدب الطاهر قيقة (دراسة) أحمد السماوي

. المسار عدد 7 خريف 1990 ص 35 - 48

- عطية : الصباح - 20 ديسمبر 1989

- حمدي الحمايدي : La Presse جانفي 1989

- عزالدّين المدني : Dialogue عدد 635 - 6 سبتمبر 1986

- Samira Dami - La Presse 29 juin 1991

- Jean Fontaine - 20 ans la littérature Tunisienne - 1956 - 1975

محمود بلعيد



محمد المرزوقي
[1981 - 1916]

كانت ولادة **محمد (بالفتح) بن مصطفى بن علي المرزوقي** بين البدو المرازيق الذين تعود أصولهم إلى بني سليم [1] في الثاني والعشرين من سبتمبر سنة 1916 [2] بقرية العوينة (دوز) من ولاية قبلي بأقصى الجنوب التونسي.

وقد اتجه المرزوقي من المنطلق إلى حفظ القرآن، وتعلم مبادئ اللغة، وحفظ القصائد الشعبية ثم سرعان ما تجاوز طموحه حدود مسقط رأسه، فقصد العاصمة لاقيا العناء والمشقة في رحلته الطويلة وفي حلوله بمدينة تونس، فهو «آفاقي» لا يملك سوى كبريائه.

سهر المرزوقي الليالي في طلب العلم حتى أحرز شهاداته العليا من جامع الزيتونة بتفوق كبير، وخاصة في النحو (الأهلية 1935 ـ التحصيل 1944)، ولم يهمل العلوم العصرية، فحاول تنويع مصادر ثقافته، وكان ذلك عن طريق المدرسة الخلدونية التي تحصل على « دبلوم المعارف العلمية » منها سنة 1933.

وقد سببت له مشاركته في الحركة الوطنية الفصل عن الدراسة عدة مرات وحرمانه من المشاركة في امتحان التحصيل، لمدة سنوات. وفي سبيل الكفاح التحريري سجن ونفي إلى الجنوب (وكان منطقة عسكرية)، إثر حوادث 9 افريل 1938، لكن هذه المحنة التي دامت خمس سنوات [3] لم تفت في عضده، ولم تؤثر في إخلاصه للحزب الحر الدستوري، فقد بقي رئيسا لجامعة الجنوب الدستورية في أحلك فترات النضال (1947 ـ 1954).

وقد اشتغل المرزوقي أثناء دراسته بتقديم بعض الدروس الخصوصية، لكنه تخلى عنها رغم احتياجه الشديد ، لما بدرت من تلاميذه بعض الملاحظات التي اعتبرها جارحة [4] .

التحق المرزوقي في بداية حياته العملية بالصحافة،وعمل في جريدة النهضة [5] اليومية من 1944 إلى 1953، فكتب النقد السياسي والاجتماعي والأدبي والفني، وأشرف على الصفحة الأدبية، وحملت الكثير من مقالاته امضاء " زروق اليم" [6].

وإن كان هذا الوظيف مرحلة واحدة من تعامل لم ينقطع منذ الدراسة إلى الوفاة مع مختلف الصحف والمجلات التونسية، وقائمتها طويلة [7].

التحق المرزوقي بجمعية مقاومة الأمية متفقدا، وعمل مدرسا للأدب بمدرسة (ابن شرف) سنة 1956. ثم التحق بمعهد الآثار حيث ساعد مديره المرحوم حسن حسني عبد الوهاب [8] على التحقيق والتاليف.

وعند تأسيس كتابة الدولة للشؤون الثقافية سنة 1961، رأس قسم الأدب الشعبي من 1961 إلى 1976 (سنة تقاعده)، وقد وجد في هذا القسم الذي أسسه بنفسه ضالته، وتفاعل معه فقام بجمع آلاف القصائد الشعبية، والأساطير، والألغاز، وأغاني الأطفال، الخ... وقضى الأيام والأسابيع، متنقلا في الدروب الصحراوية والمسالك الجبلية، حاملا معه آلة التسجيل، حافظا لهذا التراث الشفوي من التلاشي بالمعهد الوطني للموسيقى، يواصل موسوعة الموسيقى التونسية التي شرع فيها المرحوم عثمان الكعاك [9].

وقد بقي المرزوقي ، طيلة حياته، منكبا على التأليف، والتحقيق، والبحث، والمساهمة في الميدان الثقافي والفني [10]. ومن أجل ذلك، وقع تكريمه على المستوى الوطني سنة 1971، ونال جائزة رئيس الدولة لسنة 1978، ووسام الاستحقاق الثقافي عام 1979.

ولقد عرف المرزوقي شهرة واسعة على نطاق المغرب العربي ، خاصة، كما نقلت بعض قصصه ودراساته في الأدب الشعبي إلى اللغات الأجنبية ومنها الفرنسية والروسية.

لكن اسمه يبقى، قبل كل شيء، في قلوب التونسيين باعتباره تعلق بالأرض التونسية، وبقي وفيا لنبضات الشعب التونسي، فدوّن تاريخه، وكان ذاكرته الخصبة.

كانت وفاة المرزوقي يوم السبت 14 نوفمبر 1981، ودفن بمقبرة الزلاج صباح الأحد، ونقشت على قبره هذه الأبيات التي حيى بها شيخه أبا العلاء : [11]

« دعك من هذه الحياة وفكر في وجود سما على الرواد

واطلب الموت كي يريحك من جسم أليف الشقا وحلف السهاد

فالنعيم النعيم أن يستريح الروح من سجن هذه الأجساد !» [12] .

- آثاره

أ - الكتب المطبوعة

1 - **أبو العلاء المعري : آراؤه وعقيدته**

(محاضرة تبحث في آراء فيلسوف الاسلام أبي العلاء المعري وعقيدته، ألقيت بنادي الشبيبة المدرسية التونسية في شهر شعبان عام 1353 هـ [/ نوفمبر - ديسمبر 1934]، مطبعة الاتحاد، تونس 1935.

2 - **أشعة الجمال**، ("بحث في الجمال والحب")، مطبعة الاتحاد، تونس 1354 / 1936.

3 - **دموع وعواطف**، (ديوان شعري) ملتزم الطبع والنشر : فتحي الزليطني، المطبعة الفنية. تونس، 1365 / 1946.

4 - **جزاء الخائنة**، (أقصوصتان) الحلقة الأولى من أحاديث السمر، مطبعة النهضة، تونس 1365 / 1946.

5 - **عرقوب الخير** (مجموعة قصص) دار الكتب الشرقية، مطبعة النهضة، تونس 1375 / 1956.

6 - **في سبيل الحرية**، (مجموعة قصص وطنية) مكتبة النجاح، المطبعة العصرية، تونس 1375 / 1956.

7 - **بين زوجتين** (وقصص أخرى) ، (مجموعة قصص) سلسلة كتاب البعث رقم 23، تونس، ديسمبر 1957.

8 ـ **مؤنس الأحبة في أخبار جربة،** (تحقيق) تأليف : محمد أبو راس الجربي (المتوفى بعد سنة 1222 هـ)، تقديم : حسن حسني عبد الوهاب ، نشريات المعهد القومي للآثار والفنون بتونس ، المطبعة الرسمية، تونس 1960.

9 ـ **معركة الزلاج** (1911)، (بحث تاريخي) بالاشتراك مع الجيلاني بن الحاج يحيى، مكتبة المنار، تونس 1961.

ـ ط 2، إضافة وثائق وصور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1974.

10 ـ **قابس جنّة الدنيا** (غابتها ـ خليجها ـ مدينتها ـ سكانها ـ تاريخها ـ رجالها). (بحث في المدن) مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1962.

11 ـ **الطاهر الحداد:** حياته ـ تراثه ، (ترجمة وجمع وبيبليوغرافيا) بالاشتراك مع الجيلاني بن الحاج يحيى، دار بوسلامة للطابعة والنشر، تونس جانفي 1963.

12 ـ **أبو الحسن الحصري القيرواني** : (عصره ـ حياته ـ رسائله ـ ديوان المتفرقات ـ ياليل الصب ـ ديوان المعشرات ـ اقتراح القريح).(دراسة وتحقيق)، بالاشتراك مع الجيلاني بن الحاج يحيى، مكتبة المنار، تونس 1963.

ط 2 ، الشركة التونسية للتوزيع، مصنع الكتاب ، تونس 1974

13 ـ **علي الحصري** (1) **دراسات ومختارات** : الشركة التونسية للتوزيع، 1974، 200 ص

ـ علي الحصري (2) المعشرات واقتراح القريح واجتراح الجريح ـ

الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1974، 288 ص.

14 ـ **« ياليل الصب » ومعارضاتها** ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، 1396 / 1976.

ط 2، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، شعبان 1406 / أفريل 1986

15 ـ **بقايا شباب** ، (ديوان شعري) تقديم : الجيلاني بن الحاج يحيى ، الدار التونسية للنشر، تونس ، 1966.

16 ـ **خريدة القصر وجريدة العصر ، (قسم شعراء المغرب والاندلس).** تأليف العماد الكاتب الأصفهاني (ت. 597 هـ) (تحقيق) في 3 أجزاء بالاشتراك مع محمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى التحقيق (الجزء الأول)،

التنقيح والزيادة على تحقيق آذرتاش آذرنوش (الجزآن 2 و 3). تصدير حسن حسني عبد الوهاب ، الدار التونسية للنشر ، الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس ـ 1966 ـ 1971 ـ 1972 .

17 ـ **الأدب الشعبي في تونس،** (دراسة) الدار التونسية للنشر، تونس، 1967.

18 ـ **الدغباجي** ، (ترجمة ودراسة تاريخية) سلسلة : معارك وأبطال 1، مكتبة المنار، 1968، تونس

ط 2 مزيدة ومنقحة، المنار ، أفريل 1979.

19 ـ **مختارات من شعر المهرجانات** ، (مختارات شعرية شعبية) قسم الأدب الشعبي (كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار)، الدار التونسية للنشر، مطبعة كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس 1969.

20 ـ **مختارات من محلات شاهد** ، (مختارات شعرية شعبية) الدار التونسية للنشر، تونس 1969 .

21 ـ **عبد الصمد قال كلمات** (تشنشين) ، (مختارات من الألغاز الشعبية) قسم الأدب الشعبي (وزارة الشؤون الثقافية)، الدار التونسية للنشر، تونس 1968 (1970؟)

22 ـ **الشعر الشعبي والانتفاضات التحريرية.** (دراسة في الأدب الشعر الشعبي والتاريخ)

سلسلة « اعلم » ، الدار التونسية للنشر ، تونس مارس 1971.

23 ـ **صراع مع الحماية** ، (دراسة تاريخية) معارك وأبطال 2، دار الكتب الشرقية، تونس 1973.

24 ـ **أحاديث السمر** ، (مجموعة قصص) الدار التونسية للنشر، تونس ، 1973.

تتمة للطبعة الأولى (؟) ، تونس ، 1982.

ط 2، مطبعة القلم، تونس، 1988.

25 ـ **ديوان الحكيم (أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني؛** 460 - 529 هـ)، (جمع وتحقيق) دار الكتب الشرقية، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، جوان، تونس، 1974.

26 ـ **دماء على الحدود** (ثورة 1915) ، (دراسة تاريخية) الدار العربية للكتاب، 1976.

27 ـ **ديوان الفيتوري تليش** (شعر شعبي). (جمع وتحقيق) منشورات مجلة الحياة الثقافية، الشركة التونسية لفنون الرسم ، تونس 1976.

28 ـ **حسونة الليلي** (ملحمة شعبية) ، (جمع وتحقيق) منشورات مجلة الحياة الثقافية، الشركة التونسية لفنون الرسم ،(محرم 1396 / جانفي 1976.

29 ـ **عبد النبي بلخير** (داهية السياسة، وفارس الجهاد)،(ترجمة ودراسة تاريخية) الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس ، 1978.

30 ـ **الجازية الهلالية** (قصة من التراث الشعبي)، (قصة شعبية) الدار التونسية للنشر، تونس (1978؟)

تتمة للطبعة الاولى (؟) ، تونس 1982

ط 2، المطبعة العربية، تونس 1988.

31 ـ **ثورة المرازيق** (بالجنوب الغربي التونسي) 1943. (دراسة تاريخية) بالاشتراك مع علي المرزوقي، سلسلة معارك وأبطال 4، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع 1979.

32 ـ **الشهيد مصباح الجربوع** ، (ترجمة ودراسة تاريخية) سلسلة معارك وأبطال 5، مكتبة المنار، تونس ، 1979.

33 ـ **أحمد ملاك (شاعر الحكمة والملحمة)** : دراسة ونماذج ، (جمع وتحقيق في الشعر الشعبي) منشورات مجلة الحياة الثقافية، تونس، 1980.

34 ـ **المهدية وشاعرها تميم** ، (بحث في ماضي مدينة المهدية التونسية وحاضرها مع مجموعة من ديوان الأمير تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وترجمة حياته). (جمع وتحقيق، بحث في المدن) المعهد القومي للآثار والفنون، المكتبة التاريخية 3، تونس ، 1980

35 - **مع البدو في حلهم وترحالهم** ، عرض شامل لحياة البدو بالجنوب التونسي، يشمل وصف حياتهم في الصحراء والقرية وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم). (بحث اجتماعي) الدار العربية للكتاب، ليبيا ، تونس، 1980.

ط 2، ليبيا تونس، 1984.

36 - **بورقيبيات** ، (مجموعة شعرية) وزارة الشؤون الثقافية، تونس 1981.

37 - **المعهد الرشيدي للموسيقى التونسية** (تأسيسه، إدارته، فرقته، أعماله، تراثه الفني) ، (دراسة تاريخية فنية) بالاشتراك مع صالح المهدي، المعهد الرشيدي، تونس، 1981 .

38 - **من شعر الكفاح الوطني** ،(مختارات شعرية) وزارة الشؤن الثقافية،، تونس 1981.

39 - **الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق**. تأليف : محمد بن عثمان الحشائشي توفي: 1912 م)، (تعريب وتحقيق) الدار التونسية، تونس، 1988.

ب - كتب قيد النشر (13)

1 - على هامش السيرة الهلالية ، جمعية الدراسات الهلالية (عبد الرحمن أيوب).

2 - ديوان أحمد البرغوثي، وزارة الثقافة

ج - كتب مخطوطة (14)

- فنّ العروض والقوافي

- طرائف من الأدب الشعبي

- من وحي الجهاد الجزائري (مجموعة قصص)

- اعترافات (رواية)

- من أحاديث السمر (المجموعات 2، 3، 4)

- عبد الصمد قال كلمات (المجموعة الثانية)...

- كتب ساهم فيها أو قدم لها : (15)

- الصادق الرزقي : **الاغاني التونسية**، الدار التونسية للنشر، تونس 1967، ط 2 1989.

- صبرة وابر : **لصفارنا**، ط خاصة، تونس 1969.

- عمر بن نصر العويني : **براعم** ،المطبعة الفنية، تونس 1938.

- عمر السعيدي : **قيود**، دار الكتب الشرقية، تونس 1956

- محمد العيد الجباري : **اللهيب**، الدار التونسية للنشر، تونس 1974

- روبير دودسلاي : **بائع التحف**، تعريب : محجوب الزواري، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1977.

هـ- دراسات ومحاضرات: [16]

- الشاعر الشعبي علي بن عبد الله القصري، في **تاريخ قفصة وعلمائها** (ملتقى ابن منظور الافريقي)، دار المغرب العربي، تونس 1972، ص ص 191 - 236.

- محمد بن مذكور، فارس ثورة 1915، في : دراسات في اللغة والحضارة (ملتقى ابن منظور)، منشورات الحياة الثقافية، تونس 1975، ص ص 121 - 141

مسرحيات وأشرطة سينمائية: [17]

- مسرحيات : **ضدّان** (جائزة البلدية 1950)، **الوفاء في الحب ، بريد جهنم، الفدائي، الجازية، السموم البيضاء، أم عباس، أمير العراقين، متبوعة أو ملائكة الرحمة. النمرة الافريقية، الميت الحي، أنا ليبيا، غيلان.**

السينما : ام عباس (القصة والحوار والاغاني)، المتمرد (الحوار)، الجازية (القصة).

ز- أعمال اذاعية : [18]

- تمثيليات : تعد بالمئات مثل : ياخيل سالم، الدغباجي، ظبية الصحراء ، حيرة في البحيرة، ريحانة، المجنون، من أحاديث السمر (300 حلقة)

- مسلسلات : الجازية، تحفة الزمان في بلاد الجان، الحجاج بن يوسف، الحكيم ، أبو الصلت. أبو الحسن الحصري القيرواني

برامج : الأدب الشعبي، الشعر الشعبي في المعركة الوطنية ، شعراء أبطال، جولة في الشعر الشعبي، مزامير داود، ضحايا الشعر، عبيد حواء.

- ح - أغان وأناشيد : (19)

ابتسم ياقمر، نشيد السجن، تحية المغرب العربي الكبير، غزالي نفر، لا راضية، عيون سود، حبيتها ما لقيت منها منجى، يا حبيبي، انظريني، جلست على ضفة النهر، عودي....

الهوامش

1 - راجع في المرازيق : **ثورة المرازيق** ، ص ص 7 - 31.

2 - يبدو من روايات الشيوخ الشفوية أنه ولد قبل هذا التاريخ بسنتين تقريبا.

3 - تعرضنا بالتفصيل إلى مراحل هذه المحنة في بحث شاركنا به في ملتقى المرزوقي (الدورة الثالثة 1988)، فقد سجن من 13 أفريل 1938 إلى آخر أوت 1938 (بالسجن المدني بتونس)، ونفي إلى قبلي، مرة أولى من 8 أفريل 1939 إلى 21 جويلية 1939، ثم فر إلى تونس، ونفي ثانية من 1 ماي 1940 إلى مارس 1943، عدا بعض المضايقات الأخرى.

4 - آثارنا اثبات هذا التفصيل، بالاعتماد على مذكرات محمد المرزوقي لما له من أثر في حياته، وشعوره بانه مجرد " آفاقي" كما يذكر هو حرفيا، لكن ذلك لم يمنع المرحوم من اعطاء دروس خاصة بعيد تخرجه من الزيتونة.

5 - هي جريدة يومية صدر أول عدد منها في غرة أكتوبر 1923، وكان صاحبها ومديرها الشاذلي القسطلي، اتجهت في البداية لموالاة الحزب الاصلاحي، وكانت عندما عمل بها المرزوقي مقربة من الإقامة العامة، وقد اغتيل مديرها أثناء الحوادث في بداية الحركة الوطنية (2 / 5 / 1953) راجع محمد حمدان : دليل الدوريات الصادرة بالبلاد التونسية (القسم الاول)، بيت الحكمة، تونس 1989، ص 136، نفسه : أعلام الإعلام في تونس، مركز التوثيق القومي، تونس 1991، ص 220).

6 - من إمضاءاته الأخرى : السجين رقم 1779، عابر سبيل، عباس، ابن الشمس.

7 - من هذه الدوريات : الهلال (شارك في تأسيسها)، الزهرة (1935)، البوق، العمل، تونس الفتاة، إفريقيا الفتاة، الوزير، الأسبوع، البيان، الأخبار، الزيتونة، الحرية، لواء الحرية، الجيل الجديد، الصباح، النهضة (1944 . 1953) (جرائد) العالم الادبي، الزهرة الأولى، الزهرة الثانية، الافكار،

المسرح، الشبان المسلمون، الثريا، التطور الاجتماعي، تونس المصورة، الندوة، الفكر، الاذاعة، المعارف، الرباط، الحياة الثقافية، صدى الصحراء، المحفل، الفنون الشعبية (في مصر)، الوحدة العربية (ليبيا).

8 ـ حسن حسني عبد الوهاب (1884 . 1968) (راجع حوليات الجامعة التونسية، العدد 6، 1969، ص ص 7 . 55).

ومن ثمار التعاون بين المرحومين : رحلة التجاني (تحقيق عبد الوهاب، تونس 1958)، ومؤنس الاحبة.

9 ـ عثمان الكعاك (1903 . 1976) (راجع : محمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1985، ص ص 167 . 171).

وهذه الموسوعة موجودة في شكل جذاذات في أوراق المرحوم.

10 ـ ساهم المرزوقي في تأسيس جمعية حقوق المؤلفين، واتحاد الكتاب التونسيين، واتحاد المؤلفين التونسيين، واتحاد الشعراء التونسيين الشعبيين، ونادي القلم، وشارك في نشاط الشبيبة المدرسية، والكوكب التمثيلي، والجمعية الرشيدية، وغيرها.

11 ـ كانت للمرحوم علاقة فكرية وروحية متينة بأبي العلاء، وقد قام بتشخيصه على المسرح في نص ما كتبه محمد الحبيب بمناسبة الذكرى الالفية للمعري، وكان أول كتبه المنشورة حول آرائه، وفي مخطوطاته دراسة شاملة حول أدبه. وقد أخذت الأبيات التي نقشت على قبره من معارضته لدالية المعري (غير مجد...) (بقايا شباب، = المعري يتكلم =، ص ص 184 . 186).

12 ـ تزوج المرحوم من ابنة عمه (توفيت) (1936 . 1939)، ثم من بشيرة الياس (1946)، وما زالت على قيد الحياة، وأنجب منها ستة أبناء.

13 ـ سلم هذان الكتابان بطلب من الجهات التي تنوي نشرهما منذ سنوات، ولعلهما ينشران قريبا.

14 ـ قدمنا مجرد نماذج منها لكثرتها، وهي جاهزة للطبع، فلم نعتبر الكتب الناقصة، أو المسودات، وقد أثبتنا قائمة في هذه الكتب في مساهمتنا في أربعينية المرحوم (تراث المرزوقي المخطوط).

15 ـ كذلك، ويمكن الاشارة إلى نشريات أسابيع الفن، ومجلة الحياة الثقافية، وتحوي معظم دراساته ومحاضراته المطبوعة.

16 ـ المسرحيات الاربع الاخيرة لم تقدم على المسرح لاسباب مختلفة منها الرقابة (أنا ليبيا)، ووفاة علي بن عياد، وكان ينوي تقديم النمرة الافريقية.

أما مشروع الجازية في السنما، فكان مشتركا بين تونس ومصر (إخراج صلاح أبو سيف)، لكنه لم ينجزلأسباب مالية.

17 ـ استمرت سلسلة « من أحاديث السمر» عشر سنوات (1948 . 1958)، وانطلق برنامج « الادب الشعبي » سنة 1962، واستمر بعناوين مختلفة إلى وفاة المرحوم، أما البرامج الثلاثة الأخيرة فتعود إلى ما قبل الاستقلال.

ويتميز مسلسل «الحكيم أبو الصلت » بأنه آخر أعمال المرزوقي ، توفي قبل إتمامه، فأكملناه، وقدمناه للاذاعة.

18 ـ تناولنا هذا الجانب في مداخلتنا « المرزوقي شاعرا شعبيا »(ملتقى المرزوقي، الدورة الثانية، 1985)، ومن ملحني أناشيد المرزوقي وأغانيه الصادق ثريا، صالح المهدي، عبد الحميد السلايتي، سيد شطا، صالح الخميسي،خميس الترنان، الهادي القراني، محمد التري.

المراجع

1 ـ الكتب

بوذينة (محمد) : **رواد الشعر الغنائي في تونس 1934 ـ 1964**، تونس 1987، ص ص 131 . 139.

جواد (ناجي) : **رحلتي إلى افريقيا العربية : تونس الخضراء** ، بغداد 1977، ص ص 66 . 70

حمدان (محمد) : **أعلام الاعلام في تونس** ، تونس 1991، ص ص 229 . 306.

الذوادي (رشيد) : **إشارات أدبية**، تونس 1982، ص ص 131 . 140.

جماعة تحت السور، تونس 1975، ص ص 204 . 20 7 .

رضوان (ابراهيم) : **التعريف بالادب التونسي**، تونس 1977، في مواضع متعددة

فونتان (جان) : **فهرس تاريخي للمؤلفات التونسية**، **تعريب** : حمادي صمود، بيت الحكمة ، تونس 1986، ص ص 169 . 170.

كرو (أبو القاسم محمد) : **مستدرك الفهرس التاريخي للمؤلفات التونسية**، بيروت 1988، ص ص 119 . 121.

محفوظ (محمد) : **تراجم المؤلفين التونسيين** ، بيروت 1985، 4 / 304 . 316.

المرزوقي (رياض) : **صامد ... كالنخلة** (مخطوط).

2. الـدوريـات

إيبلا IBLA : العدد 131، 1973، ص ص 119 . 124 (جان فونتان)

الثريا : السنة 2 ، العدد 3، مارس 1945، ص 25.

حوليات الجامعة التونسية : . العــدد 1، 1964، ص ص 125 . 141 (الشـاذلـي بويحي)

. العدد 21، 1982، ص ص 11 . 17 (محمد اليعلاوي)

الحياة الثقافية : السنة 6 ، العدد 18، نوفمبر . ديسمبر 1981 ، ص ص 87 . 126 (ملف خاص)

ديالوغ Dialogue : العدد 228، 13 / 1 / 1979، ص ص 52 . 58 (ملف خاص).

3. النـشـريـات

. بمناسبة التكريم بدار الثقافة ابن رشيق (1971، الحبيب شيبوب).

. بمناسبة الاربعينية (25 ديسمبر 1981، ابو القاسم محمد كرو . الحبيب شيبوب)

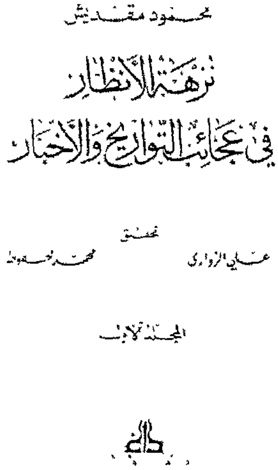
. بمناسبة الاربعينية (25 ديسمبر 1981 ، المعهد الرشيدي)

. بمناسبة الدورة الاولى من ملتقى المرزوقي : بيبليوغرافيا (نوفمبر 1983، دار الكتب الوطنية).

4. وثـائق أخــرى

مداخلات الدورات الأربع لملتقى المرزوقي (نوفمبر 1983، 1985، 1988، 1991).

رياض المرزوقي


محمود مقديش
نزهة الأنظار
في عجائب التواريخ والأخبار
تحقيق
علي الزواري محمد محفوظ
المجلد الأول

محمود مقديش

[1154 ـ 1228 هـ / 1742 ـ 1813 م]

محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي، فقيه مؤرخ مدرس، ولد سنة 1154 / 1742 في بيت قال عنه ابن أبي الضياف إنه « من أنبه بيوت صفاقس » وأصل هذا البيت من أنشلة، وينسب إلى سيدي مخلوف الشرياني إحدى قرى صفاقس من الجهة الشرقية .

اعتبره كراتشكوفسكي، من المؤرخين التونسيين القلائل الراجعين إلى القرن الثامن عشر، وكذلك اعتبره أحمد عبد السلام إذ ابتدأ به تقديم المؤرخين التونسيين في هذه الفترة ضمن أطروحته .

نشأ على طلب العلم. تلقاه أولا في مدينة صفاقس، مسقط رأسه، عمن أدركهم من تلامذة الشيخ علي النوري، كالشيخ محمد الزواري، والشيخ رمضان بوعصيدة والشيخ علي الأومي، كما تلقاه عن الشيخ محمد الدرناوي الليبي عند إقامته بصفاقس قبل أن يستقر نهائيا بالحاضرة تونس. وكانت صفاقس آنذاك باقية على نهضتها العلمية الثقافية التي انطلقت مع الشيخ علي النوري وعبد العزيز الفراتي والتي هي في خاتمة المطاف وجه من النهضة الثقافية التونسية التي تأصلت، خلال القرن الثامن عشر، لعدة أسباب، لعل أهمها الاستقرار السياسي، والتقدم الاقتصادي واعتناء الحكام بالتعليم ببناء المدارس وتكوين المكتبات، وتنظيم الدروس بجامعة الزيتونة، وإكرام أهل العلم، وإجراء المرتبات لهم والإحسان إلى الطلبة. وانساق محمود مقديش وهو في صفاقس مع التيارات

الثقافية والعلمية السائدة فيها والتفاعل معها وهي التيار الديني الذي يشمل الفقه والأحكام والأصول والفرائض والقراءات والحديث والتفسير، والرياضيات بأقسامها : الحساب والفلك والميقات وصناعة الارباع، ثم الأدبيات : النحو والشعر والأدب النثري .

وانتقل محمود مقديش بعد ذلك إلى الحاضرة، متبعا عادة أسلافه المتعطشين لمزيد من المعارف والعلوم. وفي رحاب جامع الزيتونة تتلمذ لعدّة مشايخ، منهم قاسم المحجوب، ومحمد الشحمي كبير علماء المعقولات في عصره، والمحدث عبد الله السوسي السكتاني المغربي .

ولما عاقته قلة ذات اليد عن مواصلة طلب العلم بالحاضرة، انتقل إلى الزاوية الجمنية بجربة التي كانت تتكفل بالإنفاق على الطلبة المقيمين بها من ريع أوقافها وتبرعات أهل الفضل والكرم .

وانتقل في آخر مرحلة من طلبه للعلم إلى القاهرة حيث جاور الأزهر، وكان وقتها كهلا، متزوجا وله أبناء. كان أثناء طلبه للعلم بالأزهر، يتعاطى نسخ الكتب الثمينة، ويتعاطى التجارة، وكان يعود من حين لآخر إلى مدينة صفاقس، يبيع الكتب التي نسخها، ويقوم باتصالاته التجارية، ثم يرجع إلى القاهرة لاستكمال دراسته التي لم تكن تتسنى له لو لا اللجوء إلى طرق الارتزاق هذه .

لا نعلم تاريخ التحاقه بالأزهر ومدة إقامته الكاملة بمصر غير أننا نعرف من خلال « **نزهة الأنظار** » مصنفه في التاريخ الذي اشتهر به أنه كان بالإسكندرية سنة 1201 هـ / 1786م. ولعل إقامته بمصر كانت محدودة، فقد ذكر كراتشكوفسكي، اعتمادا على نالينو أن « محمود مقديش أمضى معظم حياته بمسقط رأسه ولو أنه كما يبدو ساح كثيرا، وزار عدة مواضع، البندقية مثلا » .

وتقلب صاحب هذه الترجمة بين أربعة أوساط حضرية : صفاقس، وتونس، وجربة، والقاهرة، مختلفة اجتماعيا، ومتفاوتة علما وتعليما مكنته من معرفة جادة في علوم الفقه، والحديث، واللغة، والرياضيات، زادها نسخه للكتب إدراكا وعمقا .

ورجع إلى بلده بعد أن تخرج من الأزهر. قال ابن أبي الضياف : « ولما تضلع بالعلوم، رجع إلى بلاده صفاقس، فأفاد وأجاد، ونفع العباد، وتزاحمت على منهله

الوراد، وأفنى عمره في هذا المراد، وأتى فيه بما يستجاد، وتلاميذه بصفاقس أعلام، وأيمة في الإسلام »، وأثنى على عمله وتدريسه محمد مخلوف صاحب **«شجرة النور الزكية»** .

تصدى للتدريس بصفاقس للطلبة نهارا، والعوام ليلا وكان يعتمد في تدريسه على أسلوبين يراهما متكاملين، يعتمد أحدهما الإلقاء والتلقين ويعتمد الآخر التحاور مع الطلبة. كان يستخدم الأسئلة عن المشاكل والقواعد في قالب قصصي لاختبار ذكاء طلبته والتعرف على مدى استيعابهم لما تلقوه منه، وإثارتهم للمشاركة الحية ودفعهم إلى فهم أسرع وأعمق .

وعلى غرار المشايخ المتضلعين كان يقوم إلى جانب التدريس بالمطالعة للتعمق في علوم عصره، والتأليف فيها بما يسمح له وقته الذي خصص جانبا منه للأعمال التجارية، مورد رزقه، إذ كان يقوم بالتدريس مجانا، ورافضا للمناصب الإدارية والقضائية .

يقول الشيخ محمد المهيري في محاضرة له نشرها بمجلة الثريا (جويلية 1944) إن أهل صفاقس رفعوا إلى العامل رغبتهم في تولية الشيخ محمود مقديش قاضيا عليهم فامتنع وقال لهم : « إذا تهيبوني وأنا من أفراد الناس فكيف بهم إذا صرت قاضيا عليهم، أتذهب منهم الأنفاس، فليطلبوا غيري، فما لهم علي من سبيل ». فكان بسيرته هذه متبعا شيخ شيوخه، الشيخ علي النوري، رائد نهضة صفاقس التعليمية والعلمية .

واختياره للتجارة للارتزاق أجدى إذ تعد من أشرف المهن ومحاصيلها آنذاك في صفاقس وافرة لثبوت قواعدها، واتساع دورتها المالية، وارتباطها مع بلدان المشرق، ولا يستبعد أن يكون محمود مقديش عقد على غرار سلفه الشيخ علي النوري، روابط تجارية مع مصر أثناء إقامته بها. والتجارة أسلم أيضا، إذ هي شريفة المقصد، مرموقة في المجتمع، ليس لها ما للفكر من خطر على الحاكم فلا تعرض صاحبها إلى أذيته. ومحمود مقديش ذاق تجربة هذا النوع من الأذى، الناتج عن الفكر المكتوب والمسموع. ذاقه مرتين، مرة بسبب وحشة وقعت بينه وبين أحد المستمعين إلى دروسه، إذ أول هذا كلامه على إثرها تأويلا خاطئا، واتهم بالباطل، وضايقه عامل المدينة، ولم يسلم إلاّ بعد أن رفع ظلامته إلى الباي، ومرة ثانية لما صادرت الحكومة التونسية كتابه « **نزهة الانظار** » لما ظهر، ولعل سبب

ذلك يرجع إلى ما أبداه فيه من تقدير لعلي باشا الأول الذي نازع سلطة عمه حسين بن علي وذريته. وقد أكد كراتشكوفسكي على ذلك حين قال : « يبدو أن محمود مقديش قد مس مسائل معاصرة لأن حكومة تونس صادرت كتابه على الفور ولم ينشر » .

وبعد استقرار طويل بصفاقس، وعمل في التدريس والتأليف والتجارة متواصل «سافر من بلده في غرض الزيارة إلى القيروان » فتوفي بها وحمله ابنه الشيخ محمود الذي كان معه إلى مسقط رأسه بتربة أجداده .

اتفق أحمد بن أبي الضياف في « **الإتحاف** » ، ومحمد مخلوف في « **شجرة النور الزكية** » على أنه توفي سنة 1228 هـ / 1813 م، وأقر هذا التاريخ أحمد عبد السلام في أطروحته التي خصصها للمؤرخين التونسيين، وخالفهم نالينو وكراتشكوفسكي اللذان اعتبرا 1233 هـ / 1818 م. سنة وفاته. وسنة 1228 هـ / 1813 م. هي أقرب إلى الواقع. فكما بيناه بعد تحليل ومقارنات في مقدمتنا **لنزهة الأنظار**، نشر دار الغرب الإسلامي، تمثل سنة 1233 هـ / 1818 م. سنة الانتهاء من نسخ المخطوط الذي اعتمدته الطبعة الحجرية لهذا الكتاب حيث أضاف إليها ناسخها ملخّصا لأخبار عثمان باشا ومحمود باشا اللذين تعاقبا على رأس الدولة بعد وفاة حمودة باشا، فاختلط الأمر على نالينو واستخلص ما استخلص على خطإ .

ولمحمود مقديش عدة تآليف هي :

- **حاشية على العقيدة الوسطى للسنوسي**، مطبوعة على حجر بتونس سنة 1321 هـ / 1903 م، جزءان في مجلد واحد .

- حاشية على تفسير أبي السعود العمادي سماها : « **مطالع السعود على تفسير أبي السعود** » في 13 مجلدا. مخطوطة .

- **شرح على المرشد المعين في الفقه المالكي للشيخ عبد الواحد بن عاشر**. جزءان

- **شرح جانب من تذكرة القرطبي**، انفرد بذكره الشيخ محمد المهيري، في بحثه الذي نشره بمجلة الثريا، جويلية 1946 .

- شرح على كشف الأستار للقلصادي سماه « **إعانة ذوي الاستبصار على كشف الأستار عن علم حروف الغبار** » وهو مختصر من كتاب القلصادي « **كشف الجلباب في علم الحساب** » . ويذكر في الخطبة قيمة علم الحساب، وحالته في عصره، والإقبال على تآليف القلصادي في القطر التونسي وخصائص كتابه «**كشف الأستار**» .

- **القول الجاري في جواب وفقه الشيخ يحيى الشاوي في الفرق بين السبب والشرط**. مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بتونس ضمن مكتبة حسن حسني عبد الوهاب .

- **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، المعروفة في الأوساط الشعبية بدائرة مقديش، وهي على الإطلاق أهم مؤلفاته وبها اشتهر .

كانت بداية كتابة النزهة فيما بين سنتي 1203-1207 هـ / 1788-1793 م. ويرى المستشرق الروسي كراتشكوفسكي أن محمود مقديش أتم الجزء الأول من مصنفه في سنة 1210 هـ / 1796 م .

اعتمد محمود مقديش لتصنيف كتابه على مصادر متنوعة : **رياض النفوس** للمالكي، **وزبدة التواريخ** للبيضاوي، **وعجائب المخلوقات** للقزويني، **وكتاب العبر** لابن خلدون، **ونزهة المشتاق** للإدريسي، **ومعالم الإيمان** للدباغ الخ .. هي تقريبا المصادر التي اعتمدها المؤرخون التونسيون في العصر الحديث كالوزير السراج، مستعملا لذلك مكتبته الخاصة التي كانت على ما يبدو تشتمل على كتب التاريخ، والتراجم والبلدان .

واعتمد محمود مقديش لكتابة **النزهة** النقل الحرفي، والنقل مع تغيير بعض الكلمات، والتلخيص مع استعمال بعض العبارات الجزئية من المرجع المستند إليه، واقتضى تصحيحه لكتابه، وترتيبه له، واقتضت نظرته التاريخية أن لا يتبع تسلسل نصوص المراجع التي استعملها، بل كان في نقله وتلخيصه يستعمل ما جاء بالتقديم والتأخير دون ضبط وإشارة. أما بالنسبة للمقدمة والإضافات التي تهم بعض المدن كالإسكندرية وتونس والجزائر والمهدية وصفاقس ... وجل ما جاء بخاتمته فهو من تحريره الذي اعتمد فيه على تكوينه الخاص، ومشاهداته

والأخبار والمعلومات التي تلقاها من أصدقائه أو الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه. وعن الوسط الشعبي الصفاقسي أخذ بعض مأثوراته، ومنها الطريقة التي سلكها الصفاقسيون لمقاومة احتلال النرمان لمدينتهم، كما أخذ الأساطير الدينية التي تتعلق بآدم وذريته، والأنبياء والرسل .. إذ لا نجد لهذه الأساطير أثرا في كتب التراث .

قسم محمود مقديش « **نزهة الأنظار** » إلى جزئين متعادلين تقريبا، يضم الجزء الأول مقدمة وعشر مقالات خصصها لتحديد المغرب وأسماء البلدان، والخلافة والخلفاء بالمشرق والمغرب، والدول والدويلات التي قامت هنا وهناك، ويضم الجزء الثاني مقالة خصصها لدولة آل عثمان وخاتمة خصصها لمدينة صفاقس ووطنها .

ضبط محمود مقديش لنفسه وصف المغرب ورواية تاريخه ثم التركيز على مدينة صفاقس، والمتتبع لحلقات الكتاب يشعر وكأن مؤلفه يتردد فيما ضبطه لنفسه لأنه يتأرجح بين المشرق والمغرب، وتاريخ المغرب وتاريخ الإسلام عامة، ومرجع ذلك إلى غاية منهجية جعلته يبدأ بالأصل ثم ينتقل منه إلى الفرع، هدفه منها الشمول والإيضاح. لكن هل في متناول محمود مقديش التمييز بين التاريخ الإسلامي والتاريخ المغربي ؟ يجيب أحمد عبد السلام عن هذا التساؤل بقوله : « الحقيقة أن التمييز بين التاريخ الإسلامي والتاريخ المغربي ليس في متناول محمود مقديش ومعاصريه إذ أن تاريخ المغرب جزء من تاريخ العالم الإسلامي، وهذا التاريخ هو في نظر مقديش التاريخ كله، والمغرب يدخله عن طريق الفتح الإسلامي » .

والخاتمة أهم ما جاء بالنزهة، وإن لم تتجاوز في حجمها ثلثه، وأفردها المؤلف لمدينة صفاقس، وكأن كل ما سبق سياق لها، وفيها يعطينا معلومات هامة عن هذه المدينة ينفرد بها، تتعلق بتأسيسها، وموقعها، وتاريخها، وحركتها الديمغرافية، وطبائع الناس وحركة التعليم بها، وجملة من تراجم مشايخها وأدبائها، وصلحائها، ويطنب في الحديث عن مقاومة صفاقس لأعدائها خاصة النرمان وفرسان مالطة، والبلنسيان، في اعتزاز وفخر دون أن يهمل معنى ولا قصة بطولية حتى ولو بدت خرافية. فالخاتمة تمثل مرجعا من أهم المراجع لمعرفة أحوال صفاقس في القرن الثامن عشر، وشتى ألوان حياتها على مر الزمن، كما تمثل مرجعا هاما لبعض الأحداث العامة أهمها الحروب التونسية المالطية، والحروب التونسية البندقية .

ولابد من الحـذر لمن يتناول **نزهة الأنظار** من أولها فالمؤلف له ميـوله الدينية والسياسية والميول السياسية امتداد للأولى، فهو سني راسخ العقيدة، فاختار ما يلائم هذا الاتجاه، وصنّف كتابه على أساسه، فهو يتحيز للإسلام في معاركه ضد « الكفار » فأسقط من نزهة المشتاق التي ينقل عنها جل ما يتعلق باحتلال النرمان لبلاد الإسلام، ويتخذ موقفا مماثلا تجاه الحركات الإسلامية المتطرفة المضادة للحكومات التي يراها شرعية، ومنها حركة أبي يزيد الخارجي، والحركة الشيعية الفاطمية، وحركة التتر، وفي آخر المطاف يتشيع للسلطنة العثمانية التي يرى فيها منقذ بلاده من « أهل الكفر والضلال » فيمجد رجالها وأعمالها، كما يتشيع لعلي باشا الأول، ويشيد بالجزائر العثمانية، ويغض الطرف عن تدخلاتها الحربية في تونس، وإن قبلنا تشيعه كرجل مؤمن مساير لتقاليد عصره فمن المتأكد على قارئ النزهة - إن عنّ له أن يبقى في حيز التاريخ - أن لا ينسى اتجاهات المؤلف .

إن المتتبع لمؤلفات محمود مقديش يجد داخلها الهش والمتين لغة ومضمونا، ومن السهل التمييز بين الكاتب والناقل المجمع، وميزته جلية حتى في نقله، فمقالاته التي خصصها في **النزهة** للتاريخ تعتمد على النقل كما أشرنا، وهي وإن كانت أقل شمولا من العمل الذي قام به الوزير السراج الذي سار في نفس الاتجاه في **حلله** واستعمل نفس المراجع فهي أقل غموضا من هذا الكاتب الجاد الذي سبقه زمنيا.

ولغة المؤلف الخاصة به نعجب لها، إذ هي متفاوتة المستوى، فهي متينة في مقدمة **نزهة الأنظار**، ومتينة بليغة في خطبة **شرحه لكشف الأستار للقلصادي**، وهي ضعيفة في أغلب النزهة، يستعمل فيها الكلمات العامية على غرار عدول الإشهاد في ذلك الوقت، وفي القسم الأخير من مؤلفه هذا يصل أسلوبه إلى حد كبير من الإسفاف والضعف خاصة عند كلامه عن الصوفية والصالحين. واعتبار **نزهة الأنظار** مؤلفا في التاريخ، لا قطعة أدبية تستوجب الديباجة المتأنية لا يبرر أسلوبه في الكتابة هذا. هل كان في عجلة من أمره أم كان ذلك نتيجة نقص في معارفه ؟ ذكر لنا في خطبة شرحه لكشف الأستار للقلصادي، إن تأليفه لهذا الشرح كان باقتراح من بعض الإخوان، ثم أكد على صعوبة الكتابة والشرح

ويعترف باستحالة بلوغ الكمال فيها بقوله : « إني رأيت إنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلاّ قال في غده : لو غيرت هذا الكتاب لكان أحسن ولو زيد هذا لكان يتحسن، ولو قدم هذا الكلام أفضل، ولو ترى هذا المكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر ». وبعد سنوات عديدة يعيد الكرة من جديد مع **النزهة**. **فنزهة الأنظار** تبدو من خلال ما كتبه في مقدمتها وكأنه صنفها لإرضاء طلب وإن سعيه لكتابتها كان صعبا، وأكد على ذلك بقوله : « فرأيت فيما دون ما طلب خرط العتاد سيما من مثلي ممن لا مادة له في تعاطي هذا الخطب العظيم الشأن، ومع ذلك فلست أعد نفسي أهلا لأن أكون من فرسان هذا الميدان ». هل يعتبر هذا الاعتراف حقيقة أم تواضعا ؟ لا شك أن محمود مقديش بالنسبة لمدينته، واعتبارا لحياته، وثقافته، ومستوى كتاباته يمثل حدا فاصلا بين عصرين متباينين ثقافيا وعلميا هما القرن الثامن عشر المزدهر، والقرن التاسع عشر الذي نزلت فيه المعرفة والتدريس والكتابة وإقبال الناس على التعلم درجات، ففي السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر لاحت بوادر تدهور الحياة التعليمية والعلمية في صفاقس، وكان محمود مقديش واعيا لها إلى حد أنه فسر عدم إقبال الناس على التعلم والتعليم بإقبالهم على الدنيا وتشبثهم بها وقال عندما علل الصعوبة التي لقيها في كتابته للنزهة : « .. وأحرى وأنا في بلد مطروح في زوايا الإهمال لإقبال أهله على تحصيل الدينار والدرهم والسعي على العيال، ولم يعتن الماضون بضبط أحوالها إلاّ بقدر ما ليس له بال ». ونرى من جهتنا أن هذا التدهور مرتبط أيضا بعمل الطاعون الجارف الذي انتشر في سنة 1199هـ / 1786م. إذ أخذ من المؤدبين والمدرسين ومن بقية العلماء عددا وافرا، نذكر منهم حسن بن أحمد الشرفي الفقيه والحيسوبي الفلكي، والشاعرين علي ذويب وابراهيم الخراط، ومحمد المصمودي القاضي وعلي المصمودي الفقيه والنحوي وغيرهم. وكان عمل الطاعون فاحشا في الناس إلى حد أنه عطل سير حركة العلم والتعليم في وقته وبعده أيضا بموت العديد من رواد الحركة، ويبقى محمود مقديش أقرب إلى علماء القرن الثامن عشر بصفاقس، وانفرد دونهم بكتابة التاريخ، وعن طريق هذه المادة عرف و ذكر.

المراجع

- ابن أبي الضياف. **اتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الامان**. تونس 1963، ج 7 .

- رشاد الإمام، **سياسة حمودة باشا** . تونس 1980 .

- اسماعيل باشا البغدادي : **هدية العارفين**، استانبول 1951 .

- محمد الشعبوني : **محمود بن سعيد مقديش**، جريدة الصباح 5 ديسمبر 1982 .

- نور الدين الصغير : Temps et espace chez Maqdïs اطروحة دكتوراه مرحلة ثالثة مرقونة ، جامعة السربون سنة 1983 .

- أحمد عبد السلام : .Les historiens tunisiens des XVII, XVIII et XIX s **المؤرخون التونسيون خلال القرون السابع عشر، والثامن عشر والتاسع عشر بالفرنسية**. باريس 1973. والترجمة العربية : بيت الحكمة، 1993 .

- ا . ى . كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. جامعة الدول العربية 1957 .

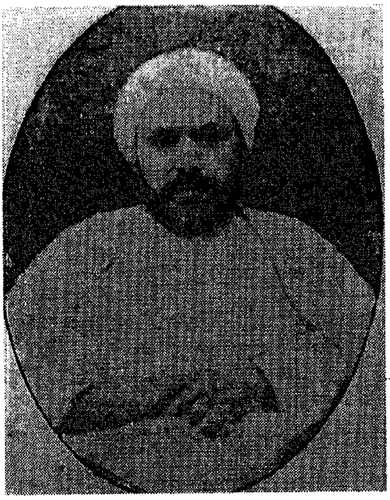
- محمد محفوظ : **تراجم المؤلفين التونسيين**. دار الغرب الإسلامي .

- محمد مخلوف : **شجرة النور الزكية**. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان .

- محمد المهيري. **محاضرة عن محمود بن سعيد مقديش**. نشر مجلة الثريا . شعبان 1363/ جويلية 1944 ص 109 .

- محمود مقديش. **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**. تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ. دار الغرب الإسلامي 1988 .

علي الزواري



الشيخ محمد النخلي

[1285 - 1342 هـ / 1868 - 1924 م]

علم من أعلام الزيتونة الأفذاذ، له من سعة الاطلاع ودقة البحث وحرية التفكير، ما أهّله ليكون من الرواد الأول في تركيز حركة الإصلاح، والتوعية والدعوة إلى إعمال الفكر، والإقبال على العلوم قصد التطور والتقدم. وقد كان له التأثير العميق على تلامذته والذين من بينهم عبد الحميد بن باديس، والطاهر الحداد، وغيرهما من رجالات الزيتونة، ومن كان لهم إشعاع على الثقافة بربوعنا التونسية حاملين طي جوانبهم وجوارحهم فكرة البحث النزيه، والنظر إلى الإسلام بكونه الدين الحنيف الصالح لكل زمان ومكان، يتماشى وواقع كل عصر، بما يحويه من تأمّلات في المعاملات البشرية الخاصة منها والعامة .

كان الشيخ محمد النخلي كما حدثني بعض الشيوخ ممن لازموا دروسه مثالا للجد والعمل الدائب، وإن رائده دائما حرية التفكير في نزاهة العالم الصادق والمخلص في مهنته، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ينظر بمنظار الوعي الدقيق للأشياء، ولا يترك مسألة تمر وقد أبدى فيها الأقدمون أحكامهم دون أن يكون له موقفه الخاص منها بالتأييد أو المخالفة، مستدلا بالحجة والبرهان، ومقدما أقوم الحلول وأقربها إلى المنطق والصواب .

كانت حياته خصبة معطاء، بفضل هذا الذكاء النادر الذي اتسم به، ويفضل عصاميته وكفاحه .. ولم يكن الشيخ النخلي متميزا بهذا الجانب العلمي في رحاب الزيتونة من حيث اتساع دائرته في تفسيره للقرآن الكريم، بل كان أيضا له الباع الطويل في ميدان الشعر والأدب والفصاحة والبيان، وقد وقف هذه الطاقة لخدمة الأغراض الوطنية وبالأحرى خدمة بلاده، فكان من أول الشعراء الذين تفطنوا لذاك الغزو الحضاري الداخل على البلاد منذ أواخر القرن التاسع عشر، فكانت له المواقف والآراء التي تقرب الشقة بين الأخذ بأسباب الحضارة والثورة على القديم البالي الذي لا يفيد .

- يؤرخ له الشيخ محمد مخلوف في كتابه الشهير « **شجرة النور الزكية** » بقوله : « كان نقادا خبيرا، ميّالا لتحقيق المباحث، اشتهر بالذكاء والصراحة في أقواله، التحق بجامع الزيتونة سنة 1304 هـ حيث درس على الشيخ سالم بوحاجب ومحمود بن محمود ومحمد النجار وغيرهم ... كان يقول الشعر ويجيده؛ تولى خطة التدريس من الطبقة الأولى، توفي بتونس في رجب 1342 هـ وكانت جنازته مشهودة، حيث إرادة حمل جسده للقيروان، وكذلك بالقيروان، ودفن بالجناح الأخضر، ورثاه بعض طلبته بقصائد فرائد . » (1)

- ويعرف به الطاهر الحداد في حديثه عن الاجتهاد وحال العلوم بجامع الزيتونة في عهده :

- « غير أنهم (الشيوخ) ويا للأسف قد جروا على خلاف ذلك، فأيدوا الروح الموروث عن شيوخهم، وحرموا رائحة التفكير المستقل في عامة العلوم وأغروا تلاميذهم بالتشنيع على من يتظاهر من الشيوخ بشيء من الرأي المخالف للمألوف بالمعهد، حتى ولو كان موافقا لرأي قديم اختاره بعض العلماء السالفين، فقد عاش المرحوم محمد النخلي جزءا من حياته بالمعهد (الزيتوني) وهو مطعون في عقيدته، بما أضاع كثيرا من نشاطه في الدروس، وجعله يقرئ دروسه بعد كعمل ميكانيكي يفرضه عليه الوظيف، وكذلك طعن على المرحوم الشيخ سعد السطيفي حتى مات مدحورا في بيته المظلم الصغير بمدرسة النخلة حذو الجامع الأعظم ... » (2)

شــعــره

من شعر الشيخ النخلي قصيد رائع يستنهض الهمم والعزائم وقد نشره بجريدة الحاضرة في 18 محرم 1318 هـ/ 30 أفريل 1901، يقول فيه :

هو المجد في الإسلام أثله العلم   على مقتضى دين به انقشع الوهـم

تعال نبارك روض آثـاره التـي   عـلـى صحف التاريخ يبدو لها رسم

وانظر في هذا الرثاء المؤثر الذي دبجه حسرة على الأستاذ الإمام الراحل محمد عبده. يقول في مطلع القصيد :

مصاب به الإسلام باك موجـع   وخطب به الإصلاح ركن مزعزع

إلى أن يقول :

أبان لهم أن العلوم وإن نمـت   صديق لهذا الدين بل منه تكـرع

محمد من يجلو حقائق دينـه   منصة تبيان بهـا الفكـر يقنـع

تلك عينات من شعر النخلي سواء في الدعوة إلى الإصلاح، أو تأثره بوفاة رائد من رواده، في فترة كان العالم العربي والاسلامي في أشد الحاجة إلى مثل هذا المرشد والإمام .

إن النخلي عاش عصره، بكل ما فيه من أحداث، وانعكست العديد من العوامل والمؤثرات على شعره، فكان بحق من المجيدين الأول في مطلع هذا القرن .

نــثــره

لم يكن قلمه وقفا على الشعر، بل تجاوزه إلى النثر، وكم كان لمترجمنا العديد من المواقف، سواء في الصحف أو المجلات، وانبرى في الكثير منها يكتب ويخط ما يملي عليه الظرف وما يملي عليه ضميره من توجيه سديد بآراء صائبة رائدة .

وقد كتب في الأدب والتاريخ، والعلم والدين والاجتماع، وفي كل ما له اتصال بمقومات الشخصية العربية الإسلامية الحقة، زد على ذلك، ما كان له من باع في ميدان الخطابة، وتأثيره على سامعيه، فكان كلامه يقع على العقل والقلب معا، بلا تكلف أو صنعة ... وإذا السامع يخرج بزاد ثري من المعاني السامية الجليلة، والإرشاد القيم الوجيه ..

تلاميذه

هذا وقد كان من بين تلامذة الأستاذ محمد النخلي الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد الطاهر بن عاشور وهما « من رواد النهضة الفكرية والإصلاحية بتونس في العصر الحديث كما يعتبران من أبرز أتباع مدرسة الإمام محمد عبده والعاملين على نشرها . » (3)

ويعلق عبد الحميد بن باديس على تأثره بهذين الرجلين معا بقوله :

« .. عرفت هذا الأستاذ (الطاهر بن عاشور) في جامع الزيتونة وهو ثاني الرجلين اللذين يشار إليهما بالرسوخ في العلم، وبالتحقيق في النظر، والسموّ والإتساع في التفكير، أولهما العلامة الأستاذ شيخنا (محمد النخلي) القيرواني رحمه الله، وثانيهما الأستاذ شيخنا الطاهر بن عاشور، وكانا كما يشار إليهما بالصفات التي ذكرنا، يشار إليهما بالضلال والبدعة وما هو أكثر من ذلك، لأنهما كانا يحبذان آراء الأستاذ (محمد عبده) في الإصلاح ويناضلان عنها، ويبثانها فيمن يقرأ عليهما، وكان هذا ما استطاع به الوسط الزيتوني أن يصرفني عنهما، وما تخلصت من تلك البيئة الجامدة، واتصلت بهما حتى حصلت على شهادة « العالمية » ووجدت لنفسي الاختيار، فاتصلت بهما عامين كاملين، كان لهما في حياتي العلمية أعظم الأثر، على أن الأستاذ ابن عاشور اتصلت به قبل نيل الشهادة بسنة فكان ذلك تمهيدا لاتصالي الوثيق بالأ... ١١٦ النخلي . » (4)

.. ومرة أخرى يلح المصلح عبد الحميد بن باديس على الاعتراف بفضل النخلي عليه، وتوجيهه الوجهة المثلى حين تأثره بعالم آخر هو الشيخ حمدان لونيسي القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها، فيقول :

« .. وأذكر منهم (شيوخه) رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي، وفي حياتي العلمية، وهما من مشائخي اللذين تجاوزا بي حدّ التعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي إلى التربية والتثقيف والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة، أحد الرجلين الشيخ حمدان لونيسي القسنطيني وثانيهما الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله . » (5)

ثم يركز الحديث حول هذين العلمين ومدى توجيههما له من الناحيتين العلمية والعملية مما كان له أكبر الأثر في حياته فيقول ، عن النخلي :

« ... وأذكر للثاني (النخلي) كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العلمية على أثر تلك الوصية في ناحيتي العملية، وذلك أنني كنت متبرما بأساليب المفسرين، وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد، واحترام آراء الرجال، حتى في دين الله، وكتاب الله، فذاكرت الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال :

« اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة، وهذه الآراء المضطربة، يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح - ا - هـ . « فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة على ذهني آفاقا واسعة لا عهد له بها . » (6)

- ويشير الأستاذ تركي رابح في كتابه « **عبد الحميد بن باديس** » إلى أن كتاب « **العواصم من القواصم** » للإمام أبي بكر بن العربي، المتوفى سنة 543 هجرية، هو الذي نبهه إليه الشيخ محمد النخلي « فبحث (ابن باديس) عنه وقرأه، ثم استنسخه وقام بطبعه في جزئين، بعد عودته إلى الجزائر من تونس، وقدم له بمقدمة هامة » .

في تأسيس جمعية الجامعة الزيتونية

هذا ويعتبر الشيخ النخلي ضمن مؤسسي جمعية الجامعة الزيتونية، وقد كان مزمعا على إلقاء محاضرة بقاعة الخلدونية في اليوم الرابع من محرم سنة 1325هـ. على مسامع من استدعتهم الجامعة لبيان مقاصد الجمعية، وما تبغي تحقيقه في مجال النهضة العلمية بجامع الزيتونة، إلاّ أن ظروفا عائقة حالت دون ذلك، وقد نشرت مجلة المنار المصرية هذه المحاضرة وعلقت عليها بما يلي :

« نحيي الجمعية الزيتونية ونحمد الله أن وجد في علمائنا مثل هذا الخطيب، وعسى أن يكون لطلاب الأزهر جمعية مثلها » وقد استهل الشيخ محاضرته بالبيت التالي :

ليس الحداثة في سن بمانعة   قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

تآليفه

أما من حيث التأليف، فإن الشيخ محمد النخلي لم يترك أثرا مطبوعا سوى نشرية في اثنتي عشرة صفحة بعنوان : **حياة اللغة العربية**، مطبعة النهضة - تونس، بدون تاريخ - وقد قدم لها ابنه السيد عبد المنعم النخلي. إلاّ أنه وكما أشار إلى ذلك الأستاذ أحمد توفيق المدني في تقويمه « المنصور » (7) قد ترك

العديد من الدراسات تهيأ لنشر البعض منها غير أن ظروفا قاهرة حالت دون ذلك، وسوف نورد فيما يلي البعض منها على سبيل المثال لا الحصر، وحتى نلفت نظر الباحثين والدارسين إلى وجوب الاهتمام بها ونفض غبار النسيان عنها :

- رسالة في المرأة المسلمة - وهي كما أشار الأستاذ المدني على اختصارها تكاد تكون فريدة في بابها، حيث ذكر فيها من مظاهر عناية الشريعة السمحاء بالمرأة وتوفيتها حقها مع الأدلة الشرعية ما لا يوجد في مؤلف في هذا الموضوع، وكان كتب عنه إلى من سأله توجيه نسخة منه إليه وهو بالقيروان ما نصه :

« وأما تأليف المرأة المسلمة فقد قضى الله بتشتيت شمله، فآخره عندي بالقيروان وأوله بتونس ولا أعلم كيف شتت هذا التشتيت، كأني حسبت أني نقلته بتمامه إلى تونس، وأنا لم أنقل إلاّ بعضه في الواقع . » (8)

- محرر مختصر في مسألة الناقص بالفصاحة .

- رسالة في تراجم شيوخه على طريقة الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقيان .

- ألفية في الجغرافية .

- رجز في العروض والقوافي .

- دراسة في قوله تعالى : « ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا »

- دراسة في تفسير قوله تعالى: « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

- دراسة في تفسير قوله تعالى : ان الله يأمر بالعدل والإحسان » ويذهب الأستاذ المدني إلى أن هذه الدراسة من أهم ماخطت يد الشيخ الأديب .

- دراسة تاريخية فلسفية في دول الوليد بن عبد الحكم الأموي، والمأمون، وأبي جعفر المنصور العباسيين صدرها بمقدمة في دول الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم إلى دولة الوليد، وأملى معظمها في مسامرات بنادي الصادقية سنة 1324هـ.

من خلال ما تقدم ذكره من دراسات لم تنشر، نستكشف أن الشيخ محمد النخلي كان له نشاط غزير، سواء في مجال المسامرات والمساهمة في النهضة الفكرية مطلع القرن العشرين، أو في هذه التحقيقات والتحارير التي دبجتها يراعته، وكم نحن في شوق متزايد إلى السعي وراءها واستكناه مضامينها حتى يعم النفع الجميع، وحتى نعيد لهذا العالم الكبير بعض مجده العلمي ومكانته التي يستحقها

بين أعلام الزيتونة العظام. لقد عاش النخلي للعلم والتعليم وليس غير سواهما، وحتى في سني مرضه العضال الذي أودى بحياته رحمه الله كان يبحث ويطالع شتى المؤلفات قديمها وحديثها، وفي أي مادة كانت ويحادث طلبته وخلانه في مواضيعها المختلفة مبديا آراءه ومواقفه فيعترف له القوم بهذا النبوغ وهذه العبقرية التي قلما يجود الزمان بمثلها .

التعاليق و المراجع

(1) « **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** » .

محمد مخلوف – المطبعة السلفية – القاهرة. 1350 هـ . ص . 426 .

(2) « **التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة** » للطاهر الحداد. « باب حالة العلوم بالمعهد » تقديم وتحقيق م. أنور بوسنينة – طبع الدار التونسية للنشر 1981 .

(3) « **الشيخ عبد الحميد بن باديس ، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم** » – تركي رابح. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر 1969 .

(4) المصدر السابق . انظر أيضا جريدة البصائر. عبد الحميد بن باديس – السنة الأولى – العدد 16 – الجزائر 24 أفريل 1936 .

(5) جريدة الشهاب – عبد الحميد بن باديس – عدد خاص ، جوان - جويلية 1938 – ص 288 -291 .

(6) المصدر السابق نفس الصفحات .

(7) « **تقويم المنصور** » – أحمد توفيق المدني . السنة الرابعة 1345 هـ . تونس . صفحات 263-281 .

(8) المصدر السابق. انظر أيضا مقالا لكاتب البحث بجريدة الصباح تحت عنوان : الشيخ محمد النخلي رائد النهضة الفكرية بجامع الزيتونة – الجمعة 4 جانفي 1980 .

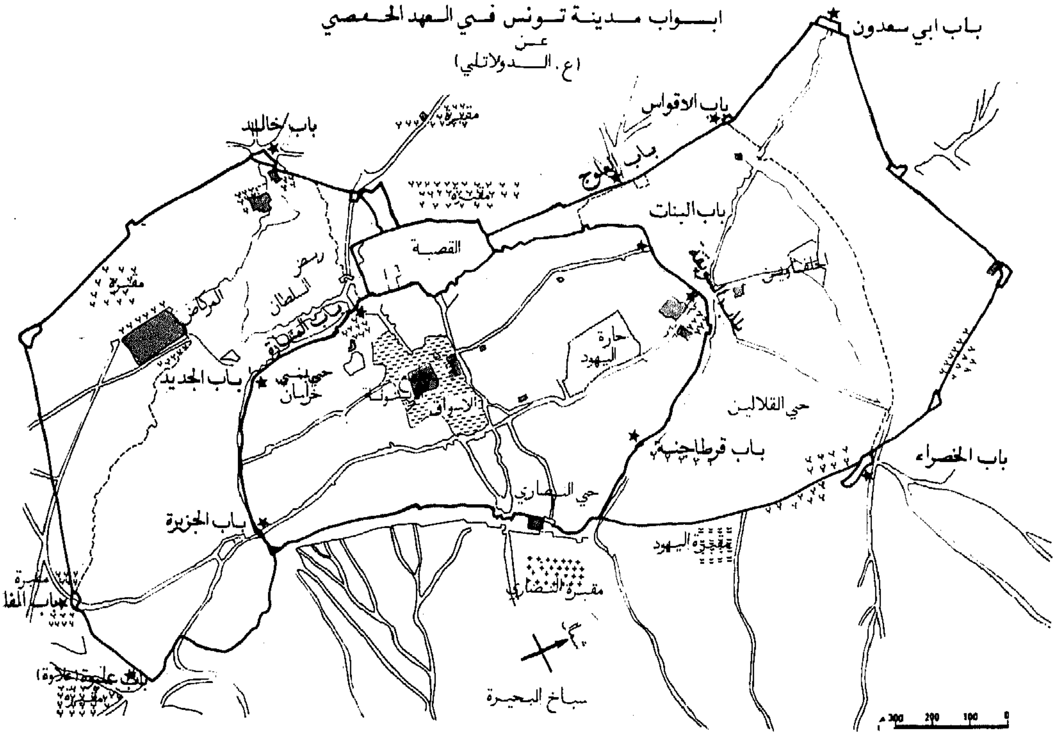
(9) « **محمد الخضر حسين** ، حياته و آثاره » محمد مواعدة ، الدار التونسية 1974 صفحات 48 - 140 - 215 .

(10) « **التقويم التونسي** » ، من سنة 1342 هـ 1923 إلى سنة 1346 هـ 1928 م ، الشاذلي بلحسن ، المطبعة الرسمية تونس .

جامع الزيتونة – التقويم الثالث 1925-1926 . صفحة 192 – محمد النخلي . صفحة 274 .

محمد أنور بوسنينة

مواقع



تاريخ «أبواب تونس»

لقائل أن يقول عند قراءة هذا العنوان ، ما هي فائدة التعريف بأبواب مدينة تونس، وقد تناولها القلب والإبدال، بل وبعضها عفت رسومه منذ أزمان ، والبقيّة الباقية منها لهذا الزّمان، هي أسماء بدون مسميات ، والجواب أنّ موضوع الحديث قاصر على خدمة التّاريخ ، أي عمّا له علاقة بأخبار الأزمنة الماضية، فلا اعتبار حينئذ لكون الأبواب التي سنطرق حلقاتها ستكون مجيبة للنّداء على حدّ قول الشاعر :

حسبي من الإسراع نحوك أنني كنت الجواب عن السؤال المقبل
أم ستبقى صامتة على حدّ قول الآخر :

لقد ناديت لو أسمعت حيّا ولكن لا حياة لمن تنادي

ولا حاجة بنا لإكثار الكلام من هذه النّاحية الفلسفية، فالشيء الذي حفظه التّاريخ لا يمحوه كرّ الزمان، وهذه أبواب تونس مسقط رأسنا هي منافذ الدّخول إليها في الأزمان الغابرة والحاضرة ، فلأجل الاحتفاظ بأسمائها ، وإن غابت عنّا أعيانها كلّها أو جلّها ، كتبنا هذه النّبذة التي جمعنا شتاتها من مختلف المصادر المعروفة وغير المعروفة، لتكون مرشدا وبيانا لأهل الأجيال القابلة ، وهذه الطّريقة هي الرّوح الحيّة التي كانت ولا تزال تتخبّط بين جنبي التّاريخ ، وجنبا التّاريخ هما دفّتا كتبه المتداولة بين النّاس في كلّ زمان ومكان.

وليتصوّر القارىء الموضوع الذي قصدنا البحث فيه ، لا بدّ له أن يتصوّر في البداية كون مدينة تونس كانت محاطة بأسوار ، وفقا لنظم تحصين المدائن في العصور الغابرة بسائر جهات المعمور ، وليكن لنا عبرة من ذلك في سدّ ذي القرنين، وما أقيم قبله وبعده من السّدود، وليست السّدود إلا أسواراً، وإنّما الخلاف في التّسمية لا في المسمّى، ولا شبهة في كون تلك النّظم بعنوان التّحصين ممّا أخنى عليها الدّهر، لتغلّب المخترعات الحديثة ، وظهور علوم جديدة لم تكن في الحسبان، منها علم الميكانيك الذي من متفرّعاته الحصون المتنقّلة السّابحة على أمواج الفضاء بين السّماء والأرض. وهذا كلّه، مع غيره ممّا نشاهده ونسمعه في كلّ صباح ومساء، ممّا يجعلنا في غنى عن البحث في صلوحية الأسوار وعدمها، إنّما الشّيء الجدير بالذّكر هنا، هو أن حاضرة تونس كانت مسيّجة بسور من تراب أقامه حولها الأمراء الأغالبة في أوائل المائة الثالثة للهجرة، وهذا السّور تناوله التجديد مرارا في القرون التّالية، و لقد حفظ التّاريخ في هذا المقام منقبة جليلة لولّي الله سيدي محرز بن خلف، عماد البلد وأهلها، يسمّونه "سلطان المدينة" حيث كان من العاملين على تشييد سور تونس في المائة الرّابعة، ويقول المؤرخ الشيخ ابن أبي دينار في المؤنس [1]: إنّ هذا السّور المحرزي عفت رسومه عند ظهور الدّولة الحفصية، لأنّ السّلاطين الحفصيين جدّدوا أسوار تونس عاصمة ملكهم، وجعلوها بالحجارة والبناء المرصوص، وهكذا استرسل حال الأسوار التّونسية عبر العصور إلى عهد الدولة الحسينية السّعيدة،

ففي مدّتهم كثرت تحابيس أهل الخير على أسوار تونس ، قياسا على صنيع أهل العصر الحفصي، وكانت أغلب تلك التّحابيس الباقية آثارها لهذا الزّمان، هي معاصر الزّيوت التي كانت الحاضرة عامرة بها، وكان من أكثر الملوك الحسينيّين عناية بالأسوار والحصون الواقعة حول تونس، المولى حمودة باشا، طاب ثراه.

هذه الأسوار التي كانت في الزّمن القديم تضمّ داخلها مدينة تونس بأجمعها، أصبحت بالتّالي واقعة داخل البلد بسبب انتشار الأبنية والمساكن خارجها، بحيث إنّها فات المقصود منها ، وصار وجودها فيما يقال ، منافيا لقواعد الصّحّة بالمعنى العصري، لذلك وقع هدم بعضها لعهد قريب، لأنّ بعضهم يراها مانعا لانتشار الضّوء والهواء حول الأبنية، والدّور ،والقصور المجاورة لها ، وليس هذا بالأمر الغريب، فإن بعض أسوار تونس كان وقع هدمه لقرنين ماضيين فيما بين باب البنات وباب قرطاجنّة على عهد الباشا علي باي الأوّل، هكذا قال في كتاب المشرع الملكي [2]، والتّاريخ يعيد نفسه كما هو مقرر معلوم، على أنّ الأسوار التي وقع هدمها في زماننا الحاضر، أبقي منها نموذجات قائمة لإخبار الأجيال القابلة بأحوال القرون الماضية.

واعلم أن حاضرة تونس ، كان لها في الأوّل سور واحد محيط بالمدينة ، وهذا السّور كان موقعه بالطّريق العام المارّ به اليوم خطّ سكّة الترامواي عدد 1 [3]، يعني السكّة المارة بباب البحر، فباب قرطاجنّة، فباب السّويقة، فباب البنات، فالقصبة، فباب المنارة، فالباب الجديد، فباب الجزيرة، فباب البحر حيث البداية، وهذا هو السّور القديم الذي كان موجودا في المائة الرّابعة على عهد سيدي محرز ابن خلف رضي الله عنه، وكانوا ينعتونه بالسّور الدّخلاني، وسنعود للكلام على الأبواب الواقعة حوله، والسّور الثاني هو الذي أحدثه سلاطين بني حفص، وهو المضاف إلى سور باب البحر، وباب الجزيرة، فباب علاوة، فباب الفلّة، فباب القرجاني، فباب سيدي قاسم، فباب سيدي عبد الله، فباب غدر، فباب العلوج، فباب سعدون، فباب سيدي عبد السلام ، فباب العسل ، فباب الخضراء ، ومنه يلتحق بسور باب قرطاجنّة، وباب البحر حيث البداية. وسنعود للكلام على الأبواب الواقعة حول هذا السّور الثاني، مع الإشارة لغيرها من الأبواب التي عفت رسومها ولم يبق لها ذكر بين النّاس ، وهذا السّور كانوا ينعتونه بالسّور البرّاني. ولقد أدّاني البحث في الموضوع الذي نحن بصدده لمراجعة مصادر كثيرة ، أقدمها عهدا كتاب **المسالك والممالك** لأبي عبيد عبد الله البكري (ولد سنة 432 هـ/

1040م وتوفي بقرطبة سنة 487 هـ / 1094 م) وكتاب **نزهة المشتاق** للشّريف الإدريسي (ألفه سنة 548 هـ / 1153م) و**معجم البلدان** لياقوت الحموي (المتوفى عام 626 هـ / 1228 م) و أقربها عهدا كتاب **المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي**، لمؤلّفه محمد الصغير بن يوسف الباجي (توفيّ في حدود سنة 1184 هـ / 1770م) و**تاريخ الحكيم فرانك الفلمنكي**، طبيب المولى حمودة باشا ألّفه في حدود سنة 1815 للميلاد (1330 للهجرة) وكتاب **نزهة الأنظار** للمؤرّخ محمود مقديش الصّفاقسي، أنهاه تأليفا بحوادث سنة 1233 هـ / 1817 م، وبقية المصادر التي رجعت إليها في هذا البحث ، هي ابن الشبّاط (المتوفى عام 681 هـ / 1282 م) و**رحلة العبدري** التي ابتدأها صاحبها في سنة 688 هـ / 1289 م و**رحلة التجاني** (واسمه عبد الله بن محمد بن إبراهيم التّجاني توفي سنة 720 هـ / 1320 م) و**تحفة النظار في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار** للرّحّالة ابن بطولة ابتدأها في سنة 725 هـ / 1324 م و**تقويم البلدان** لأبي الفداء إسماعيل (المتوفى سنة 732هـ / 1331 م وكتاب **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، لابن فضل الله الدمشقي (المتوفى سنة 748 هـ / 1347 م) وكتاب **العبر** لابن خلدون (المتوفى سنة 808 هـ / 1405 م) وكتاب **صبح الأعشى** لأبي العباس أحمد القلقشندي ألّفه عام 814 هـ / 1411 م و**تحفة الأريب** لعبد الله التّرجمان [4] ألّفها سنة 823 هـ / 1420 م وكتاب **الأدلة البيّنة النّورانية على مفاخر الدّولة الحفصية** لابن الشمّاع [5] أنهاه تأليفا بحوادث عام 833 هـ / 1429 م و**تاريخ الدّولتين الموحديّة والحفصية** للفقيه الزّركشي ، واسمه محمد بن إبراهيم اللؤلؤي المعروف بالزّركشي (المتوفى سنة 932 هـ / 1525 م) وكتاب **وصف إفريقية** للمؤرّخ ليون الإفريقي [6] وهو كتاب جليل استغرق ثلاث مجلّدات ، ظهر بعالم الوجود حوالي سنة (639 للهجرة) 1530 للميلاد و**المؤنس في أخبار إفريقية وتونس** ، لأبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الرّعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار ، ختمه بحوادث سنة 1092 هـ / 1681 م) وكتاب **الحلل السّندسيّة في الأخبار التونسية** للوزير السرّاج، واسمه محمد بن محمد بن أحمد بن مصطفى الأندلسي المعروف بالوزير السرّاج، توفّي عام 1149 هـ / 1736 م وله عقب من أهل الفضل بحاضرة تونس ، وغير ذلك من المعاجم والمؤلّفات التّاريخية الحديثة ،عربية وفرانساوية ، أعرضنا عن ذكر أسمائها خوف الإطالة بدون جدوى، ومن هاتيك المصنّفات اقتبسنا ما به الحاجة من وصف تونس ، ولا سيما خبر أبوابها في القديم وفي الحديث .

وها أنا ذا متوكّل على الله في التّعريف بهاتيك الأبواب المفتوحة على مصراعيها للصّادر والوارد، مبتدئا بأبواب السّور الدّخلاني التي تقدّم ذكرها في البداية، ويلوح أن أقدم أبواب هذا السّور ، هو باب الجزيرة الذي يعبر منه للوطن القبلي، والوطن القبلي اسمه في كتب التّاريخ جزيرة شريك ، نسبة لشريك العبسي عاملها، وهو من الفاتحين الأوّلين ، يزاحمه في الأقدمية باب قرطاجنّة الذي يعبر منه لجهة قرطاجنة، ومن أطلال هذه المدينة جيء بالحجارة اللازمة لعمارة مدينة تونس، وعلى هذا التّقدير يمكننا جعل ظهورهذين البابين في أواخر المائة الثانية أو في أوائل المائة الثالثة، يعني في الزّمن الذي تمصّرت فيه مدينة تونس، وأخذت نصيبها من العمران والازدهار الفقهي حول مسجدها الأعظم جامع الزّيتونة الذي تم بناؤه باتّفاق المؤرخين في سنة 114 هـ / 732 م على يد عبيد الله بن الحبحاب والي تونس للخليفة هشام بن عبد الملك، وهنا يناسب الإلمام بوصف تونس على ما حكاه البكري (المائة الخامسة) في كتاب **المسالك والممالك**، لأنّه أقدم المصادر التّاريخية المعتمدة كما أسلفنا ذكره، قال : ومدينة تونس في سفح جبل يعرف بجبل أم عمرو (الجبل الأحمر)، ويدور بمدينتها خندق حصين ، ولها خمسة أبواب، باب الجزيرة قبلي، ينسب إلى جزيرة شريك، ثم قال : وبشرقيّها أيضا باب قرطاجنّة، دونه داخل الخندق بساتين كثيرة تعرف بسواني المرج (هذه البساتين كان موقعها فيما بين باب الخضراء وباب السّويقة شاملة لجهة الحلفاوين، ومنه الرّياض الذي كان محلّ نزهة لأهل الدّولة) وباب السّقّايين جوفي، نسب إلى السّقّايين لأنّ بئرا تُعرف ببئر أبي الفقار تقابله، وهي بئر كبيرة عذبة الماء نميرة. وباب أرطة غربي، تجاوره مقبرة تعرف بمقبرة سوق الأحد، ودون الباب من داخل الخندق غدير كبير يعرف بغدير الفحّامين ، وربض المرضى خارج عن المدينة، ويقبلي ربض المرضى ملاّحة كبيرة ، منها ملحهم وملح من يجاورهم، إلى أن قال : ومدينة تونس دار علم وفقه ، ولي منها قضاء إفريقية جماعة كثيرة. ولكنّه استدرك على ذلك بما كان ينسب لأهلها من الاختلاف على الحكّام في زمنه، فقال مع الشاعر:

لعمرك ما ألفيت تونس كاسمها   ولكنّني ألفيتها وهي توحش

ثمّ أطنب في ذكر خيراتها وبركاتها ، وأشار لكثرة الأسماك الموجودة ببحرها، وقال : إن أهلها بسبب كثرة حوتها واختلاف أجناسه في لذّة موصولة، ونعمة غير مملولة، وكلّ جنس يصبر فيبقى السّنين صحيح الجرم ،طيّب الطّعم (كشرمولة

بنزرت) منها جنس يعرف بالعبانق ، وجنس يعرف بالأكتوبري (لعلّه الحوت البوري)، وجنس يعرف بالاشبارس (معروف) ، وجنس يعرف بالمنكوس (معروف)، وجنس يعرف بالبفونس ، ثم قال : ومن أمثالهم لولا البفونس لم يخالف أهل تونس. وتخلّص للكلام بعد ذلك على مدينة قرطاجنة وأطلالها، ولم يذكر لنا الباب الخامس من أبواب تونس ، قلت : لعلّه باب السّويقة ، لأنّه كان موجودا في زمن المؤلّف ، وهنا يستحبّ الإشارة لكون المؤلّف لم يغادر مسقط رأسه بالأندلس، ومع ذلك فإنّ كتابه جمع فأوعى، واتّفق المؤرخون من بعده على أنّه احتوى على صحيح الأخبار، لأنّه كتبه ممّا وقف عليه من الوثائق الصّحيحة والتقارير التي كانت ترد على المنصور بن أبي عامر من أعوانه وعيونه المنتشرين بشمال إفريقية، أضف لذلك أنّ المؤلّف كان صاحب ثقافة واسعة، ومشاركة عريضة في اللغة، والأدب، والتّاريخ ، والجغرافية، والطبّ ،وعلم النبات ، وغير ذلك. ومن تعريف البكري، يظهر أنّ مدينة تونس كانت لها خمسة أبواب في زمنه ، وهي : باب الجزيرة (معروف شمله الهدم مع سور تونس الدّاخلي)، وباب قرطاجنّة (معروف شمله الهدم مع السّور الدّاخلي كالباب السابق)، وباب السّقّايين، وكان يفتح بجهة الجوف قرب بير قميرة، يستقي منها أهل تونس ، وهذا الباب غير معروف ولم يتعرض لذكره المؤرّخون التّونسيون، ويلوح بمقتضى اتّجاه موقعه الجوفي ، أنّه ربّما كان هو باب الأقواس، حيث كانت مخازن المشاكة وهم أصحاب الأمشاك [7] الخاصّة بتعبئة ماء الشراب وحمله لتزويد أهل المدينة، وباب أرطة وهو غير معروف أيضا، ولعلّه نسبة لاسم بشر بن أرطة من أصحاب عقبة بن نافع، لأنّ التّاريخ أثبت قدوم بعض أصحاب عقبة لجهة تونس، أو هو بالأحرى اسم لبقعة مجاورة لسور تونس من ناحيته الغربية كما يستفاد ذلك من عبارة البكري في قوله : وسار حسّان بن النّعمان إلى أرطة، فقاتل الرّوم بفحص تونس. وهذا الباب كان غربي المفتح، وكان لقربه من الخارج جبّانة تعرف بمقبرة سوق الأحد، ودون الباب أي بداخل البلد، كان الخندق الجامع لقاذورات المدينة، وسنعود للكلام عليه، وخارجه أي خارج البلد، كان ربض المرضى، يعني المرضى المبتلين بأمراض العدوى. ويقول بعض المؤرخين من الأروباويين، إنّ جعل هؤلاء المرضى خارج المدينة كان لسبب إصابتهم بالبرص والعياذ بالله، ومقتضى كلام البكري، كان قبلي هذا الرّبض ملاّحة كبيرة يتزوّد منها أهل المدينة، وهذه الملاّحة ليست هي إلاّ ملاّحة رادس المعروفة، إذ لا يوجد حول حاضرة تونس إلاّ هذه الملاّحة، وملاّحة روّاد الواقعة لجهة الجوف بالنّسبة لمدينة تونس، وأمّا المقبرة المسمّاة بمقبرة سوق

الأحد، فمحلّها بمقتضى اتّجاه موقعها نحو الغرب، يكون خارج السّور فيما بين باب العلوج وباب سيدي عبد الله اللذين سيأتي الكلام عليهما، وفعلا توجد هنالك لهذا الزّمان المقبرة المنسوبة لسيدي أحمد السّقّا، وكون هذا الوليّ من رجال المائة الثامنة (توفي رضي الله عنه عام 743 هـ / 1342 م وهو يقرأ القرآن فلمّا انتهى لقوله تعالى : «هذا نذير من النّذر الأولى » ووصل لقوله :« فاسجدوا للّه واعبدوا» فاضت روحه الزكيّة)، لا يقوم دليلا على عدم وجود مقبرة هنالك قبله، بل الأمر بالعكس، إذ من المحتمل القريب أنّ تلك المقبرة أوّلية، وإنّما بدّل اسمها بتوالي القرون، يدلّك عليه أنّ مقبرة الزّلاّج حبّسها صاحبها في المائة السّابعة، مع كون أرضها كانت بها جبّانة لدفن أموات المسلمين في المائة الخامسة أو قبلها، وهنا ينتهي بنا التعليق على كلام البكري، وبقي مدينا لنا ببيان الباب الخامس بتونس في زمنه .

وأمّا الشّريف الإدريسي صاحب كتاب **نزهة المشتاق** الذي هو من رجال المائة السّادسة ، فقد قال : وهي (تونس) الآن في وقت تأليفنا لهذا الكتاب (سنة 548 هـ/ 1153 م) معمورة موفورة الخيرات ، يلجأ إليها القريب والبعيد ، وعليها سور تراب وثيق ، ولها أبواب ثلاثة (لم يذكر أسماءها) ، وجميع جناتها ومزارع بقولها في داخل سورها اهـ ، قلت : اتّفق المؤرخّون الأروباويون على أنّ كتاب الشّريف الإدريسي أحسن ماوضع في فنّ الجغرافية في زمنه ، لأنّه كتبه عن عيان لا عن سماع. قال في **الوافي بالوفيات** : إنّه ألفه بطلب من الملك روجار (الثاني) ملك الصقليّة، وأنّه ابتهج به وأوسعه حظوة وعطاء.

وقال ابن الشبّاط : ولها (تونس) في زماننا (المائة السّابعة) عشرة أبواب ، بعضها في البلد ، وبعضها في القصبة ، ثم قال : وبها أسواق كثيرة ، ومتاجر عجيبة ، وفنادق كبيرة رفيعة ، وبها خمسة عشر حمّاما، وعضادات أبواب دورها كلّها رخام بديع ، وهي دار علم وفقه ، ولي منها قضاء إفريقية جماعة كثيرة. هذا كلام ابن الشبّاط بالنّقل عن ابن أبي دينار الذي استدرك عليه بأنّ أبواب تونس في زمنه (القرن الحادي عشر) سبعة أبواب، ولم يبق في القصبة إلاّ باب غدر وأنّ عدد الحمّامات أربعون ا هـ.

وقال في **رحلة العبدري** : ومدينة تونس ـ كلأها الله ـ من المدن العجيبة الغريبة، وهي في غاية الاتّساع ونهاية الإتقان، والرّخام كثير بها، وأكثر أبواب ديارها معمول به عضائد وعتباً، وجلّ مبانيها من حجر منحوت محكم العمل، ولها أبواب

عـديدة (لم يذكـر أسـمـاءها)، وعند كل باب منهـا ربض مـتّسع على قـدرالبلد المستقلّ ا هـ ، قلت : هذه الأرباض هي : ربض باب السّويقة، وربض باب المنارة، وربض باب الجزيرة.

وأمّا **رحلة التّجـاني** التي ابتـدأها سنة 706 هــ / 1306 م، فلم نجد بهـا مـا يفـيـد القـارىء من حيث أبواب مدينة تونس ، ومثلها رحلة ابن بطوطة، سـوى أنّ هذا الرّحّالة الشّهـيـر وصـف لنا مـوكب السّلطان الحفصي بما يشـفي الغليل ، وكـان ابتداؤه **لرحلته من طنجة** في سنة 725 هـ / 1324م.

وقال في **تقويم البلدان** لأبي الفدا إسماعيل ، المتوفّى عام732 هـ / 1331 م : تونس هي كـرسي مملكة إفـريقيـة ، ثمّ لاحظ على ضـبـط لفظها فـقـال : بضـمّ المثنّاة من فوق ، وسكون الواو ، وضمّ النّون ، وفي آخرها سين مـهـملة ا هـ. وبهـذا الضّبط يكون اسمها غير مشتقّ من الأنس الذي أشار له الشّاعر في قوله :

وتونــس تونـس مــن جاءهـــا   وتدركـه حســرة حيـــث ســـار

ولكن ياقوت الحموي قال في **معجم البلدان** : إنّ النّون في لفظ تونس تضمّ وتفـتح وتكسر . قلت : هذا أغرب من الغريب ، لأنّ مثل هذا التّوسّع لا يصـحّ استـعـمـاله في أسـمـاء الأعلام ، ولأنّ لفظ تونس مـعـرّب من لفظ Thunés في اللسـان اللاطيني وموجود في كتب الأقدمين قبل أن يفتحها المسلمون بأحقاب ، ومن العبث الصّراح الجزم بغير الحقيقة التّاريخية التي جعلت اسم تونس لحسن حظّ أهلها موافقا بمجـرّد الصّدفـة والاتّفـاق لمادة الأنس الذي في مـعناه الاسـتـبـشـار وانشـراح الصّدور.

وممّن وصـف تونس وصفا مستكملا ابن فضل الله الدّمشـقي (توفي عام 748 هـ / 1347 م) في كـتـابه **مـسالك الابصار في ممالك الأمصـار** حيث قـال : هي مـدينة مسوّرة في وطئة من الأرض بسفح جبل يعرف بأمّ عمرو، ويستدير بها خندق حصين ، وثلاثة أرباض كبيرة من جهاتها ، وأرضـهـا سباخ ، وبها قصبة هي سكنى السّلطان ، وجميع بناء تونس بالحجر والآجر مسقوفة بالأخشاب ، وتفرش ديار أكابرها بالرّخام ومنذ خلا الأندلس من أهله وآووا إلى جناح ملوكها، مصّروا إقليمها ونوّعوا بها الغراس ، فكثرت منتزهاتها وامتدّ بسيط بساتينها على بحيرة من البـحـر الشّامي (البـحـر المتوسّط) خـارجة إلى شرقـيّها من فم ضيّق (حلق الوادي) ، إلى أن قـال : وليس لأهل تونس شـرب إلاّ من الآبار ، أحـدها بيـر

ضبيان، وبالبيوت صهاريج (مواجل) مجمع مياه الأمطار لغسل القماش وغير ذلك اهـ ، فترى مع هذا الوصف الجميل لم يتعرّض ابن فضل لذكر أبواب تونس ، ولكنّه أفادنا باسم بير ضبيان المقتبس منه بما لا شكّ فيه اسم خندق ضبيان الذي كان متسربلا خلال ربض باب السّويقة حتّى البحيرة.

هذا ولم نقف **بكتاب العبر** لابن خلدون على تعريف خاصّ بأبواب تونس، رغم إلمامه الجامع بتاريخ بلاد العرب والبربر بأجمعه ، ومثله القلقشندي فإنّه وصف تونس في **صبح الأعشى**، ولكنّه لم يتعرّض لذكر أبوابها ، ومثلهما المؤرخ ابن الشمّاع ، وهو من أبنائها ، وأمّا الفقيه الزّركشي فقد تعرّض لذكر جملة من أبواب تونس المعروفة وغير المعروفة ، ومن هذه الأخيرة باب ينتجمي (لفظ بربري) أحد أبواب القصبة ، ونصّ عبارته : وفي سنة 651 هـ / 1253 م بنى (المستنصر بن أبي زكرياء) قبّة الجلوس بتونس التي باسراك (لفظ بربري معناه بطاح) المشرفة على باب ينتجمي، وبنى المشى من القصبة إلى رأس الطّابية لكي تحتجب فيها حريمه، وأوصله إلى رياض أبي فهر . وقال في حوادث عام 857 هـ /1453 م : توفّي القائد نبيل بمحبسه ودفن ليلا بالقصبة، ثمّ أخرج ليلة الخميس رابع عشر الشّهر المذكور (جمادى الأولى عام 857 هـ) وأنزل إلى المدرسة الكائنة شرقي باب ينتجمي أحد أبواب القصبة (يا ترى أين موقع هذه المدرسة ؟ والمظنون أنّها بجهة الحفصية أو بجهة حوانيت عاشور حيث مدرسة الوزير البربري أحمد بن تفراجين الباقية آثارها لهذا الزّمان بنهج سيدي ابراهيم الرّياحي)، وقال في حوادث عام 861 هـ / 1456م : أصاب النّاس بتونس غلاء في الطعّام ، بلغ قفيز القمح أربعة دنانير ذهبا، والشّعير على الشّطر من ذلك ، فشكى النّاس قلّة الطّعام وغلاءه للسلطان (أبي عمرو عثمان الحفصي) فأمر بأن يخرج من المخزن (الرّابطة) في كلّ يوم ما يصنع منه ألف خبزة وتفرّق على الفقراء بتونس بباب ينتجمي، فابتدئ بتفريقها في ثالث ربيع الثّاني، ودام إلى رجب، حتى كثر الطّعام الجديد ورخص ثمنه اهـ ، (هذه الشهور الثلاثة يوافقها من الشّهور الشّمسية مارس وأبريل وماية سنة 1457 للميلاد).

وممّن كتب أيضا في وصف حاضرة تونس المؤرّخ ليون الإفريقي، وهو رجل صاحب شهرة مطبقة بأروبا ، ولكنّه غير معروف بين المسلمين، فهذا الرّجل وصف تونس وصفا مستكملا عن عيان تعرّض فيه لما بها من الأبنية والآبار والعوائد

حتى المأكول، ومنه البسيس، وأثنى على أخلاق أهلها وإقبالهم على الصّنائع والشّغل ولا سيما النّسج وقال : إنّ السّلطان المستنصر زاد في عمارتها بإحداث ربض خارج باب السّويقة به ثلاثمائة دار، وربض خارج باب المنارة به ألف دار، وربض خارج باب البحر به مساكن النّصارى ومتاجرهم، وأكثرهم من الجنويز، والبنادقة ، والكاتلان ، وقال : إنّ الدّور مبنية بالحجارة الصّلدة ، وصحونها مفروشة بحجر الكذّال، وبلاط البيوت مموّه بالألوان : قلت : كان عدد ديار تونس في ذلك العصر مقدّرا بالعدّ الصّحيح لنحو سبعة آلاف دار، وهي في زماننا هذا ثلاثة أضعاف ذلك. ومعلوم أنّ حاضرة تونس كانت مستكملة العمارة في أواخر العصر الحفصي من حيث اشتمالها بالوسط على أحياء المدينة الواقعة داخل سورها الأوّل الموجود مكانه في الزّمن الحاضر خطّ سكة التّراماواي كما تقدم ذكره،[8] وعلى أحياء الأرباض المحدثة في العصر الحفصي التي يشملها السّور الخارجي الذي ما زالت منه بقية عظيمة موجودة لهذا اليوم، وأبواب هذين السّورين المعروفة بين النّاس، ذكر أكثرها المؤرّخ ابن أبي دينار في **المؤنس** ، بحيث لم تبق لنا فائدة بإضافة نقول أخرى لذلك من كتب المؤرخين المتأخّرين ، ولأجله نحصر ما بقي لنا من الحديث في التّعريف بتلك الأبواب، قديمة كانت أو حديثة، موجودة أو غير موجودة، ونتوخّى في ذلك تقديم القديم على الجديد باعتبار تواريخ ظهورها في عالم الوجود حسب ما أنتجه بحثنا في ذلك. ولكن لا بدّ لنا قبل ذلك من الإشارة لكون جميع الأبواب التي سنعرّف بها، كانت تغلق ليلا، كما كانت تغلق نهارا أيضا وقت صلاة الجمعة وفقا لعادة قديمة ظهرت في أواخر الدّولة الحفصية عند احتلال عساكر الأسبانيول لتونس، اتّقاء شرّ الفتنة ودفعا لهجمات البدو من الأعراب الذين كان بعض سلاطين بني حفص في دور هرم دولتهم يستنفرونهم للدفاع عنهم، فيعيثون في الأرض فسادا ، واسترسل الأمر كذلك على عهد حكم الأتراك في كامل مدّة الدّولة المرادية، وبقي كذلك أيضا في العصر الحسيني إلى أوائل مدّة المشير أحمد باي ، فلمّا رتّب الأجناد وتوفّرت لديه العدّة الكافية للاحتفاظ بالأمن العام ، استغنى بذلك عن غلق أبواب الحاضرة وقت صلاة الجمعة، وبقي غلقها واقعا في الليل بانتظام من الغروب، إلى قبيل طلوع الشمس، عدا باب الخضراء وباب علاوة، فإنّهما لا يغلقان إلا إثر صلاة العشاء. وقياسا على ذلك كانت أبواب الحارات والحومات بداخل المدينة تغلق أيضا في الليل، وهذه الأبواب الدّاخلية كانت كثيرة بقسم المدينة ، لكلّ حومة باب خاصّ بها يجعلها منفصلة عن بقية الحارات طيلة الليل كله صيفا وشتاء ، وكانت

مفاتيحها بيد المحرّكين، ولا يجوز فتحها ليلا بحال ، اللهم إلاّ في حالة احتضار مريض لجلب طبيب أو قريب له، أو في حالة امرأة أخذها المخاض ليؤتى لها بقابلة لمباشرتها ، ودام غلق أبواب حومات المدينة إلى سنة 1276 هـ / 1859م، فلمّا أعلن المشير محمد الصادق باي بقانون عهد الأمان، ترك لأهل الحاضرة حرّيتهم بإبقاء حاراتهم مفتوحة في الليل كما في النهار، ولم يستثن من ذلك إلاّ أبواب أسواق التّجارة ، ومازالت كذلك إلى هذا الزّمان. أمّا غلق أبواب البلاد ليلا فقد كان القصد منه حفظ السكّان من طوارق الحدثان ، ومن ناحية أخرى كان وسيلة لضبط الأداء الموظّف على المحصولات التي تجلب لتونس من مختلف الجهات ، حتّى لا يقع إدخال شيء من الطّعام أو غيره خفية من الليل، ويفوت بذلك دخل كبير على البايليك ، بحيث إنّ أبواب البلاد كانت لا تفتح ليلا إلاّ لحادث عظيم. فقد اتّفق لهم مرّة فتح باب أبي سعدون أثناء الليل عن إذن الداي ليخرج منه جماعة من القرّاء وقع استدعاؤهم للحضور بباردو بمناسبة مأتم بدار الإمارة، حدث فجأة ، وهذا الباب نفسه صدر الإذن في أواخر عام 1298 هـ / 1881 م، بإبقائه مفتوحا دواما واستمرارا لتسهيل أسباب المواصلة لعساكر جيش الاحتلال بين تونس والثّكنات العسكرية الواقعة خارجها ، ثمّ بطريقة التّدريج وقع فتح باب الخضراء ، وباب علاوة ، وباب القرجاني ، وباب العلوج في الليل كما بالنّهار. وكان آخر الأبواب فتحا في الليل مع النهار ، باب سيدي عبد السّلام، وباب سيدي عبد اللّه الشّريف ، وألغيت مع ذلك خدمة استخلاص المعلوم على دخول المحصولات من أبواب الحاضرة لفوات المقصود منها ، لأنّ أكلافها أصبحت بتكاثر متوظّفيها تناهز المدخول المتحصّل منها لفائدة صندوق الدولة، وإليك تاريخ نشأة الأبواب :

1 - **باب الجزيرة :** هومن أقدم أبواب تونس إن لم يكن أقدمها ، والجزيرة المنسوب لها هذا الباب هي جزيرة شريك العبسي، وقد تقدّم التّعريف بذلك ، ونعرف لإمام البلاغة الورغي أبياتا جاء فيها ذكر هذا الباب ونصّها :

سقاك الغيث يا باب الجزيرة ... فكم جازتك من حورا عطيره
تميل إذا مشت كالسّرو هبّت ... عليها الرّيح من أرض مطيره
ويرجع كلّ ذي عين رآها ... بكفّ عن تناولها قصيره
إذا ما قال ذو طمع لمن ذا ... تقول لمن دراهمه كثيره

2 ـ **باب قـرطـجنّة** : معروف ، وممّا لا شكّ فيه أنّه من أول أبواب تونس حدوثا، ويلوح أنّه ظهر في المائة الثّانية، لأنّهم كانوا يدخلون منه الحجارة المجلوبة من أطلال قرطاجنّة لعمارة تونس ، وتونس كانت دار علم وفقه ومتمصّرة في أواخر المائة الثّانية.

3 ـ **باب أرطه** : غير معروف ، ويلوح أنّه من أقدم أبواب تونس على تقدير أنّ اسمه نسبة لاسم بشر بن أرطه من أصحاب عقبة بن نافع الذي تولّى حكم إفريقية مرتين في أواسط القرن الأوّل للهجرة ، أو هو نسبة لبقعة من الأرض مجاورة لتونس كما تقدّم ذكره.

4 ـ **باب السقّايين** : غير معروف ، وهو من أقدم أبواب تونس، لأنّه كان موجودا في المائة الخامسة، ولعلّ موقعه كان بجهة باب الأقواس كما تقدّم بيانه.

5 ـ **باب البحر** : معروف ، وهو من أقدم أبواب تونس اتّفاقا ، لأنّ سوره كان هو الحافظ للمدينة من جهة البحر كما يدلّ عليه اسمه، قالوا : إنّ الواقف بدرج جامع الزّيتونة في المائة العاشرة كان يرى مياه البحر من مكانه.

6 ـ **باب السّويقة** : معروف ، كان موجودا باسمه هذا في المائة الرّابعة، ومعنى السّويقة سوق صغيرة كان يملكها سيدي محرز بن خلف وكانت محرّرة من الأمكاس كبقية رباعاته وعقاراته ومتاجره وغروسه. وسيدي محرز [راجع المقال في "دامت"] رضي الله عنه كان من رجال الدّين والدّنيا ، جمع بين علوم الشّريعة وعلوم الاجتماع البشري.

7 ـ **باب الأقواس** : معروف موقعه، ويلوح ممّا ورد في حقّه بالمؤنس ، أنّه اندثر مع السّور القديم الذي بناه سيدي محرز بن خلف.

8 ـ **باب الفلاق** : غير معروف ، ذكره ابن أبي دينار في جملة الأبواب التي كان موقعها بالسّور المحرزي المندثرة.

9 ـ **باب البنات** : معروف ، والمتعلّق بمحفوظي أنّه منسوب لبنات أحد الثّوار، ولعلّه ابن غانية المعاصر للموحدّين ، وهؤلاء البنات كنّ على جانب من الجسارة والشّمم وعزّة النّفس.

10 ـ **باب ينتجمي** : غير معروف ، وكان موقعه بالقصبة بما لا شكّ فيه ، لأنّ الزّركشي قال إنّه أحد أبوابها كما تقدّم وصفه بمزيد بيان.

11 ـ **باب غدر** : معروف ، ذكره ابن أبي دينار وقبله الزّركشي، ومنه يستفاد أنّه كان موجودا في عام 708 هـ / 1308 م وهذا الباب خاصّ بالعساكر الذين بثكنة القصبة في هذا الزّمان.

12 ـ **باب القرجاني** : معروف موقعه وسمّي كذلك نسبة لولّي الله سيدي علي الكبير القرجاني من رجالات المائة السّابعة .

13 ـ **باب المنارة** : معروف ، سمي كذلك لأنّه كانت بجداره مشكاة لهداية أبناء السّبيل ، وكان موجودا في عام 684 هـ / 1285 م.

14 ـ **باب الجديد** : معروف، بني على عهد السّلطان يحيى الحفصي في حدود سنة 676 هـ / 1277 م وفي مدّة الباشا علي باي الأوّل تناوله التّدمير والتّخريب برمي المدافع أثناء الفتنة التي أثارها الباشا المذكور لاغتصاب الحكم من يد عمّه المقدّس المولى حسين بن علي، ولمّا رجع الدّرّ لمعدنه أمر المولى علي باي الثّاني بتجديد الباب المتحدّث عنه في سنة 1183 هـ /1769م، وقد أرّخ هذا التّجديد إمام البلاغة أبو عبد الله محمد الورغي بأبيات ننقلها من ديوانه ونصّها :

جدّد هذا الباب الجديد علي باشا بن الحسين السّعيد
أقامه من بعد ما قد هوى في فتنة يشيب منها الوليد
فاللّه يحميه وأنجاله من مثلها في طيب دهر حميد
ويبني لهم مثل ما قد بنى هذا هنا في الخلد قصرا مشيد
وعندما قدمت أرّخته لمدخل ارفاق ونيل يزيد

(1183 هـ / 1769 م)

15 ـ **باب علاوة** : معروف ، كان موجودا في عام 881 هـ / 1476م على ما أفاده الزّركشي.

16 ـ **باب أبي سعدون** ـ معروف ، ذكره غير واحد من المؤرخين ، ويلوح أنّه بني في أواخر المائة الثّامنة أو في أوائل المائة التّاسعة ، لأنّ السّلطان محمد المنتصر الحفصي بنى سقاية هذا الباب في حدود سنة 838 هـ /1434م حسب ما جاء ذلك في المؤنس ، وفيه يقول إمام البلاغة الورغي بطالعة نونيته المعروفة :

باكر سعدوك ليس الوقت بالدّون   واجعل صبوحك عند باب سعدون

17 ـ **باب الخضراء** : معروف ، واسمه أزهى أسماء أبواب تونس ، سمّي كذلك لأنّه يعبر منه لجهة الخضراء التي كانت معمورة بالزّياتين، ويلوح أن بناءه كان في أواخر المائة العاشرة ، لأنّي لم نعثر (كذا) على ذكره في العصر الحفصي ، ولأنّه كان موجودا في عهد الدّولة المرادية.

18 ـ **باب العلوج** : معروف ، وكان اسمه باب الرّحيبة في المائة الثامنة وما قبلها وغلب عليه نسبته للعلوج من أواسط المائة التّاسعة لأنّ السّلطان أبا عمرو عثمان لمّا تولى الملك في سنة 839 هـ / 1435 م وفد عليه أخواله من إيطاليا ، فبرّ بهم وأسكنهم بالرّبض المجاور للقصبة. قال في الخلاصة النّقيّة: كانت أم هذا السّلطان من العلوج ، اسمها مرين (ماريه) فلمّا بويع ورد عليه أخواله فأسكنهم بالرّبض الملاصق للقصبة ، وعرف بحومة العلوج من يومئذ اهـ.

19 ـ **باب سيدي قاسم** : معروف ، وبالنّسبة لسيدي قاسم الجليزي (صوابه الزليجي) المتوفى سنة 902 هـ / 1496 م قال في المؤنس : إنّ اسمه كان باب خالد ، قلت : لعلّ خالد هذا هو السّلطان أبو البقا خالد بن أبي زكرياء الذي تولّى الملك في سنة 709 هـ / 1309 م. وهذا الظّنّ حملني عليه كون زاوية سيدي قاسم المجاورة لهذا الباب بها مقابر للحفصيين ، وما هو إلاّ مجرّد احتمال لا نجزم بصحّته.

20 ـ **باب الفلّة** : معروف . هو من بقايا العصر الحفصي في دور انحطاطه. قال في **المؤنس** : سمّي بذلك لأنّه كان ثلمة في السّور ،ولما دهم أهل تونس العدوّ من النّصارى (الأسبانيول) وفرّوا بأنفسهم ، خرجوا من هنالك خيفة أن تؤخذ عنهم الأبواب فخرج أكثرهم من هنالك ، فكان يقول بعضهم لبعض اخرجوا من الفلّة ، وهذا الاسم باق إلى اليوم اهـ.

21 ـ **باب سيدي عبد السلام** : معروف ، ولكن لم نقف (كذا) له على خبر يمكنّني من تحديد تاريخ إحداثه ولو على وجه التّقريب ، اللّهمّ إلاّ بطريقة الحدس والتّخمين ، وبهذا التّقدير يمكن الرّجوع به للعصر الحفصي من وجهين أوّلا انتساب الفسقية التي بقربه إلى اسمه (فسقية باب سيدي عبد السلام) وهذه الفسقية في أصلها من بقايا العصر الحفصي ، وثانيا لأنّ هذا الباب أحد الأبواب الثلاثة (والآخران هما باب سيدي قاسم المتقدّم ذكره وباب سيدي عبد الله الذي سيأتي ذكره) من مجموع أبواب تونس التي لم تمسّها يد التّغيير والتّرميم بحيث إنّها (أي الأبواب الثّلاثة المشار إليها) مازالت في حالة بنائها العربي التي هي عليه منذ قرون ، وهي متماثلة الوضع والشّكل والحجم ، ممّا يحمل على الجزم

22 - **باب سيدي عبد الله** : معروف ، وكان اسمه في القديم باب سيدي علي الزّواوي على ما ورد في كتاب المشرع الملكي، وزاوية سيدي علي الزّواوي مازالت موجودة داخل السّور قرب هذا الباب الذي كان منسوبا لصاحبها. قال في **المشرع المالكي** عند الكلام على جنازة المولى محمد الرشيد باي المتوفى عام 1172هـ / 1758 م : ودخلت جنازته من باب سيدي علي الزّواوي ودفنوه بتربة أبيه (زاوية سيدي قاسم السّبابطي) وأمّا سيدي عبد الله الملقّب بالشّريف فضريحه خارج هذا الباب المنسوب إليه في هذا الزّمان ، ويلوح أنّه من أهل الأجيال المتأخّرة ، لأنّ الباب المتحدّث عنه كان منسوبا لاسم غيره في أواخر القرن الثاني عشر كماتقدّم ذكره قريبا.

23 - **باب العسل** (9) : معروف ، واسمه مقتبس من اسم درب ابن عسّال وهذا الدّرب كان موجودا في العصر الحفصي ، لأنّهم كانوا يسمّون الأزقّة والشّوارع دروبافي زمنهم ، وأمّا الباب المتحدّث عنه فهو من محدثات هذا العصر ، وقع فتحه لنحو ثلاثين سنة ماضية ، ويروق لي ختم الكلام في هذا المقام بحديث باب العسل، لأنّه لا أحلى من الشّهد.

محمد بن الخوجة

(*) المرجع : كتاب « صفحات من تاريخ تونس » لمحمد بن الخوجة ، تحقيق الجيلاني بلحاج يحي وحمادي الساحلي - نشر دار الغرب الإسلامي - بيروت 1986 .

الهوامش

1) [المؤنس . ط 2. ص 8]

2) [المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، تأليف محمد الصغير بن يوسف] (مخطوط)

3) [لقد ازيل «التراموي» بعد الاستقلال وعوّض بحافلات الشركة القومية للنقل]

4) كان هذا الفاضل راهبا كبيرا بجزيرة ميورقة إحدى الجزائر الشرقية التابعة لإسبانيا، ثمّ وفد على تونس في أيام السّلطان أبي العبّاس أحمد بن محمد الحفصي، وأسلم على يده، وزوّجه بابنة الشيخ

الحاج محمّد الصفّار، وأولاه قيادة البحر، وهي خطّة شبيهة بخطّة مدير القمارق في هذا الزمان، وكتابه ترجم لبعض اللغات الاروپاوية، وقبره معروف بسوق السرّاجين بتونس.

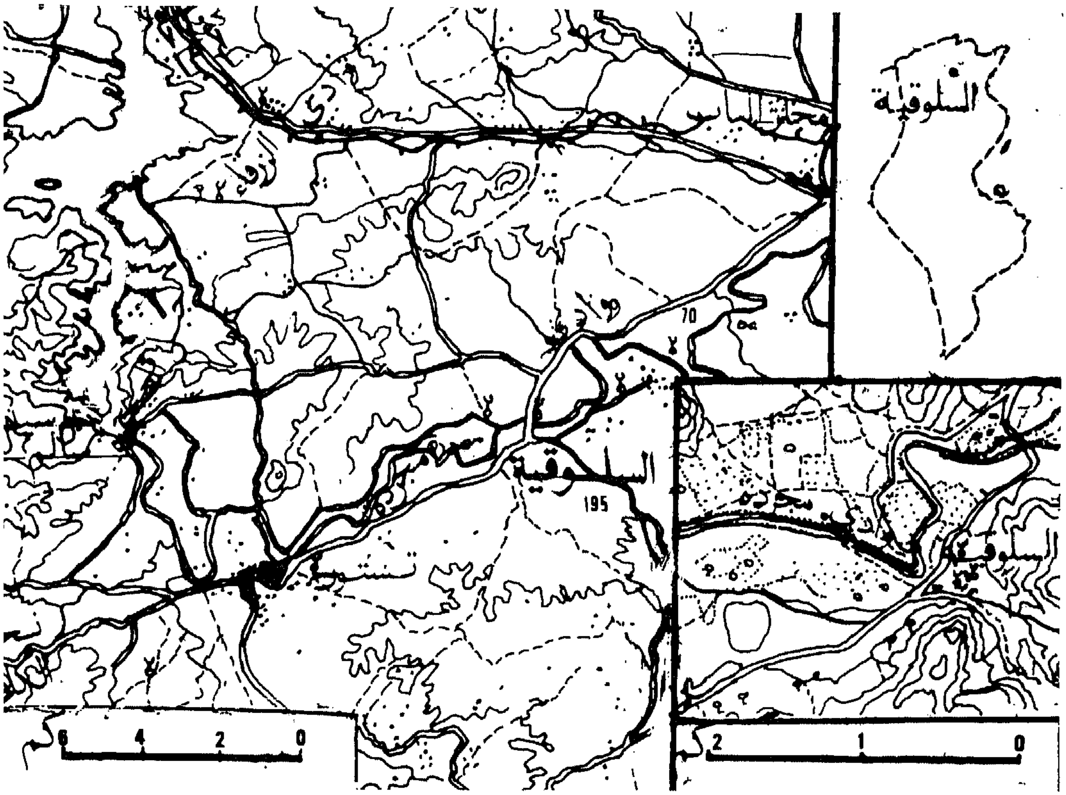
5) اشتبه على بعضهم هذا المؤلّف بأبيه، فنسب تأليفه للفقيه الشيخ أحمد بن محمد الشمّاع الهنتاتي التونسي، قاضي محلّة السلطان أبي فارس عبد العزيز الحفصي، والحقيقة أنّ المؤلّف لكتاب الادلّة **البيّنة النّورانية**، هو محمد بن أحمد بن محمد الخ، توفّي أبوه سنة 833 [1429 م] وأنهى ابنه تاريخه بحوادث سنة 839 [1435 م] ولذلك لزم التّنبيه.

6) ليون الافريقي، اسمه الأصلي الحسن بن محمّد الوزّان الغرناطي ثم الفاسي، ولد بغرناطة من أبوين مسلمين، وهاجر مع عائلته لفاس في حدود سنة 900 للهجرة الشريفة، [1494 م]؛ وبعد أن قرأ بها واستوفى نصاب تحصيله في العلوم، خرج للرّحلة فساح ببلاد السودان وبإفريقية الشمالية، ثمّ ارتحل للبلاد الآسياوية، فزار العراق، والفرس، وبلاد الأرمن، وجزيرة العرب، ومصر، والشام. وفي عام 923 [1517 م] سقط في أسر النّصارى مع المركب الذي كان يحمله على مقربة من جزيرة جربة، فأخذه القراصنة إلى رومة وقدّموه هدية للبابا ليون العاشر، فأكرمه وعرف له قدره وأعظمه وأجلّ مكانه، وما زال به حتى صار يدعوه إلى المسيحية، فتمسّح الحسن فيما يزعمون، واتّخذ له البابا اسمه ليون الافريقي، وهذا الاسم هو الذي بقي معروفا لعهدنا الحاضر. فهل تمسّح حقيقة هذا العالم المسلم الذي هجر بلاده فرارا بدينه، أو لم يتمسح ؟ وعلى تقدير تمسّحه، هل بقي متمسّحا إلى آخر عمره أو رجع لدين آبائه ؟ هذه مشكلة لا سبيل لحلّها ما دمنا لا نعرف من حياة هذا الرّجل إلا القليل، بيد أنا نقول إنّ بعض مشاهير المستشرقين يقول إنّ الحسن رجع إلى تونس بعد موت البابا ليون العاشر، وعاد مسلما كما كان، وهذا يحملني على الاعتقاد بأنّ تمسّحه حال وجوده برومة لم يكن إلاّ صوريا، لأنّ كتابه الذي وضعه في ثلاث مجلّدات في تاريخ بلاد الإسلام وأحوال المسلمين، لا يشعر بشيء ولو بطريق الإشارة يحط من قدر الاسلام. نعم إنّه قال عند وصفه لتونس أنه كان فيها من «يعمل الخبائث» أثناء زيارته لها، ولكن هذا القول لا يدلّ على أنه مروق من الدّين، لا سيما وأنّه كلام وافق حقيقة واقعية، لأنّي تتبعّت أخلاق وأحوال مدينة تونس في ذلك العصر، فوقفت على ما يفيد حقّا وأنّه كان يومئذ بتونس جماعة من المخنّثين نفاهم السّلطان لمكان سحيق : أمّا كتابه «وصف إفريقية» فإنّه ترجم للغات كثيرة زيادة على ترجمته بالفرنساوية، ويقال إنّ ترجمته الألمانية احتوت على تعاليق مفيدة جدّا وعلى مقدّمة تضمنت تاريخ حياة المؤلّف وذكر تأليفه، منها قاموس عربي عبري لاطيني، ومنها كتاب في تراجم مشاهير الإسلام، ومنها كتب في النحو والبلاغة وغير ذلك.

7) الامشاك ج مشك ، من اللغة التركية، وهو عبارة عن قربة كبيرة مخاطة من جلود الإبل كانوا يستعملونها في القديم لمصاحبة المحلّة في تنقّلاتها بالجهات المعطشة، ومن المحتمل القريب أنّ هاتيك الامشاك في عهد حكم الاتراك قامت مقام الدّنون والجرّات والقرب التي كانوا يستعملونها لتزويد أهل الحاضرة بمياه الآبار الواقعة خارج الأسوار، ومن تلك الآبار البئر النميرة التي كانت موجودة لدى باب السّقايين.

8) راجع الهامش 3 أعلاه

9) [أبواب مدينة تونس التي مازالت قائمة الذات إلى حدّ الآن هي : باب البحر، وباب الجديد، وباب سعدون ، وباب العسل، وباب الخضراء].



السلّوقية

تقع قرية **السلوقيّة** على بعد 70 كلم جنوب غربي تونس على وادي مجردة. وتدل الآثار المكتشفة بها ، فضلا عن المغمورة منها ، على قدمها في الحضارة ، إذ هي تعود إلى العهد الفينيقي من خلال ما يظن من اسمها كيدبيبا (CHIDIBBIA) المعروف في العهد الروماني والمحفوظ في ست نقائش مكتشفة في مكان البلدة وشاهدة على ارتقائها إلى مصاف البلديات بعد سنة 196 م في آخر عهد الامبراطور الروماني (Septime Sévère) ، أو في أول عهد خلفه (Gallien) [1]. ورغم قلّة النقائش المكتشفة فيها بسبب توظيف أغلبها في المباني الأندلسية، فإنّ ما عثر عليه يمثل هدايا المدينة إلى آلهتها المتعددة، ممّا يدلّ على ثراء حياتها الدينية في

العهد الروماني وإن كانت العبادة الرسميّة خاصة بالاله سيلفان (Silvanus) [2]. ومعروف أنّ هذا الاله الروماني المناسب للمجتمع الريفي، جاء معوّضا شكليا لعبادة البربر الشجرة المسكونة بالجنّ.وما زالت بعض بقايا كيديبيا من مواجل وقنوات ومنازل مرئية في أسفل القرية ، [3]

ومعلوم حسب أشهر الروايات أنه في انتظار بداية ق 17 م بقيت البلدة الرومانية مهجورة منذ تخريب الوندال لها وقضائهم على الازدهار الروماني في الفلاحة والعمران ، حيث أن البلدة لم تنج من الحروب والغارات بين القبائل الهلالية والبربرية في العهد الإسلامي الأول إبان استقرار جماعة البحريني بها فيما يروى، ولم تسترجع مجدها حقا إلاّ بفضل الحضور الأندلسي سنة 1609 م برعاية عثمان داي ، وعلى الأرجح في السنة الموالية لنهاية عهده ، أي سنة 1611 م تاريخ تهجير أندلسيي كاطالونيا.

وتعني تسمية السلوقية في العربية المناعة والحصانة والاشراف. فهي مشتقّة من مادة سلق التي يدلّ مزيدها **تَسلّقَ** على الارتفاع وصعوبة الارتقاء [4]. وهو المعنى المناسب لموقعها الذي اختاره الأندلسيون اقتداء بسابقيهم لضمان أمنهم من أهالي البلاد وخاصة من القبائل المتنقلة في الجهة ، وقد كانوا مسكونين بالخوف وانعدام الثقة في الغير.

وفي لسان العرب ، السّلَقُ : الواسع من الطرقات ، والمستوي من الأرض، والفلق المطمئن بين الربوتين ، ومسيل الماء بينهما، ومن الرياض ما استوى في أعالي ضفافها، وأرضها حرّة الطين. **وسَلُوق** : أرض وقرية باليمن، وهي بالرومية «**سَلَقِيَة**»، وقيل موضع بالروم، **والسّلوقي** من الكلاب والسيوف المنسوبة إليها أجودُها [5]. كذلك جاء في **معجم البلدان** [6].

وفي السلوقية، كما سنرى، عائلة السيف المتفرعة عن جماعة البحريني، هؤلاء الذين يدّعون النسبة إلى البحرين، ومنهم من أطلق اسم البحرين على منطقة بين السلوقية ومجاز الباب استوطنوها عند مجيئهم مع بني هلال وجاورهم بنو رياح. فلعلّ هذه العائلة الحاملة للسيف حقيقة أو مجازا أطلقت صفة السيوف الجيدة على مكان السلوقية لجودته وقد استوى حسب معنى السّلق المذكور. أو لعلّ قبيلة البحريني المنتسبة إلى الجزيرة العربية قد جاءت من سلوق التي في اليمن ولو

على مرحلتين ثانيتهما مع الزحف الهلالي ، وإن كانت بعض الروايات الشفويّة تشير إلى امكانية وجودصلة بين البحرينيين والوسلاتيين وجبل وسلات قبل قدومهم إلى السلوقية اثر إخلاء علي باشا للجبل سنة 1763 م.

ونقل **ياقوت** في تعريف **سلوقية** : « أن الوليد بن عبد الملك أقطع جند أنطاكية أرض السلوقية عند الساحل، وصيّر عليهم الفلْثَر، وهو بسيط من الأرض معلوم كالفدّان والجريب بدينار ومُدْي قمح ، فعمّروها، وجرى ذلك لهم وبنى حصن سلوقية » [7] . فما أشبه السلوقية التي على مجردة بالسلوقية التي عند ساحل البحر الأبيض المتوسط ! وما أشبه مكافأة الوليد لجند أنطاكية بصنيع عثمان داي مع المهاجرين حرّاس الثغور الأندلسية !

وفي مادة **سلوقية بملحق دوزي للمعاجم العربية** أنّها، حسب استعمال الغرناطيين سنة 1505 م ، جدار القلعة المائل المساند لأسوارها عند أبراجها [8] . وهي في **القاموس المحيط** مقعد الربّان من السفينة، يتسلق إليه للاشراف [9] . وهي في الدارجة الأرض السهل بين سفح الجبل والوادي ، وكل هذه المعاني تناسب موقع السلوقية على مجردة، مستندة إلى الربوة، منيعة، مشرفة . وهي أيضا سند لتستور [دامت 3 / 1992] ومستندة إليها في معاشها وأمنها. وسواء رجعت تسمية السلوقية إلى البحرينيين أو الهلاليين أو الأندلسيين، فإنّ المشهور اليوم أنها صفة الكلبة المرافقة لسيدي ابن عثمان الولي القادم من المغرب. وكم يزيد البحثَ التاريخي تعقيدا مثلُ هذا الخيال الصوفي !

وقد بادر أندلسيو السلوقية بتوسيع البلدة في اتجاه أعلى الربوة هروبا من فيضانات وادي مجردة وخططوا لها بإحكام على غرار رقعة الشطرنج وغطوا سقوفها بالقرميد الأندلسي المصنوع هناك. وأقاموا، بعد الجامع الأول الموجودة مئذنته بأسفل القرية في مستوى الأنهج الرومانية المبلطة ، جامعا كبيرا بأعلى الربوة، يتميز بتأثره بالفن الإسباني المدجّن الشبيه بمعمار الكنائس والمنتشر خاصة في جهة أرقون شمالي إسبانيا، وله سقف منحن في اتجاهين يكيّف بيت الصلاة وواجهة جميلة بنوافذها المسدسة الشبيهة بعجلة الكريطة [10] . ومن أشهر المعالم بالسلوقية ثلاث زوايا أندلسية المعمار تشهد بانتشار الطرق الصوفية وتعلّق الأهالي بالدين عموما. وتروى حولها حكايات شعبية متداولة تضيء جوانب من تاريخ البلدة الاجتماعي.

فإلى جانب زاوية سيدى ابن عثمان المذكور، كانت زاوية سيدي عبد القادر الجيلاني مقرا لإنشاد أوراد القادرية. أما زاوية سيدي خويلي، القادم من الجريد التونسي، والمرتبطة عائلته بحفظ القرآن وتحفيظه، فتدل على علاقة ماقامت زمن البايات بين السلطة المركزية بتونس وأهالي السلوقية . ومعروف أن هؤلاء قد عاشوا المد والجزر مع السلطة، ناهيك استقرارهم بأحباس يوسف داي شأن أندلسيي تستور ومجاز الباب وتبرسق (11) .

وتتواجد اليوم، إلى جانب عائلات خويلي والجبالي والجريدي والفطناسي القادمة من الجنوب، والولهازي من صخيرة تستور، والدريدي والطرابلسي الهلاليتين المنتشرتين في الجهة من قبل، والوسلاتي، والبحريني بفرعي سيف وسعيدان، بقايا العائلات الأندلسية مثل ابن عاشور وابن عمار وابن رمضان وزعفران والباهي والصغير والبنتيرو وساكنه والبتير وألكانتي ويكيل وشوشان ورباح والطويل...

وليس من الضروري التذكير ببراعة أندلسيي السلوقية في فن البستنة وحذقهم لطرق الري المتقدمة آنذاك وولعهم بالأشجار المثمرة والزعفران والأزهار غراسة وتقطيرا (12) ، فهذا ما تشترك فيه عامة القرى الأندلسية بالبلاد إلى جانب ما تميز به الأندلسيون من صناعات تقليدية وعادات في الاحتفال واللباس وأصناف من الأكلات والحلويات وأسلوب عيش أكثر تحضرا.

على أن أندلسيي السلوقية لم يطمئن عيشهم بسبب مظالم البايات وأطماعهم مما ذكرهم دائما بالاضطهاد الذي عانوه في أوطانهم الأولى. فهذا القس الإسباني فرانسيسكو خيماناث الذي أقام بتونس من سنة 1720 م إلى سنة 1735 م وزار السلوقية يوم 20 جويلية 1724 م يقول إن البلدة قد أمر الشريف باي بإخلائها لقطع المؤونة على الأعداء الجزائريين ، فمن الأهالي من انتقل إلى العاصمة ، ومنهم من اعتصم بقريته. ولذلك وجد القس الإسباني من تبقى من سكان السلوقية بصدد إعادة بناء المنازل الخاوية . وقد أثبت في ذلك الوقت خمسين ساكنا وبعض المساجد (13) .

ولعل تلك المظالم جعلت أندلسيي السلوقية لا يندمجون في البداية بسهولة مع الوافدين الجدد عليهم من جنوب البلاد وجبل وسلات والأرياف المجاورة حتى

أنهم أسّسوا صندوق الضعفاء لإعانة العوانس اللاتي رفض أولياؤهن تزويجهن لغير الأندلسيين حفاظا على أملاكهم وعلى نقاوة دمهم وتعاليا على العناصر الأخرى [14] .

ولا شك أن أصيلي ألكَانتْ شرقي الأندلس، كانوا يحافظون أول الأمر على تميزهم بعدة مظاهر من حياتهم كاللهجة البلنسية، ولم يتخلوا عن لغتهم وزيهم الإسبانيين إلاّ في مرحلة ثانية وبسبب تلك العناصر الدخيلة، وإن حافظوا على استقلالهم الداخلي إزاء السلطة بفضل شيخهم حامي مصالحهم . وقد كان سنة 1860 م حسن ساكنه شيخ الأندلسيين، والحاج علي بن محمد الشايب شيخ البحرينيين، إثر وفاة الحاج بوبكر بن حسن.

غير أن قرب السلوقية من تستور حكم عليها بالتبعية لها ، فرغم ارتفاع عدد سكانها سنة 1994 م إلى خمسة آلاف وحيوية تطورها العمراني واستقطابها لخمسة تجمعات سكنية محيطة بها، ظلت هذه البلدة الأصيلة مفتقرة إلى عديد الخدمات [15] .

الإحالات

(1) Atlas archéologique, Corpus VIII, p. 166, 937 Ephémeris V, p. 364 ;

C. LEPELLEY : Les cités de l'Afrique romaine au Bas-Empire, II, Paris 1981, p. 194 - 195 ; BEN HASSEN (H.), BEN ABDALLAH (Z.) : A propos de deux inscriptions d'époque sévérienne, recemment découvertes à Thignica et Chidibbia (Afrique proconsulaire), dans: L'Africa Romana, Atti del IX convegno di studio Nuoro, 13-15 dicembre 1991, Edizioni Gallizzi, Sassari 1992, p. 294 - 295.

(2) .B. H . H., B.A.Z. : A propos ....op. cit.

(3) الكعّاك (ع.) : بعض الجهات الأثرية بمعتمدية تستور. نشرية تستور ع 1. تونس 1968 ص 19 . 22.

(4) ابن منظور : لسان العرب. دار صادر ، بيروت 1990 ج 10 ص 163

(5) المرجع السابق

1990 ج 3 ص 274 ، حيث أضاف أن سلّيقة مدينة من مدائن الرّوم ، أعربت ، فقيل لها سلّوقية.

(7) ياقوت : ج. 3 ص 274 ، وكذلك ج 1 ص 319 ، وفي ص 316 ما يوحي بأن سلقية الشام منسوبة إلى سلوقس باني أنطاكيا سنة 305 ق. م

(8) DOZY (R.) : Supplément aux dictionnaires arabes, Leyde , E. J. Brill 1881. Art.: SLOUGUIA; BEN JAAFAR (E.): Les noms de lieux de Tunisie, Tunis 1985 , p. 57 -58.

(9) االزاوي (ط. أ.) : مختار القاموس. الدار العربية للكتاب ، تونس 1978 ص 307.

(10) PEYSSONNEL (J.A) : Relation d'un voyage sur les côtes de Barbarie fait par ordre du Roi en 1724 et 1725, Paris 1885, p. 168 ; GAFSI (A) : Monuments andalous de Tunisie, A.N.E.P., Tunis 1993, p. 52 -53 . SAADAOUI A. : Slouguia et sa grande mosquée in : Les Cahiers de Tunisie, N - 162 - 163 (1992 - 93) p. 119 - 136.

(لم نرجع إليه لصدوره متأخّرا في جانفي 95).

(11) HOPKINS (N.S.) : Notes sur l'histoire de Testour, dans : Zbiss : Etudes sur les morisques andalous, I.N.A.A. Tunis, 1983, p. 119-122.

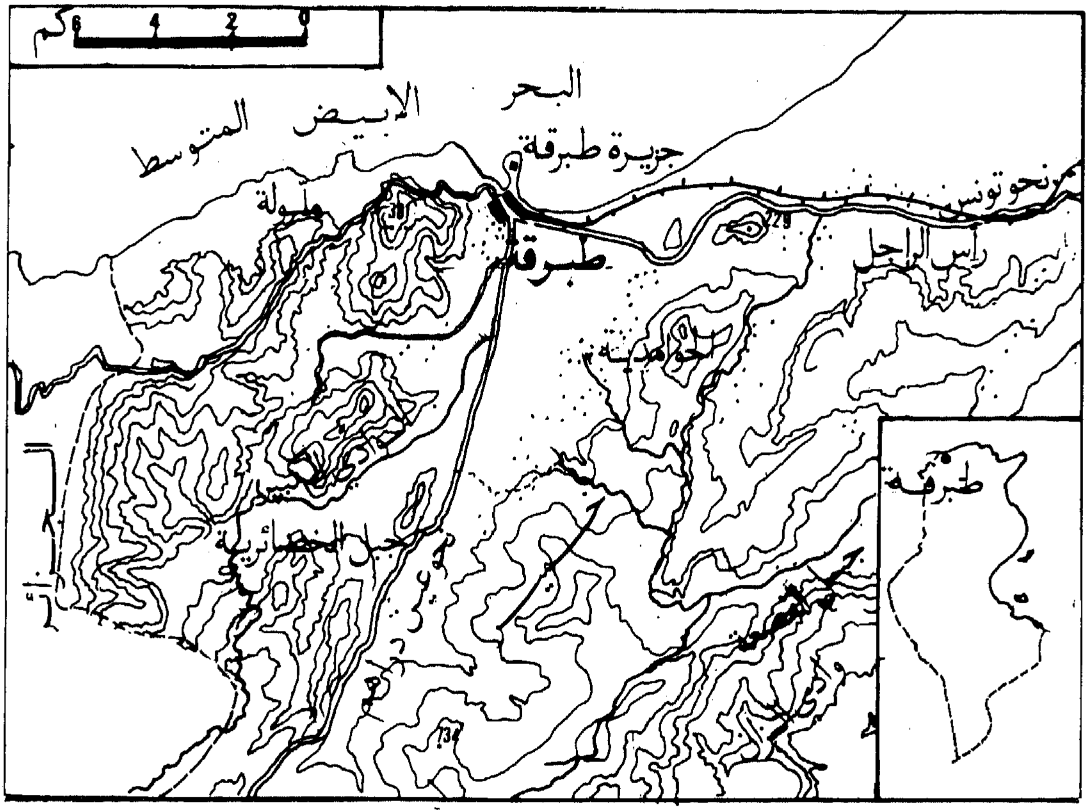
(12) KASSAB (A.) : Les basses terrasses de la Medjerda dans la plaine de Testour-Slouguia, dans:Revue Tunisienne des Sciences Sociales, n 21 (mai 1970) p. 119 - 155.

(13) DE EPALZA (M.) : Nouveaux documents sur les Andalous en Tunisie au début du XVIII siècle, dans : Zbiss : Etudes sur ...op. cit. p. 81 ; XIMENEZ (F.) : Colonia trinitaria de Tunez, Tétouan 1938, p. 44.

(14) LATHAM (J.D.) Contribution à l'étude des immigrations andalouses et leur place dans l'histoire de la Tunisie,dans: De Epalza: Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie.Madrid 1973, p.47-48 note 197.

(15) الحمروني (أ .) : السلوقية : ... الصباح الأسبوعي 13 / 4 / 1987 ص 4 .

أحمد الحمروني



طبرقة

تقع طبرقة في الشمال الغربي للجمهورية التّونسيّة (ولاية جندوبة) وتبعد عن تونس العاصمة حوالي 175 كلم. وهي مركز معتمديّة منذ السّنوات الأولى للاستقلال وهي أيضا بلديّة مضى على إحداثها حوالي مائة سنة. وتمتدّ المدينة على ضفاف خليج صغيريحميه نحو الغرب رأس طبرقة الذي يعتبر امتدادا طبيعيّا لكاف مقعد ويحدّه شرقا الوادي الكبير الذي اشتهر في النصوص اللاّتينيّة القديمة باسم التّوسكا Tusca (Pline, V, p. 205) وتتوسّطه جزيرة صخريّة كانت قبل ردم الممرّ الحالي بمثابة الحزام الذي يربط اليابسة بالبحر. وتعتبر طبرقة عاصمة خمير وهي منطقة جبليّة تحتوي على أهمّ الغابات التّونسيّة. هذه الأجمات التي تغنّى بها الشاعر اللاّتيني يونيوس يوفيناليس Junius Juvanelis توفّر

خاصّة أخشاب الزّان والخفّاف . كما أنّ تضاريسها الوعرة تجعل من طبرقة أيضا أهم متنفّس بحري لسهول مجردة العليا (سهول جندوبة - بلاريجيا) التي تعتبر منذ القديم أخصب أقاليم المغرب وتمتاز بوفرة إنتاجها من الحبوب والبقول.

المدينة النّوميديّة

إنّ خصوبة التربة وغزارة التساقطات وكذلك التحصينات الطبيعيّة ساعدت على استقرار الإنسان في هذه الأصقاع منذ عهد ما قبل التّاريخ حيث وقع الكشف عن عدّة محطّات أثريّة تعود إلى العصر الحجري الجديد (رقوية بلقاسم بن علي = العاطري Aterien، وشتاتة = الايبرو - موريسي Ibero maurusien) (M.Yacoub, p. 79 - 80) كما تمتاز الجهة بكثافة « الحوانيت » (عين زاقة، كاف البليدة وكاف العقاب) وهي قبور بربريّة منقورة في سفوح المرتفعات سبقت قدوم الفنيقيّن وتدلّ هندستها الشبيهة « بحوانيت » إطاليكا Italica بصقليّة أنّ سكّان طبرقة كانوا منذ العصر الحديدي على اتّصال بالجزيرة الكبرى وسردانيا. هذه العلاقات الضاربة في القدم مع أوروبا والتي تفسّر بموقع المدينة الجغرافي سوف تتدّعم فيما بعد وتؤثر بصفة عميقة في تاريخ المدينة والحضارات العديدة التي تعاقبت عليها .

عدّة نقائش لاتينيّة عثر عليها على حافتي الجادّة التي كانت تربط في العصر الرّوماني طبرقة بشمتو Simitthu تدلّ على أنّ المدينة الحالية وريثة مدينة تبركا Thabraca (C.I.L., VIII, 21199, 2201 - 2203 ; I.L.Alg., I, 109 ; A. E., 1959, 77 ; J. Guey et A. Pernette, p. 81-88 ; J. M. Lassère, p. 200-204, 213 - 214 ; M. Langerstay, 1993, p. 113 ; C. Leppeley, II, p. 170 - 171) وهي لفظة نوميديّة ربّما يكون معناها المنطقة التي تحفّ بها « الشّعراء » الأهلة بالحيوانات البريّة. وكانت قبل تخريب قرطاج وحرقها (146 ق. م) تنتمي إلى المملكة النّوميديّة المستقلّة وأصبح منذ تلك السّنة يفصلها عن مقاطعة أفريكا Africae وادي التّوسكا الذي كان يشكّل نقطة الانطلاق للحفير الحدودي المحصّن (الفوسيا ريجيا Fossa - regia) الذي أحدثه شبيون الأصغر Spicion Emilien . هذا الموقع الاستراتيجي بوّأها لتلعب دورا هامّا ضمن المنظومة الدّفاعيّة التي وضعها مسينيسا غداة معركة جامة Zama (202 ق. م) ممّا جعل الجغرافي اللاّتيني بلينوس الأكبر Pline l'ancien الذي يمكن إرجاع مصادره إلى فترة أكتافينوس أغسطس Octavinus Agustus (27-44 ق.م) ينعتها بالأوبيدوم Oppidum Civium romanorum (Pline , V, p.204-205) وهي صفة غالبا ما كانت تطلق على المواقع العمرانية المحصّنة. كما أنّ طبرقة علاوة على هذا الدّور العسكري كانت تعتبر

منذ ذلك العهد الميناء الطّبيعي لمدينة بلاّريجيا Bulla Regia ثالث العواصم الملكيّة النّوميديّة وأحد أهمّ مراكز إنتاج القموح وكذلك لمدينة شمتو الحصينة التي اشتهرت منذ القرن الخامس قبل الميلاد بمقاطع الرّخام الورديّ والأصفر المعروف في كلّ العالم القديم باسم المرمر النوميدي marmar numidicum (Pline, V, p. 206 ; M. Gaggiotto, p. 205-213 ; M.Khannousi, p.322) بيد أنّه رغم هذه الأهميّة العسكريّة والاقتصادية فإنّ النّصوص القديمة لا تذكر « تبركا » بصحيح العبارة إلاّ منذ القرن الثالث قبل الميلاد (Polybe, XII, 1, 4) ويتزامن ذلك مع الفترة التي بدأ فيها مسينيسا يشكّل إمبراطوريّة ضخمة على حساب الممتلكات القرطاجيّة. على أنّنا نرجّح أنّ تأسيس المدينة يرجع إلى القرن السّابع أو السّادس قبل الميلاد أي الحقبة التي تدعّمت فيها الاتّصالات البحريّة بين السّاحل الافريقي وجزرسردانيا وصقليّة .هذه العلاقات تؤكدها التأثيرات اليونانيّة التي تميّز رسوم « حوانيت » كاف البليدة وعين زاقة كما أنّ الجغرافي اليوناني سيلاكس الذي يمكن إرجاع مصادره إلى هذه الفترة يذكر مدينة مجهّزة بميناء تقع بين هيبو Hippo (بنزرت) ورأس سكيكدة، قبالة جزيرة صخريّة سمّاها « مدينة القردة Pithêcousai (Periple du Pseudo Scylax, III, p. 90 ; M. Langerstay, 1988, p. 222) هذا الموقع يناسب دون أدنى شك مكان تبركا التي أكّد يونيوس يوفيناليس أنّ غاباتها كانت تعجّ بالقردة (Satires, x, p. 194-195).

تبركا الرّومانيّة والبيزنطية

موقع المدينة المتّصل بالطريق البحريّة العتيقة الرّابطة بين قلطا Galata (جالطة) وكراليس Caralıs (Cagliari) (Itineraire maritime, I, p. 82 ; M. Langerstay, 1993, p. 119) ووفرة إنتاجها من الحبوب والمعادن والخشب، جعلا طبرقة تلعب دورا أساسيا إبّان الحرب الأهليّة التي مزّقت صفوف الرّومان في عهد يوليوس قيصر إذ استقرّ بها زميله في الحكم الثلاثي أمليوس لبيدوس Aemelius Lepidus (36-40 ق.م) الذي كان يشرف بصفة خاصّة على تجهيز الاسطول الامبراطوري . ويبدو أنّ هذا القائد الذي أحدث بها دار صناعة لبناء الشواني الحربيّة هو نفسه الذي رفعها إلى رتبة المستعمرات الرّومانية Colonia V.P. Vlia Thabracenorumi ، دون أن ننفي إمكانيّة حدوث ذلك في عهد اكتافينوس (S. Gsell, VIII, p. 169-170 ; J. Guey et A. Pernette, p. 85-87 ; L. Teutsh, p. 162-163, 204, 213-214 ; C. Lepelley, II, p. 170-171 ; J. Gascou, p. 23-24 ; J.M. Lassère, p. 200-204 ; M. Langerstay, 1993, p. 113 ; M. Khannousi, p. 322) إذ

أنّه إلى جانب النقائش التي تذكر وجود مجلس بلدي بتبركا منذ سنة 37 ق. م فإنّ العديد من شواهد القبور تؤكّد أنّ المستعمرة كانت تنتمي إلى قبيلة الأرننسيس *Arnensis* أي قبيلة يوليوس قيصر التي ألحقت بها أغلب المستعمرات القيصريّة (قرطاج Karthago ، أوذنة Uthina ، قليبية Clipea-Aspis ، قربة Curubus) (J.M. Gascou, p. 21 ; J.M. Lassère, p. 213 - 214 ; N. Ferchioui, p. 49 ; M. Langerstay, 1993, p. 113). أوّليّة هذا التشريف تؤكّد سرعة رومنة هذه المدينة النوميديّة ويمكن الاستشهاد على ما ذهبنا إليه بعدّة لقى أثريّة أهمّها النصب التّذكاري الذي أهداه سكّان تبركا لزوجة فتراسيوس أوكوس Vitrasius Aequus ابن حاكم أفريكا (Proconsul) سنة 138-137 م . و الذي وضع - تأكيدا لهذه العلاقات القديمة مع إيطاليا - وسط السّاحة العموميّة لمدينة كالس (Calvi Risorta) (G. Di Vita-Evrard, p. 157-153 ; M. Langerstay, 1993, p. 115) و يمكن أيضا أن نذكر في هذا الإطار شاهد القبر الذي وقع الكشف عنه داخل الدّواميس اليهوديّة لفيلا تورلينا Villa Torlina والذي يخلّد ذكرى أحد سكّان تبركا : مكسيموس تبرسينوس Maximos Thabraci-nos وهو ما يؤكّد إضافة إلى ذلك وجود مجموعة يهوديّة محليّة منظّمة احترفت تصدير الرّخام نحو روما وغيرها من المناطق الأوروبيّة (A.E, 1976, 81 ; U.M. Fasola p. 22-23 ; Y. Le Bohec, p. 177 ; M.Langerstay, 1993, p. 115) . وقد يرتبط حفل التلمود الذي ما زال الأهالي يخصّصونه للوليّ الصّالح سيدي موسى بأهميّة هذه الجالية التي استقرّت بطبرقة منذ بداية العهد الرّوماني.

المصادر والنقائش اللاّتينيّة تشير إلى أن فيلقا من الجيش الأغسطي الثالث IIIe Legia Augusta كان يرابط بصفة دائمة بهذه المنطقة منذ بداية العهد الامبراطوري. وقد أوكلت إليه خاصّة مهمّة حماية الضّيعات الفلاحيّة الشاسعة التي اقتطعها حكّام روما في إقليم السهول الكبرى Campi Magni وهضاب خمير. ويؤكّد العناية الخاصّة التي كان هؤلاء يولونها لمتلكاتهم في هذه المنطقة المرسوم الذي أرسله الامبراطور كمّودوس Commodus (180 - 192 م) لمزارعي ضيعة السلتوس برنيتانوس Saltus Burinitanus لحمايتهم من تعسّف الوكلاء Conductores (R. Cagnat, p. 141-143 ; Ch. Diehl , p. 211, 297 ; D. Pringle, I, p. 230-231 ; M. Khannousi, p. 322-323) إلى جانب هذا الوجود العسكري، عمل القياصرة على تجهيز الجهة بشبكة من الطرقات المعبّدة تهدف إلى تسهيل عمليّة نقل المنتجات الزّراعيّة نحو مرفأ طبرقة، أهمّها الجادّة التي كانت تربط المدينة بفاقا Vaga (باجة) مرورا بالوادي المالح وقلعة عين زاقة (P. Salama, p. 44 - 45 - 60 ; M. Langerstay, 1993, p. 117) .

يعتبر تصدير رخام شمتو نحو روما من الأنشطة الرئيسيّة التي اختصّت بها طبرقة (J.M. Lassère, 1980, p. 60 ; J. Ward-Perkins, p. 705 ; M. Khannousi, p. 322 ; M. Langerstay, 1993, p. 117 - 120 ; H. G. Horn, p. 178 ; F. Rakob, p. 120 ; Ch. Dubois, p. 39 - 45 ; M. Gaggioti, p. 205) كما أنّ بقايا حمولة سفينة عثر عليها في عرض مدينة كمرينا Camarina (شمال شرق صقليّة) لا تدع مجالا للشك في أنّ منتوجات هذه المقاطع الملكيّة كانت تباع أيضا في بلاد الاغريق، خاصّة وأنّنا نعرف عن طريق مصادر أخرى أن أحد حمامات أثينا شيّد في عهد الامبراطور هدريانوس Hadrianus (117 - 138 م) بواسطة أعمدة جلبت من شمتو (H. G. Horn, p. 178 ; M. Gagiotti, p. 205 ; Langerstay 1993 ; p. 119). و يبدو أنّ التجّار المتعاطين لهذا النّشاط كانوا منظّمين داخل مجموعات مهنيّة قويّة. وقد دلّتنا إحدى لوحات الفسيفساء المسيحيّة التي عثر عليها داخل « البزيليكا الوسطى » - والتي تتوسّطها سفينة شحن - على اسم أحد افرادها : فليكس Felix (L. de la Blanchère et P. Gauckler, 1897, n.66 ; C. Leppeley, II, p. 171). على أنّه يبدو أنّ أفراد الجالية اليهوديّة كانوا يسيطرون على هذه التّجارة خاصّة وأنّهم كانوا يوجدون بأعداد هامّة (حتى القرن الرّابع الميلادي) في شمتو ذاتها، مثلما أكّد ذلك القدّيس أغسطينوس(P. Monceaux, p. 163-167 ; J.M. Lassère, 1977, p. 414 ; Y. Le Bohec, p. 177) . ويتم نقل هذه البضاعة الثقيلة عبر الجادّة الرّابطة بين طبرقة وشمتو والتي اشتهرت باسم « طريق الرّخام » . وقد كان أمر بإحداثها الامبراطور هدريانوس سنة 129 م وأعاد ترميمها قسطنتنوس Constantinus في القرن الرّابع (P.Salama, p. 44, 72, 73 ; M. Gagiotti, p. 205 ; F. Rakob, p. 705 ; M. Langerstay, 1993, p. 116-117).

لم يكن نشاط ملاّحي طبرقة وتجّارها يتوقّف على تصدير الحبوب والرّخام بل كانوا أيضا يزوّدون أسواق روما بالزّيوت المحليّة (التي توفّرها معاصر المدينة ونفزة وسجنان والتي مازالت آثارها قائمة إلى اليوم) وكذلك معادن الرّصاص والنّحاس (المستخرجة من مناجم نفزة، باجة وبلاّريجيا) (H. Camps - Faber, p. 25, 76 ; J.M. Lassère, 1977, p. 379 ; S. Gsell, 1928, p. 1 - 21 ; J. Toutain, 1891, p. 185 - 187 ; M. Langerstay, 1993, p. 123 - 124). كما أنّ غابات خمير كانت تزوّد إيطاليا بالأخشاب الجيّدة والحيوانات البريّة (أسود - نمور : Fera Africanae) التي كانت تستعمل في ملاعب روما وغيرها من المدن الأوروبيّة . وقد كانت تنتقل بحرا داخل أقفاص صنعت خصّيصا لهذا الغرض (S. Gsell, 1914, I, p. 109, 102 ; M. Leglay, 1982, p. 105 - 107 ; M. Langerstay, 1993, p. 124).

التطوّر الاقتصادي الذي بلغ أوجه في القرن الثالث واتصال المدينة بالعديد من المحطّات البحريّة الأوربيّة جعلا طبرقة تستقطب عددا هامّا من التّجار والصيّارفة والحرفيّن الذين توافدوا عليها من مختلف أصقاع الامبراطوريّة الرّومانيّة (ايطاليون ، بربر ، يهود ، سوريون). كما أنّ بعض النقائش اليونانيّة تؤكّد وجود جالية أصيلة مدينة لارمنزا Larmanza اختصّت بتزويد أسواق أسيا الصغرى بالرّخام (J.M. Lassère, 1977, p. 378 ; M. Langerstay, 1993, p. 117). كلّ هذه العوامل جعلت المدينة لا تعرف الرّكود الاقتصادي الذي شهدته أغلب مناطق شمال افريقيا في القرن الرّابع ودفعت الكونت جلدون Gildon إلى اتّخاذها قاعدة لدولته المستقلّة . وقد قامت خطّة هذا القائد البربري الذي تمرّد على روما (395 - 398 م) على تعطيل تزويد المدينة الخالدة بالقموح ممّا جعل المجاعة تعمّ بها. على أنّ حملة الاضطهاد التي تزامنت مع مرور الامبراطور هنوريوس Honorius الذي نجح في إخماد هذا العصيان تحمل في طيّاتها بداية فترة طويلة من الرّكود . من جهة أخرى وجود مجموعات إغريقيّة ويهوديّة هامّة جعل الدّيانة المسيحيّة القادمة من المشرق تنتشر بطبرقة قبل غيرها من مدائن شمال إفريقيا. وممّا يؤكّد ذلك أنّه كان يشرف عليها منذ منصف القرن الثالث أسقف خاص (فكتوركوس Victoricus) شارك في أعمال المجمع الذي ترأسه كبريانوس Cyprianus بقرطاج سنة 256 م (M. Langerstay, 1988, p. 224) . كما تعدّدت منذ ذلك العهد المعابد المسيحية بطبرقة وساهمت هذه الحركيّة المعماريّة في ميلاد مدرسة فسيفساء محلية تواصل نشاطها طيلة ثلاثة قرون (J. Toutain, 1892, p. 187-188; R. de la Blanchère, 1897; M. Yacoub, p. 21-23) .

التوســع العمــرانــي

مهد المدينة النّوميديّة كان بدون شكّ هضبة البرج الجديد الحصينة. وقد كشفت الحفريات التي أجريت في أسفلها عن وجود قطع من الخزف الإيطالي (Campa-nienne A) تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد يبد و أنّها من مخلّفات مقبرةالمدينة الأوليّة . كما مكّنتنا الحفريات التي أجريت سنة 1982 حذو المتحف الحالي (البازيليكا العليا) من العثور على بعض أجزاء الشارع الرّئيسي المبلّط decumanus الذي كان يصل النّواة القديمة بالسّاحة العموميّة forum الرّومانيّة التي توجد في المنطقة الفاصلة بين الحمّامات الكبرى و«البازيليكا الوسطى » . وقد عثر في هذه المنطقة على نقيشة مهداة إلى جويتير Jupiter إلاه ثلاثية الكابيتول الرّوماني الذي

عادة ما يوجد حذو هذه الرحبة الوسطى المحدّدة لتخطيط المدينة التي أصبحت منذ القرن الثالث تغطي كلّ مساحة طبرقة الحاليّة (M. Langerstay, 1988, p. 227).
على أنّه بداية من سنة 439 م احتل الوندال البلاد التّونسيّة فهزموا الرّومان وأطردوهم منها وكانت عاصمة خمير أوّل ضحايا هذه الشعوب المتبربرة التي اجتاحت شمال إفريقيا انطلاقا من طنجة بعد أنّ قام القوط بطردها من إسبانيا. وتدلّ الحفريات الأثريّة على أنّ العديد من المعالم المسيحيّة الهامّة مثل كنيسة الشهداء (Chapelle des martyrs) خربت إبّان هذه الحملة (M. Langerstay, 1988, p. 232 - 240)، كما أنّ المدينة التي كانت أطرافها تمتدّ إلى ساحل البحر تحوّلت إلى تجمّع عمراني صغير طوّقه البيزنطيون في القرن السّادس بسور حجري مازالت بعض رسومه قائمة إلى اليوم (C. Reboa, p.122 - 133 ; M. Langerstay, 1988, p. 237 - 240) . وبناء هذا الاستحكام الجديد يدلّ على المكانة العسكريّة التي حظيت بها طبرقة رغم تراجعها العمراني والاقتصادي . وقد مكّنت حفريات 1924 من العثور على نقيشة برونزية تؤكد أنّها أصبحت منذ ذلك العهد مركزا للبريد الرسمي و مستودعا للذّخيرة (J. Toutain , 1892, p. 188 - 190 ; M. Langerstay, 1988, p. 237 - 240) .

الميناء الفنيقي لم يكن في حقيقة الأمر إلاّ المضيق الفاصل بين الجزيرة واليابسة. وقد عمل الرّومان عل حمايته بصقالتين (نحو الشرق والغرب) وتجهيزه بدار صناعة وأهراء ضخمة (ما زالت بعض أنقاضها قائمة) لخزن الحبوب والزّيوت والرّخام (J. Toutain, 1892, p. 188 - 190 ; M. Langerstay, 1993, p. 119). هذا المرفأ الذي وقع استغلاله طيلة الفترة الإسلاميّة الأولى لا يصلح إلاّ لإيواء السّفن الطّويلة في حين أنّ المراكب الشّراعية المدوّرة Vaisseaux ronds التي تتطلّب وجود مياه أعمق كانت مجبرة على الاحتماء داخل خليج صغير يوجد شرق الجزيرة جهّزه الجنويون بداية من القرن السادس عشر بصقالتين. وقد وقع استعمال هذه التجهيزات الجديدة طيلة الفترة الحسينيّة لتصريف أخشاب خمير نحو ترسخانات حلق الوادي وغار الملح (N. Djelloul , 1995, I p. 180).

مدينة طبرقة وضواحيها مازالت أيضا تزخر بآثار التجهيزات المائية التي أحدثها الرّومان وأهمّها الخزّانات الضّخمة التي وقع تحويلها فيما بعد إلى كنيسة وحصن (المتحف وبرج مسعودي). ويقع تزويد هذه الشّبكة المائيّة بواسطة حنايا ت تصلها بعدّة عيون تقع على بعد كيلو مترين شرقيّ المدينة، هي نفسها التي توفّر

المياه للحمّام القديم (تحوّل إلى مقهى فيما بعد « café maure ») والحمّام العمومي الضخم (ق . 2 م) الذي مازالت توجد بعض آثاره وسط حديقة 18 جانفي (الكسكاس) (J. Toutain , 1892, p. 184 -187; M. Langerstay, 1988, p. 221) تمتاز طبرقة أيضا بوفرة الكنائس وأهمّها كنيسة الشهداء (ق 4 . 7 م) التي تتوسّط السّفح الجنوبي - الشرقي لهضبة برج الجديد. ويتكوّن المعبد من بناية طوليّة (19 م x 15 م) متكوّنة من ثلاث بلاطات تحتوي على العديد من مقابر الرّاهبات ورجال الدين الذين أعدموا في العهد الوندالي. أمّا المعلم الثّاني فيتمثّل في « البازيليكيا الوسطى » (ق 4 - 5 م) التي وقع إزاحة النّقاب عنها خلال حفريات 1882 - 1918 (M. Langerstay, 1988, p. 230 ; M. Yacoub, p. 21 - 23) .

المجموعة الضخمة من لوحات الفسيفساء التي عثر عليها داخل هذه الكنائس وكذلك لقى المنزل الرّيفيّ الفخم المعروف بفيلا ڤودمي Villa Godmet (ق - 4 م) يعتبران من أهمّ مخلّفات الفترة المسيحيّة بالبلاد التّونسيّة (K. Dunbabin, 1978, p. 122 - 123, 194).

المدينة الإسلاميّة

لاقى العرب صعوبات جمّة للاستيلاء على طبرقة التي كانت آخر معاقل الكاهنة قبل أن تلقي بنفسها، أمام تقدّم جيوش حسّان بن النعمان، في بئر (مازال يحمل اسم « بئر الكاهنة) يوجد قرب ضريح سيدي عمر، غير بعيد عن الوادي الكبير الذي أصبح بدوره ينعت بوادي البربر (المالكي، I، ص. 55، الوزّان، II، ص. 253). ولكن بمجرّد انتهاء هذه الفتنة اتّخذ الفاتحون الجدد من هذه المدينة قاعدة لانطلاق الحملات البريّة والبحريّة الموجّهة نحو المغرب الأقصى وجزر المتوسّط. كما أنّها أصبحت منذ ذلك العهد مركزا لكورة ذات صبغة عسكريّة تشمل مدن درنة (سيدي مشرق)، بلطة، مرسى الخزر (القالة)، عندة (رأس الأبيض)، خولان، مدينة الانصاريّين وبُلّ (بلاّريجيا). كما عمل الأغالبة على تجهيزها بدار صناعة جديدة، بعد المحاولة الفاشلة التي أقدم عليها عبد الرّحمان بن حبيب الفهري لتكوين إمارة مستقلّة تكون عاصمة خمير قاعدة لها (O. Saidi, p. 130 - 131).

ويعتبر القرن العاشر فترة انتعاش قصوى للمدينة الاسلاميّة إذ أنّ العبيديّين، إضافة إلى تدعيم دورها العسكري، أعادوا تنشيط تجارتها وجعلوا من مرفئها أهم مركز لتبادل البضائع المشرقيّة والأندلسيّة (الاصطخري، ص . 38، ابن

حوقل، ص . 74 - 75، البكري ، ص 57، المقدسي، ص 4 - 5، الإدريسي، ص. 115 ؛ هادي روجي ادريس، ص. 40) وذكر ابن حوقل « أن طبرقة هي عدوة أهل الأندلس إليها ينتهون ومنها إلى الأندلس يركبون وهي مع صغر مقدارها وتفه منزلتها فإنّما اشتهرت لكثرة ورود المراكب بالأندلسيين والتجّار عليها ونزولهم فيها و تعشيرهم كان في سالف الزّمان بها . وهي تجاه أوائل الأندلس من المكان الذي به وتحاذي أيضا بعض بلادفرنجة » (ابن حوقل، ص . 74 - 75). وكانت مدينة تنّس تمثّل القاعدة الأساسيّة للملاحة الأندلسيّة التي تفضي في النّهاية إلى طبرقة. وقد كان التجّار الأندلسيون يصدّرون المرجان من القالة والصّوف من عنّابة والعسل من الجزائر، و كانت تستهويهم بالخصوص المواد المشرقيّة المربحةجداً (هادي روجي إدريس، II، ص 293، O. Saïdi, 1980, p. 134) . ومن هنا ظهرت في أوائل العصر الفاطمي أهميّة طبرقة التي كانت تقوم، بفضل موقعها الجغرافي، بدور الوساطة بين تجارتي الغرب والشرق الاسلامي. على أنّ هذا الميناء كانت تزاحمه بشدّة المراكز البحريّة الجديدة التي طوّرها الفاطميون غرب قلاع بنزرت مثل مرسى الخزر، درنة وعندة. وممّا زاد الطين بلّة تطوّر النّزاعات بين خلفاء المغرب وبني أميّة منذ منتصف القرن العاشر وهو ما جعل طبرقة تستهدف عدّة مرّات، خاصّة سنتي 955 م و 956 م، لغارات الأسطول الاسباني (F. Dachraoui, 1981, p. 227) . ومع حلول القرن الحادي عشر لم يعد لعاصمة خمير إلاّ دور عسكري وتجاري ثانوي وقد ساهم في تدعيم هذا التقهقر تصدّع الدّولة الزّيريّة (إذ عمل بنو حمّاد على تحويل وجهة التّجارة الإيبيريّة نحو بجاية) واستقرار بني هلال بضواحيها. وقد أقدم أولئك الأعراب الرّحل على تخريب البوادي المزدهرة التي كان ثراؤها متوقّفا على ثراء السّوق البحريّة . وهكذا أصبحت المدينة النّوميديّة التي تغنّى بجمالها يوفيناليس « قرية وبئة بها عقارب قاتلة » (الاصطخري، ص. 38، ابن حوقل، ص. 74، الادريسي، ص . 115).

إضافة إلى بني هلال، فموقع المتّصل بالمسالك البحريّة الأوربيّة جعلها منذ القرن الثّاني عشر محلّ أطماع الجمهوريات الإيطاليّة. فمن سنة 1134 م أغار عليها أسطول بيزا ونهبها. ومنذ سنة 1140 تحصّلت هذه المدينة على حقّ صيد المرجان على طول الشريط السّاحليّ الممتدّ من رأس المنشار إلى عنّابة لكن الإنتاج كان يصدّر خاصّة عن طريق ميناء تونس (O. Saïdi, p. 135 -136) ممّا يدل على تدهور التجهيزات البحريّة للمدينة التي سوف تنقرض بصفة نهائية منذ القرن السّادس عشر. وقد اكتفى الأتراك طيلة العصر الحديث بتشييد حصنين (برج مسعودي

وبرج الجديد) أوكل لهما دور مراقبة القرية الجديدة التي أحدثها الجنويّون سنة 1542 م بالجزيرة . أمّا « تبركا» السّاحلية فلن تعود للوجود إلاّ بداية من 1881.

إنّ الوثائق المتعلّقة بطبرقة في العصر الوسيط نادرة جدّا خاصّة وأنّها لم تحتفظ بأي معلم مدني يعود إلى هذه الحقبة . وحسب المقدسي (ق. 10 م) الذي أكّد على « خراب قصبتها » كان سكّان المدينة يسكنون أحد أرباضها ويشربون مياه الآبار (المقدّسي، ص 4-5) القصبة هي بدون شكّ المنطقة العليا من تبركا الرّومانيّة والتي احتفظت بأطلالها في عصر البكري حيث ذكر أنّها قريبة من مصبّ واد (وادي عمر) تدخله السّفن حتّى باب المدينة (البكري ، ص . 57) وهي نفسها الرّبض الذي تحدّث عنه المقدسي سابقا. هذه الرّوايات رغم عدم دقّتها تثبت أنّ طبرقة الإسلاميّة كانت امتدادا لتبركا البيزنطيّة وأنّ العرب اكتفوا بترميم سورها وتجهيزاتها البحريّة وربّما قاموا بتحويل بعض مواجلها (التي وقع الاستغناء عنها حسب المقدسي) إلى مسجد إذ أنّ خزّان المتحف كان ينعت أيضا « بالجامع القديم ». و تؤكّد عمارة الجزء الحفصي لبرج مسعودي ماذهبنا إليه إذ يتكوّن من برج طوليّ مجهّز بباب مرتفع عادة ما نجده بكلّ الاستحكامات المنفردة. وقد شيّد في عهد السلطان أبي فارس (ق. 15 م) لمراقبة حركة السّفن القطلانيّة وحماية الخزّان الرّوماني الذي حوّل بدوره إلى حصن حوالي سنة 1668م (N. Djelloul, 1995, I, p. 170). أمّا البرج الجديد الذي يشرف على المدينة والميناء فيعود إحداثه إلى فترة علي باشا (1741 م) . ويشكّل المعلم بناية طوليّة تدعّمها أبراج (بستيونات) دائريّة بنيت بواسطة الطّابية وهي تقنية انتشرت بالبلاد التّونسيّة بداية من منتصف القرن الثامن عشر (N. Djelloul, 1995, I, p. 240).

القرية الجنويّة

خلافا للنوميديّن اختار الفنيقيون الاستقرار بجزيرة طبرقة الحصينة حيث أسسوا (حوالي ق . 7 . ق. م) مصرف أويوا Euboia الذي يبدو أنّه انقرض بداية من الاحتلال الرّوماني . على أنّ الحياة سوف تدبّ من جديد على أرض هذه « الصخرة المنفصلة عن اليابسة بعد رمي بندقيّة » لمّا تسلّمها شارل الخامس ملك إسبانيا مقابل إفراجه عن درغوث رايس أسيره في 1540 وسلّمها خليفته بصقليّة إلى شركة جنوية (عائلتي ڤريما لدي و لوميلّيني Grimaldi - Lomellini) بموجب اتفاقيّة 1520 (توفيق البشروش، 1992، ص. 112 ؛ S. Boubaker, 1993, p. 22 -23) . وقد

سارعت هذه الشركة التي تحصلّت على احتكار صيد المرجان بالمنطقة بإقامة قرية محصّنة تتّسع لألفي ساكن مجهّزة بمرفأين ودار صناعة أوكلت حمايتها وتعهّد استحكاماتها للعامل الإسباني مقابل «لزمة سنويّة» قدّرت بعشر المحصول. ومنذ سنة 1695 أصبحت عائلة لومليني المالك الفعلي للجزيرة مقابل دفع 4000 قطعة ذهبيّة إلى باشا تونس و 2000 لباشا الجزائر وتعهّد حامية برج مسعودي التّي تراقب القرية .

المعاهدات المبرمة بين الملك الإسباني والشركة الجنويّة تؤكّد أنّ القرية تأسّست لأجل صيد المرجان لا غير . إلاّ أنّ الطرف الايطالي اغتنم فرصة تفاقم الأزمة الغذائيّة في أوربّا في بداية القرن السّابع عشر وحوّل الجزيرة إلي مركز لتصدير منتجات الفضاء الخلفي الزّراعيّة خاصّة الحبوب والحمص والفول والمواشي . وقد أصبحت هذه التّجارة تنافس بشدّة الشركات التي أسّستها فرنسا لنفس الغرض برأس تامكرت (النيقرو Cap Nègre) والقالة والرّأس الأشقر Cap Roux والبستيون Bastion de France ممّا دفعها إلى محاولة الاستيلاء على الجزيرة خاصّة سنة 1638 و 1731 م . و تنامي التهديدات الفرنسيّة وتخلّي إسبانيا عن دورها الدّفاعي أدّى كلّ ذلك بداية من 1730 م إلى تراجع نشاط المركز التّجاري، وهو ما تؤكده هجرة 500 صائد مرجان إلى سردانيا - جزيرة القدّيس بيار - مدينة كارلفورتي Carlaforte) (E. Luxoro, 1977, passim). كما أنه عائلة لومليّني حاولت بدورها (منذ سنة 1733 م) بيع الجزيرة بدون استشارة السلط التّونسيّة. على أنّ علي باشا تفطّن لهذه المساعي وتعلّل « بتجاوز الجنويين للقدر المأذون لهم فيه بالبناء ... وجهّز لها أربعة مراكب حربيّة مشحونة بالعسكر، وأمرهم أن يأخذوا مرساها والقرية». هذه الحملة التي قادها ابنه يونس باي أدّت (سنة 1741) إلي تهديم أغلب المباني وأسر تسعمائة نسمة يعود إلى المعتوقين منهم الفضل في تأسيس طبرقة الجديدة Nueva Tabarka بإسبانيا (S. Boubaker, 1993, p. 25 -27) .

القرية التي دمّرتها جيوش الباي كانت منذ منتصف القرن السادس عشر تشكّل تجمّعا عمرانيا متكاملا مجهّزا بدار صناعة وكنيسة ومستشفى والعديد من الأهراء والمواجل الضّخمة المعدّة لخزن الحبوب و الزيوت . ويطوّقها من كلّ الجهات سور مبنيّ بالحجارة المنحوتة مازالت بعض أبوابه قائمة خاصّة من النّاحية الجنوبيّة. ويحتلّ قصر العامل أعلى نقطة في الجزيرة وهو عبارة عن قلعة تدعّم زواياها أبراج معدّة للمدفعيّة وبرج مراقبة مستدير ويحميه من النّاحية

الغربيّة استحكام مثمّن الشكل. هذه القصبة (التي يطلق عليها اليوم اسم الحصن الجنوي) هي المعلم الوحيد الذي أبقى عليه يونس باي بعد أن أوكل مهمّة المرابطة به لكتيبة من الانكشاريّة تتألّف من مائة جندي. على أنّ الترميمات العديدة التي شهدها منذ تلك الفترة لم تغيّر بصفة ملحوظة طابعه المعماري .(Peysonnel, p. ; N. Djelloul , 1995, p. 170 - 180)

المصادر و المراجع

ابن حوقل، **صورة الأرض**، ليدن 1967 ؛ البكري ، **المسالك**، تحـ . وترجمة. دي سلان ، باريس - الجزائر 1965 ؛ **الاستبصار في عجائب الامصار**، تحـ . سعد زغلول، عبد الحميد ، القاهرة 1958 ؛ الادريسي، **نزهة المشتاق** ، تحـ . دوزي، ليدن 1958 ؛ المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم**، تحـ . دى خويه، 1956 ؛ محمد بن الحسن الوزّان ، **وصف إفريقيا**، بيروت 1985 ؛ محمد الصغيّربن يوسف، **المشرع الملكي**، ترجمة ف . سار وم. الأصرم، ط. تونس ؛ ابن أبي الضياف، **الاتحاف**، صـ . تونس 1963 ؛ المالكي ، **رياض النفوس**، تحـ . بشير البكوش ، بيروت 1983 ؛ البشروش، **جمهورية الدّايات في تونس** ، تونس 1992 ؛ هادي روجي إدريس، **الدولة الصنهاجيّة** ، تعريب حمّادي السّاحلي، بيروت 1992 .

S. Boubaker, Les relations entre Gênes et la régence de Tunis depuis 1741 jusqu'à la fin du XVIIIème siècle " in A.H.R.O.S. n 7 - 8, 1993, pp. 11 - 25 ; Camps - Faber, L'olivier dans l'Afrique romaine, Alger 1953 ; F. Dachraoui, Le califat fâtimide au Maghreb, Tunis 1981 ; G. Di Vita- Evrard, L. Volusius Cerealis, legat du proconsul d'Afrique T. Claudius Aristobulus" in Africa Romana, III, 1986, pp. 150 - 155 ; Ch. Diehl, L'Afrique byzantine, Paris 1896 ; N. Djelloul, Les fortifications côtières de la régence de Tunis à l'époque Ottomane, Zaghouan 1995 ; Id., Tabarka capitale de la Khroumirie , Tunis 1995 (sous presse) ; R. De la Blanchère, Tombes en mosaïques de Thabraca, Paris 1897; K. Dunbabin, The mosaïcs of roman North Africa, Oxford 1978 ; U. M. Fasola ; Le due catacombe ebraïche di villa Torlonia, in Atti Della pontifica commissione di Archeologia, Rivista di Archeologia cistiana, LII, 1976, pp. 22 - 23 ; N. Ferchiou, Remarques sur la politique impériale de Colonisation en Proconsulaire au cours du Ier siècle avant. J.-C, in Cahiers de Tunisie, XVIII, 1980, p. 49 -50 ; " M. Gagioti, L'importazione del marmo numidico in Roma in epoca tardo repubblicana, in Africa Romana, 1986, p. 205 -213 ; J. Gascou, La politique municipale de l'empire romain en Afrique Procon-

sulaire, Rome 1972 ; S. Gsell, H.A.A.N., Paris 1914 - 1930, Id., Exploitations minières dans l'Afrique romaine, in Hesperis, VIII, 1928, p. 1 -21 ; J. Guey et A. Pernette, Lepide à Thabraca, in karthago, IX, 1958, pp. 81 - 88 ; R. Cagnat, Archives des missions, 1885, pp. 141 - 143; H.G. Horn, Die antiken steinbrüch von Chemtou / Simitthus , in Die Numider, Bonn 1979 L.C. Hannezo, Monographie de Tabarka, in Revue Tunisienne, 1916, pp. 239 -265, 365 - 392, 1917, pp. 12 -29 ; L'itineraire maritime, 514, dans O. Cuntz, Itineraria Romana, I, Leipzig, 1929 ; Juvenal, Satires, X ; M. langerstay, Nouvelles fouilles à Tabarka, in Africa, X, 1988, pp. 220 -255 ; Id., un carrefour commercial africain d'importance régionale : Thabraca, in la citta mediterranea, Atti del congresso internazionale di Bari, 4-7 maggio 1988, Napoli 1993, pp. 115 - 125 ; J. M. Lassère, Vbique populus, Paris 1977 ; Id, Remarques sur le peuplement de la Colonia Iulia Augusta Numidica Simitthus , in Antiquités Africaines, XVI, 1980 ; Cl. Leppeley, Les cités d'Afrique romaine au Bas-Empire, Paris 1981 ; E. Luxoro, Tabar Tabarchini, Cagliari 1977 ; Y. Le Bohec, Inscriptions juives et judaïsantes de l'Afrique romaine, in Antiquités Africaines, XVII, 1981 ; M. Leglay, Salerne et l'Afrique , in B.C.T.H, 1982, 18, pp. 105 -107 ; M. Khannousi, Présence et rôle de l'armée romaine dans la région des grandes plaines, in Africa Romana, IX, 1991, pp. 322 -325 ; P. Monceaux, Les colonies juives de l'Afrique romaine, in Cahiers de Tunisie, XVIII, 1970, pp. 163 -167 ; J. Pignon, Gênes et Tabarka au XVIIème siècle, in cahiers de Tunisie, XVI, 1979, n 109 - 110, pp. 26 -34 ; Pline l'Ancien, Histoire naturelle, V, edit. et trad. de J. Desanges, Paris 1980 ; Podesta, L'isola di Tabarca e le pescherie di corallo nel mare circonstante, in Atti della società ligura di storia Patria, Vol. XIII, fasc. V, Genova 1884 ; D. Pringle, The defenses of Byzantine Africa, Oxford 1891; F. Rakob, Jahresbericht 1984, "in Archaölogischer Anzeir, berlin 1985 ; C. Reboa, " Tabarka" in Bulletin des Antiquités africaines, II, 1884, p. 127 Sq ; P. Salama, Les voies romaines d'Afrique, Paris 1970 ; O. Saïdi, Les grandes plaines de la haute vallée de la Medjerda et la Khoumirie, Tunis 1980 ; Scylax, Périple du Pseudo Scylax, dans Georgr. Graeci minores, edit. C. Müller, I - III.; L. Teutsh, das Römische Städtewesen in Nordafrica, Berlin 1962 ; J. Toutain, Fouilles de M. Le cap. Dautheville à Tabarka, in M.E.F.R., XI, 1891, pp. 185 -187 ; Id, Fouilles et explorations à Tabarka, in B.A.C.T.H, 1892, p. 187 -188.

ناجي جلّول

قضايا





الصحافة الهزليّة في تونس
من مطلع القرن العشرين الى الاستقلال

تاريخ الصحافة الهزليّة في تونس

تحتلّ الصّحف الهزليّة النقديّة مكانة مرموقة في تاريخ الصحافة التونسية، بالنظر الى ما قامت به من دور بارز في التطوّر السياسي و الاجتماعي والثقافي الذي شهدته البلاد التونسية من مطلع القرن العشرين إلى الاستقلال. ذلك أنّ الصحف الهزليّة التونسيّة قد خاضت غمار المعركة السياسية والاجتماعية على واجهتين متميّزتين، واجهة الكفاح السياسي ضدّ الاستعمار وواجهة الإصلاح الاجتماعي والتربوي. وقد اعتمدت لبلوغ هذه الغاية المزدوجة على وسيلة ناجعة تتمثل من جهة في استعمال اللغة العربية الدارجة ، ومن جهة أخرى في اعتماد الرسوم الكاريكاتورية للاتصال بالجماهير الشعبية و توعيتها .

ولا ريب أنه من الصّعب جدّا إن لم نقل من المستحيل أن نستعرض في نطاق هذه الدراسة تاريخ الصحافة الهزليّة التونسية التي تعدّ ما يناهز الأربعين عنوانا. فالموضوع يستحقّ لا محالة دراسات مطوّلة و بحوثا معمّقة لتحليل هذه الظاهرة الأدبية و الثقافية المتميّزة. وبناء على ذلك سنحاول تسليط بعض الأضواء على أهمّ مراحل تطوّر هذا النوع من الصحافة في تونس من النشأة إلى فترة ما بعد الاستقلال.

نشأة الصحافة الهزليّة التونسية : 1906 - 1911

من الجدير بالملاحظة في هذا المضمار أن الصحافة الهزليّة العربية قد ظهرت للوجود في مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر. ذلك أن جريدة **أبو نظارة** قد صدرت في سنة 1876 ، في حين ظهرت جريدة **التنكيت والتبكيت** في سنة 1881. كما صدرت في تونس بعيد انتصاب الحماية الفرنسية بعض الجرائد الهزليّة النقديّة الناطقة بالفرنسية، وقد بلغ عددها من 1884 الى 1906 ستّ جرائد، أوّلها جريدة **كاراكوز** التي ظهرت في 15 جوان 1884.

ولا شكّ أنّ هذين العاملين قد شجّعا بعض الصحافيّين التونسيّين على اقتحام ميدان الصحافة الهزليّة و الفكاهية. و أوّل من أنشأ جريدة من هذا النوع في تونس هو السيد عزّوز بن أحمد الخياري الذي أصدر صحيفة **ترويح النفوس** ابتداء من أوّل نوفمبر 1906. وقد أوضح منذ العدد الأوّل المنهج الذي ستسير عليه جريدته قائلا : « ستكون سلوى **للمحزنين** ، وذكرى للمتذكّرين، بإيراد النّوادر الشيّقة ، وذكر الطرف الرايقة، و الشواهد المفيدة، ممثّلة في الأشكال والرسوم، وهي طريقة محكمة سلكها الأروبيّون في سبيل نهضتهم، ظاهرها هزل رايق، وباطنها جدّ شايق».

ولئن لم تسلك الجريدة هذا المسلك تماما، إلاّ أنها تعتبر أوّل محاولة لتنويع المواضيع المنشورة في الصحف التونسية عهدئذ. حيث ظهرت في الأعداد الأربعة التي صدرت من هذه الجريدة بعض النوادر الفكاهية و القصائد الأخلاقية والمقالات الانتقادية والمحاورات التمثيلية.

كما صدرت قبل ذلك ببضعة أشهر جريدة عربية أخرى ذات اتّجاه نقدي صرف، وهي جريدة **المزعج** التى أصدرها محمد عمران يوم أوّل أوت 1906 . وكان الغرض من إصدارها القيام بحملة ضد نظام التعليم الجاري به العمل آنذاك في البلاد

التونسية، ولا سيما التعليم الزيتوني الذى أصبح غير متلائم مع مقتضيات العصر.

وبناء على ذلك فقد أصدرت الحكومة قرارا بتاريخ 23 ديسمبر 1906 يقضي بتعطيل هذه الجريدة بتهمة النّيل من سلطة الحماية الفرنسية.

وفي سنة 1908 أصدر الشيخ الهاشمي المكّي (1881 - 1942) جريدة عربية أسبوعية بعنوان **أبو قشّة** (وهذا الاسم يعني القرد في لغة أهل الجنوب التونسي). وهي أوّل صحيفة هزلية بالمعنى المتعارف تصدر بتونس. وقد ظهر عددها الأوّل في 19 جويلية 1908 تحت العنوان التالي :« أبو قشّة جريدة كشكولية هزليّة جدّية، حساسة الشعور، تجسّم اللبّ في قالب القشور» .

وقد سخّر الهاشمي المكّي جريدته لتحقيق غرضين اثنين : أوّلهما الإصلاح الاجتماعي والديني حسب تعاليم جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ، ومقاومة البدع المنافية لروح الدين الاسلامي الحنيف، و ثانيهما مقاومة الاستعمار الفرنسي.وقد اعتمد لبلوغ هذه الغاية المزدوجة على استعمال اللغة الدارجة والشعر الملحون لأوّل مرة في تاريخ الصحافة التونسية، وذلك لإيقاظ الشعب و توعيته.

وبعد مدّة قليلة ضاقت السلط الاستعمارية ذرعا بانتقادات الهاشمي المكّي، فاتّخذت قرارا مؤرخا في 27 جانفي 1909 يقضي بتعطيل أبوقشّة بدعوى أنها نالت من هيبة الدولة و تطاولت على رجالاتها. فارتحل الشيخ الى طرابلس حيث أصدر جريدته من جديد، ثم تحوّل الى تركيا ومنها الى جاوة (في أندونيسيا)، فاستقرّ بها إلى آخر حياته و أصدر جريدة عربية جديدة بعنوان **بوريودور** .

وفي سنة 1909 أصدر بنعيسي بن الشيخ أحمد (1880 - 1957) جريدة فكاهية انتقاديّة بعنوان جحا، ظهر عددها الأول يوم 15 جويلية 1909، وسارت على منهج أبو قشة تقاوم البدع وتدعو الشباب الى التحلّي بالاخلاق الحميدة والإقبال على طلب العلم. وكانت تنشر الفصول والمقالات المحرّرة باللغة الدارجة والملزومات والأزجال من نظم كبار شعراء الملحون أمثال قاسم شقرون و أحمد بن موسى وعبد الرحمان الكافي. وأخيرا أصدرت الحكومة قرارا مؤرخا في 19 أكتوبر 1910 يقضي بتعطيل هذه الجريدة.

وفي سنة 1909 أصدر أيضا الشيخ سليمان الجادوي صاحب «مرشد الأمّة » جريدة هزليّة جديدة بعنوان أبو نواس، لمّا لاحظ إقبال القرّاء التونسيين على الجرائد المحرّرة باللغة الدارجة.وقد صدر منها 15 عددا، الأوّل في 17 أوت 1909 والأخير في 22 أفريل 1910.

وصدرت في نفس هذه السنة سبع صحف فكاهية أخرى وهي :

1 - جريدة **المضحك** التي أصدرها عبد الله زرّوق ابتداء من 26 جانفي 1910. وهي أوّل جريدة هزلية تونسية نشرت الصور الكاريكاتورية الى جانب الشعر الملحون والنوادر والمحاورات المضحكة، وقد اختارت شعاراً لها هذين البيتين :

أفد طبعك المكدود بالخبز راحة لضحك وهزل ثم ضرب مع طرح
ولكن اذا باشرت مزحك فليكن بمقدار ما يعطي الخسار من الربح

وقد تضايقت منها الحكومة فأوقفتها بقرار مؤرخ في 3 مارس 1910 ثم عادت للظهور في 3 فيفري 1911 و توقّفت من جديد في نوفمبر 1911 مع سائر الصحف التونسية.

2 - **ولد البلاد** ، وهي جريدة هزليّة أصدرها الصحافي التونسي الشهير البشير الفورتي صاحب جريدة « التقدّم» اليومية. وكانت تنشر هي أيضا الصور الكاريكاتورية والنوادر الفكاهية والقصص المصوّرة والشعر. ولكنها لم تعمّر طويلا،حيث لم يصدر منها سوى تسعة أعداد، ظهر العدد الأول في 19 أفريل 1910 والعدد الأخير في 23 جوان 1910.

3 - **كاراكوز** ، وهي جريدة فكاهية أصدرها صاحبها عثمان المحجوب تحت الشعار التالي : « كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يمزح ولا يقول الاّ حقّا». ولم يظهر منها سوى عدد وحيد في 18 جوان 1910.

4 - **أبو خلف**، وهي جريدة هزلية أخرى أصدرها محمد الصحبي بن المكّي التوزري في 7 سبتمبر 1910 ولم يظهر منها سوى خمسة أعداد.

5- جريدة **جحجوح** التي أصدرها بنعيسى بن الشيخ أحمد بعد تعطيل جحا. وقد تمّ حجز العدد الأوّل المؤرخ في 20 أكتوبر 1910 قبل توزيعه.

6 ـ جريدة **النمس** التي أصدرها محمد بن الحاج محمود التونسي في سنة 1911 و أوقفتها الحكومة في نوفمبر 1911 إثر حوادث الزلاّج.

7 ـ **الضحك** : بعد تعطيل جريدة **جحا** ومنع توزيع العدد الأوّل من جحجوح، أصدر بنعيسى بن الشيخ أحمد في 26 جانفي 1911 جريدة **الضحك** التي استمرّت في الظهور إلى أن أوقفتها الحكومة في نوفمبر 1911 مع جميع الصحف التونسية الأخرى.

ذلك أنّ السلّط الاستعمارية قد شعرت إثر حوادث الزلاج (7 نوفمبر 1911) بما تقوم به الصحف التونسية عامّة والصحف الهزليّة والنقديّة خاصة، من دور في تثقيف الجماهير الشعبية وتوعيتها ،فقرّرت تعطيل جميع الصحف العربية الصادرة بتونس، ماعدا جريدة الزهرة التي أصبحت شبه رسمية.

تطور الصحافة الهزلية من 1920 إلى 1936

في أوائل سنة 1920 قرّر المقيم العام الفرنسي الجديد فلاندان رفع الحظر على الصحافة التونسية بعد احتجاب دام ثماني سنوات وثلاثة أشهر، فظهرت من جديد بعض الصحف الهزلية التي أوقفتها الحكومة في نوفمبر 1911.

من ذلك أنّ بنعيسى بن الشيخ أحمد قد أعاد إصدار **جحا** ابتداء من يوم 6 مارس 1920. ورغم انتهاج الجريدة سياسة معتدلة فقد أوقفتها الحكومة يوم 23 جانفي 1921 بتهمة التهجّم على أحد أفراد العائلة المالكة. وعندئذ أصدر صاحبها من جديد جريدة **الضحك**، ولم يظهر منها سوى ثمانية أعداد حتى أوقفتها السلطة ، فعوّضتها جريدة جحجوح التي تعطّلت بدورها في 5 أكتوبر 1921.

كما عادت جريدة **المضحك** للصدور في سنة 1920 بإدارة عبد العزيز المحجوب. وقد انتهجت سياسة مناهضة للحزب الدستوري وزعيمه الشيخ عبد العزيز الثعالبي ثم غيّرت موقفها لما تولّى رئاسة تحريرها الشاعر عبد الرزاق كرباكة واستمرّت في الظهور إلى سنة 1923.

وبالإضافة إلى الصحف القديمة، ظهرت في تلك الفترة جرائد هزليّة جديدة ، منها ما عمّرت طويلا ومنها ما أوقفتها الحكومة ومنها ما احتجبت من تلقاء نفسها.

1) ففي سنة 1920 صدرت الصحف الهزليّة التالية :

- جريدة **الوداد** التي أصدرها صاحبها الشاذلي بن محمد البلدي ، ولم تظهر منها سوى أربعة أعداد ، الأول في 31 جانفي 1920 و الأخير في 12 ديسمبر 1921

- جريدة **غصن البان** لصاحبها علي النجّار. وقد صدر منها 21 عددا، ابتداء من 21 مارس 1920 ثم توقّفت بقرار إداري مؤرخ في 25 جوان 1920.

- جريدة **قزدور** التي أصدرها عثمان المحجوب صاحب جريدة كاراكوز السالفة الذكر، ولم يظهر منها سوى ثلاثة أعداد، الأوّل في 10 ماي و الأخير في 8 جوان 1920.

- **القيروان** ، وهي جريدة سياسية هزليّة مناصرة للحزب الدستوري، أصدرها صاحبها عمر العجرة في مدينة القيروان .وقد ظهر منها 67 عددا، الأوّل في 17 أوت 1920 و الأخير في 28 ديسمبر 1921.

2) وفي سنة 1921 ظهر **النّديم و الزّهو** ، وهما من أهمّ الصّحف الهزليّة التونسيّة،اعتبارا من جهة لما كان لهما من تأثير بالغ في الجماهير الشعبية التي أقبلت على مطالعتهما بلهفة وشغف. ونظرا من جهة أخرى إلى طول مدّة صدورهما. فقد استمرّت الأولى في الظهور مدة اثنين و عشرين عاما بلا انقطاع، حيث ظهر العدد الأوّل في 12 فيفري 1921 والعدد الأخير في 13 سبتمبر 1942. أما الثانية فقد صدرت سلسلتها الأولى من ديسمبر 1921 إلى نوفمبر 1942، مع فترة تعطيل من 1935 إلى 1936، وصدرت السلسلة الثانية من 1946 الى 1952.

و يعتبر حسين الجزيري (1898 - 1974) صاحب جريدة **النديم** من أبرز الصحافيّين و الشعراء الفكاهيّين الذين أنجبتهم تونس في الثلث الأوّل من هذا القرن. وقد كان يشرف بنفسه على جريدته و يحرّر فصولها بمساعدة بعض الأدباء الناشئين أمثال سعيد أبي بكر وابراهيم بورقعة. وكان يغلب على كتاباته النّقد الخلقي والاجتماعي ، فكانت عينه يقظة ، قلّما يفلت منها جانب من جوانب الحياة الاجتماعية يستحقّ السخرية أو الفكاهة والهزل. وصفه صديقه البشير الفورتي صاحب جريدة ولد البلاد بقوله :

« لذيذ الأسلوب ، فكه التّحرير، حلو الشعر، مرّ التنكيت ، يبكت خصمه ولا يتركه إلاّ على نعشه ، مقصّه حادّ، يقطع رقاب العباد ، ولولا خفّة روحه لكانت له خصومة، في كلّ حومة » .

وقال عنه الشيخ الفاضل بن عاشور :

« أمّا حسين الجزيري، فان شعره يتلاقى مع نثره في مؤثراته و أغراضه، فهو ساخر متهكّم ، يستخرج الضحك من روح الالم ، و يتخيّر الألفاظ ذات الوقع المطلوب من اللغة الفصحى أو اللغة العامية ، و مدار شعره كمدار نثره على روح الكفاح السياسي والإصلاح الاجتماعي».

وقد ابتكر صاحب **النديم** عدّة طرق و أساليب جديدة في النّقد الفكاهي، كما كان بارعا في معارضة الشعر القديم و تحويله من غرضه الأصلي إلى أغراض فكاهية ترمي إلى إضحاك القارىء.من ذلك أنّه عارض قصيدة أبي فراس الحمداني التي مطلعها:

أقول وقد ناحت يقربي حمامة　　أيا جارتا هل تشعرين بحالي

فقال :

أقول وقد فاحت بقربي طواجن　　فما مثل هذا الريح عطر ولا زهر
فلا تعذلوني إن عقلي مخلبط　　ورأسي بهذا الصوم يشبهه القدر

وعارض قصيدة امرئ القيس الشهيرة بقوله :

قفا نبك من ذكر حليب محوّل　　إلى زبدة تحكي اصفرار السفرجل

أمّا الحاج عثمان الغربي (1870- 1943) صاحب **الزهو** ، فهو من كبار شعراء الملحون ورواة الأدب الشعبي، بدأ نشاطه الصحفي منذ سنة 1911 في جريدة **المضحك** ، ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها أصدر جريدة **الزهو** التي كان يتولّى بنفسه إدارة وتحرير هذه الجريدة الشعبية التي نالت من أوّل وهلة شهرة واسعة في كامل البلاد، وكان قراؤها ينتظرون صدورها في كلّ أسبوع بفارغ الصبر. وقد كرّسها صاحبها من خلال أشعاره الفكاهية ومقالاته الإصلاحية لنشر الأخلاق الفاضلة ومقاومة البدع والضلالات وحثّ الشعب على تربية أبنائه تربية إسلامية والتهكّم على كلّ من يشذّ في عادة أو خلق.

وقد تعرّضت جريدة **الزهو** للتعطيل في 13 ماي 1935 في عهد المقيم العام الفرنسي الطاغية بيروتون ، ثم عادت في 30 أوت 1936 واحتجبت في نوفمبر 1942 إثر اندلاع الحرب العالمية الثانية.

3) وفي سنة 1922 انضافت إلى الصحافة الهزلية جريدة **المعلّل** التي ظهر عددها الأوّل في 2 جويلية 1922 وعددها الأخير في 14 ديسمبر 1924، وتداول على إدارتها أربعة مسؤولين ، وهم محمد الشريف بن يخلف وعلي النجار والحاج علي بن مصطفى (الموالي للحزب الدستوري) ، وسلومة بن عبد الرزاق . وقد قامت الجريدة بحملة عنيفة ضدّ النظام الاستعماري وأذنابه بواسطة الرسوم الكاريكاتورية التي كان ينشرها الرسّام مصطفى عصمان. وفي آخر الأمر تعرّضت للتعطيل بقرار مؤرخ في 15 ديسمبر1924

4) وفي 6 جانفي 1923 أصدر محمد بن الحنفية جريدة فكاهية جديدة بعنوان **المنجنيق**، ولكن لم يصدر منها إلا عدد وحيد، فكانت آخر جريدة هزلية تصدر بعد الحرب العالمية الأولى. وقد أصبحت جميع الصحف التونسية، بما في ذلك الجرائد الهزليّة، مهدّدة بالإيقاف و التعطيل ، منذ صدور القرارات التعسّفيّة التي اتّخذها المقيم العام لوسيان سان ضدّ الحركة الوطنية في 29 جانفي 1926. وبالفعل فقد احتجبت الصحف الهزلية الواحدة تلو الأخرى كما أسلفنا ، ولم تسلم من التعطيل إلا جريدة النديم التي استطاعت ، بفضل حنكة صاحبها و أسلوبه الرصين المعتدل ، أن تستمرّ في الصدور إلى أن انفرجت الأزمة في شهر أوت 1936.

نهضة الصحافة الهزلية من 1936 إلى 1938

لقد شهدت الصحافة الهزلية منذ سنة 1936 فترة ازدهار قصيرة لم تعرفها من قبل. وتعزى هذه النهضة إلى عدّة عوامل نخصّ بالذكر منها :

1) قدوم الأديب محمود بيرم التونسي (1893 ـ 1960) [راجع المقال في « دامت » 2] من مصر إلى تونس في سنة 1932 . وقد أدخل على الصحافة التونسية روحا جديدة وأساليب متطوّرة.

2) ظهور جيل جديد من الأدباء الشبّان الناقمين على الجمود والتزمت والمتشبّعين بالأفكار العصرية الداعية إلى تطوير المجتمع التونسي و الأخذ بأسباب التقدّم، وفي طليعتهم الشاعر الخالد الذكر أبو القاسم الشابّي والمصلح الاجتماعي الطاهر الحدّاد.

3) ظهور مجموعة من الأدباء و الفنّانين البوهيميّين الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم « جماعة تحت السور» نسبة إلى المقهى الذي كانوا يجتمعون فيه في حيّ باب سويقة الشعبي.

4) انبعاث الحزب الدستوري الجديد في المؤتمر الوطني المنعقد بمدينة قصر هلال يوم 2 مارس 1934

5) الإعلان عن حريّة الصحافة و إلغاء الرقابة بمقتضى الأوامر التي أصدرها المقيم العام الجديد أرمان غيون في 6 أوت 1936.

وبفضل كلّ هذه العوامل جدّدت الصحف الهزلية طرقها و أساليبها و حوّلت الفكاهة من الوعظ والإرشاد و التعلق بالماضي إلى النقد السياسي والاجتماعي عن طريق السخرية البريئة و النكتة الظريفة و المداعبة اللطيفة.

وعلى هذا الأساس ظهرت عدّة صحف فكاهيّة جديدة، مناصرة سياسيا للحزب الدستوري الجديد وزعمائه، ومؤيّدة للنهوض بالشعب التونسي وتطويره وفقا لمقتضيات العصر الحديث، وذلك إلى جانب الصحف الهزلية القديمة المحافظة ، وهي جريدة **النديم** التي لم تتوقف خلال الفترة السابقة ، وجريدة **الزهو** التي عادت للصدور في 30 أوت 1936 ، وجريدة **جحجوح** التي ظهرت من جديد في 3 سبتمبر 1936.

وهكذا فقد صدرت في تلك الفترة ما لا يقلّ عن 12 جريدة هزلية جديدة وهي :

1) جريدة **السّرور** التي أصدرها علي الدوعاجي بالاشتراك مع نخبة من الأدباء والشعراء الشبّان، وهم الهادي العبيدي ومحمود بيرم ومحمد العريبي ومصطفى خريّف ومحمد المقراني. وقد ظهر العدد الأوّل يوم 30 أوت 1936 في 8 صفحات يحمل العنوان التالي :« السرور جريدة مفاكهة ممازحة مؤانسة » .

وقد وصف المرحوم محمد صالح المهيدي هذه الجريدة بقوله : «**السرور** هي الجريدة التونسية الأولى المتطوّرة في شكلها و تصويرها . وهي الجريدة الأولى التي تنشر القصة القصيرة والزجل المحبوب والملزومة والأغنية والفكاهة البريئة المصوّرة. وهي الجريدة الأولى التي تنشر الصور السياسية الكاريكاتورية، صورا ناطقة انزعج منها الاستعمار». وبالفعل فقد كانت **السرور** تنشر في كل عدد رسوما كاريكاتورية بريشة الفنان عمر الغرايري، و تستعمل اللغة العاميّة التي يفهمها الجمهور العريض.

وقد جاء في هذا المعنى في افتتاحية العدد الأوّل ما يلي :

«نحن من الشعب في مستواه و مستوى ثقافته، لم نقطّع سراويلنا على مقاعد الكليّات. ولا نختلف مع الشعب إلاّ في أن الشعب يعمل ونحن نغنّي له».

ومن سوء الحظّ فإنّ هذه الجريدة لم تعمر طويلا ، فما إن ظهر العدد العاشر الصادر في 10 أكتوبر 1936 حتى احتجبت نهائيّا.

2) **زهو البال** : انسلخ مصطفى بن شعبان عن **الزهو** و أصدر هذه الجريدة التي لم يصدر منها سوى أربعة أعداد، ظهر الأوّل في 28 سبتمبر 1936 والأخير في 19 أكتوبر 1936. وهي الجريدة الوحيدة التي ساندت الحزب الدستوري القديم ، من بين جميع الجرائد الهزلية التي صدرت في هذه الفترة.

3) **البوق** : وهي جريدة هزليّة أصدرها عزالدين بن الحاج، وكانت مناصرة للحزب الدستوري الجديد و مؤيدة لأفكار الطاهر الحدّاد. وقد صدر منها ثمانية أعداد فحسب ، ظهر الأوّل يوم 28 سبتمبر 1936 و الأخير يوم 30 نوفمبر 1936.

4) جريدة **الشّباب** : انسلخ محمود بيرم التونسي عن جماعة تحت السور وأصدر يوم 29 أكتوبر 1936 جريدة هزليّة جديدة تحت عنوان :« **الشباب** تصدر ضاحكة عابثة مازحة » . وقد لقيت هذه الجريدة منذ ظهورها رواجا كبيرا، وتهافت النّاس على مطالعتها والاستمتاع بما تتضمّنه من الفكاهة الظريفة والنقد السياسي الساخر. وهي تعدّ بحقّ إلى جانب **السّرور**، أحسن ما انتهى اليه الصحافيون التونسيون من براعة ومهارة في فنّ السخرية والفكاهة. فقد كان محمود بيرم يتقن النقد السياسي والاجتماعي إتقانا رائعا ، واستطاع أن يخرجه في صور من الرسوم الكاريكاتورية المتعددة التي كان يوحي بها إلى الرسام البارع عمر الغرايري، واستعمل جميع أشكال السخرية والتهكّم لمقاومة الاستعمار الفرنسي

وأذنابه ، لاسيما منهم أعضاء المجلس الكبير .من ذلك أنه نشر في العدد الخامس صورة كاريكاتورية تمثّل تونس في شكل امرأة توجّه مدفعا نحو المجلس الكبير ، وكتب تحت الصورة : «لا بدّ من هدم هذه البؤرة كما هدم الأحرار سجن الباستيل».

كما كان يناصر زعماء الحزب الدستوري الجديد و يهاجم رجال اللجنة التنفيذية الذين كان يسمّيهم « قدماء بني آدم». ولم يسلم منه رجال الفكر والأدب و الفنّ ، وأعيان البلاد أمثال شيخ مدينة تونس مصطفى صفر والأديب زين العابدين السنوسي والمطربة شافية رشدي الخ...

ولذلك فقد تألب عليه الرجعيّون و أصحاب المصالح ورجال السلطة وبعض الأدباء والمفكرين ، ممّا دعا حكومة الحماية في آخر الأمر إلى تعطيل جريدته إثر صدور العدد العشرين المؤرخ في 12 مارس 1937.

5) **الصاعقة** : لم يظهر من هذه الجريدة التي أسّسها الحاج علي بن مصطفى إلاّ عدد وحيد صدر يوم 10 نوفمبر 1936 تحت عنوان : «**الصاعقة** تضحك على الباطل كلّ أسبوع».

6) **الوطن** : هذه الجريدة هي من أطول الجرائد الهزلية عمرا ، فقد دامت ما يربو عن العشرين سنة ، تخلّلتها بعض فترات الانقطاع. إذ صدر عددها الأوّل يوم 27 ديسمبر 1936 وعددها الأخير يوم 12 ماي 1958 . و يعتبر صاحبها محمد بن فضيلة (1911 ـ 1957) من أشهر الصحافيين الفكاهيّين وأبرعهم في النقد السياسي والاجتماعي الساخر.فقد بدأ حياته الصحفية في جريدة **الزهو** ثم أصدر مجلة **الحياة** ، وبعد احتجابها أسّس جريدة الوطن و سخّرها لخدمة القضيّة التونسية و مناصرة الحزب الدستوري الجديد. و أحيل على المحكمة الفرنسية في أفريل 1937 صحبة زميله الصحافي والرسّام توفيق بوغدير بتهمة « التحريض على التباغض بين الأجناس بواسطة الرسوم الكاريكاتورية ». ثم امتحن بالسجن المضيّق وبتعطيل جريدته إثر حوادث 9 أفريل 1938. وعادت الجريدة للصدورفي أوّل جانفي 1939 ثم تعطّلت من جديد في 4 أفريل 1939.

7) **الانشراح** ، وهي جريدة هزلية أصدرها صاحبها محمد محمود اللوز في صفاقس يوم أوّل فيفري 1939 ولم يصدر منها سوى ثلاثة أعداد.

8) **صبرة** ، وهذه جريدة هزلية أخرى « تصدر مازحة عابثة كلّ أسبوع »، أسّسها صاحبها الطاهر زرّوق في 16 مارس 1937 وعهد برئاسة تحريرها إلى الأديب محمد العريبي (1917 - 1946) الذي يعد من أبرز جماعة تحت السور. وقد تعطلت هذه الجريدة في أوّل أفريل 1938، بعدما صدر منها 37 عددا، وتعرّض رئيس تحريرها للإيقاف إثر حوادث 9 أفريل 1938. ثم عادت للظهور في 7 جوان 1939 وصدر بشأنها قرار جديد بالتعطيل في 25 أوت 1939.

9) **السّردوك** : بعد تعطيل جريدة الشباب، أعاد محمود بيرم إصدار جريدة السردوك، بالاتفاق مع صاحب امتيازها الشاذلي الفهري. وقد صدر العدد الأوّل في 7 أفريل 1937 وكان نسخة طبق الأصل من الشباب. فما إن صدر العدد الثاني حتى قرّرت السلطة الاستعمارية نفي محمود بيرم نهائيا من البلاد التونسية. واستمرّت السردوك في الظهور إلى أن عطّلتها الحكومة في 9 جوان 1937.

10) **الأنيس** ، وهي جريدة هزلية انتقادية أصدرها صاحبها محمد أحمد شبشوب (1907 - 1987) يوم 31 مارس 1937 في صفاقس تحت عنوان «جريدة أسبوعية تبرز مفاكهة». ثم انتقلت إلى تونس واشتهرت بفصولها ومقالاتها الانتقادية في كافة ميادين النشاط، كالأدب و الفنّ و الاجتماع والسياسة، معتمدة المداعبة والتنكيت و السخرية. وكانت تناصر الحزب الدستوري الجديد وزعماءه ،على غرار بقية الصحف الهزلية التي ظهرت في تلك الفترة. وقد ساهم في تحريرها في أوّل عهدها الزعيم الحبيب بوقطفة . ثم توقفت عن الصدور إثر حوادث 9 أفريل 1938.

11) **كل شيء بالمكشوف** : هذه صحيفة سياسية انتقادية هزلية أصدرها الهادي السعيدي (1904 - 1947) أحد قادة الحزب الدستوري الجديد ابتداء من 23 أفريل 1937. وقد سلكت هذه الجريدة نفس المنهج الذي سارت عليه **السرور والشباب والوطن**. فكانت تساند الحزب الدستوري الجديد وتهاجم الاستعمار وأذنابه بواسطة المقالات النقدية والشعر الملحون والأزجال و الصور الكاريكاتورية بريشة الفنّان حاتم المكّي. وقد تعطّلت الجريدة إثر صدور العدد 13 المؤرخ في 12 أكتوبر 1937، ثم عادت للظهور في 13 مارس 1939 وتعطلت من جديد بمقتضى قرار مؤرخ في 15 مارس 1939.

12) **الكشكول** : وهي جريدة هزلية أصدرها صاحبها حسن علي العيّادي بصفاقس، ولم يظهر منها سوى 4 أعداد، الأوّل في 13 أكتوبر والأخير في 30 ديسمبر 1937.

وقد ظلّت السلط الاستعمارية تلاحق الصحف الهزلية والنقدية، لاسيما منها الموالية أو المناصرة للحزب الدستوري الجديد، إلى أن عطّلتها تماما إثر حوادث 9 أفريل 1938، كما أسلفنا ، ولم تستمرّ في الظهور حتى سنة 1942 سوى الصحف المحافظة أو الموالية للحزب الدّستوري القديم، وهي **جحجوح والزهو والنّديم.**

تطور الصحافة الهزلية بعد الحرب العالمية الثانية

ما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى استأنفت بعض الصحف الهزلية القديمة نشاطها. ففي سنة 1946 أعاد السيد محمد الغربي إصدار جريدة **الزهو** واقتفى أثر والده الحاج عثمان الغربي الذي انتقل إلى جوار ربّه في سنة 1943. فكان ينشر المقالات الانتقادية بالفصحى والدارجة والأشعار الشعبية والأزجال و الملزومات .وقد لاقت الجريدة رواجا كبيرا في الأوساط الشعبية.

وفي سنة 1946 أيضا عادت جريدة **جحجوح** للظهور ثم عوّضتها في 30 أوت 1949 جريدة **شهاب جحجوح** التي احتجبت نهائيا إثر صدور العدد المؤرخ في 31 ماي 1950.

كما صدرت **الأنيس** من جديد يوم 12 نوفمبر 1947 تحت شعار «**الأنيس** تؤانس وتداعب الجميع». واستمرت في الظهور حتى شهر مارس 1953.

وعادت **الوطن** هي أيضا للظهور في سنة 1948 معتمدة كالعادة على الشعر الملحون و الصور الكاريكاتورية التي كان يخصّها بها الرسّام عمر الغ ايري. وقد شنّت حملة شعواءعلى أعضاء المجلس الكبير ووزارة مصطفى الكعّاك، واحتدّت لهجتها إثر اندلاع المعركة الحاسمة في 18 جانفي 1952. فنالها التعطيل إثر صدور العدد المؤرخ في 22 أفريل 1953. ثم عادت للظهور من جديد من 1954 إلى 1958. وقد تولّى إدارتها السيد عبد المجيد بوديدح إثر وفاة صاحبها محمد بن فضيلة في سنة 1957.

و بالإضافة الى الجرائد القديمة التي عادت للظهور ،صدرت بعض الجرائد الهزلية الجديدة التى لم تعمّر طويلا، وهي :

1) جريدة **الرقيب** التي أصدرها السيد علي المعاوي أحد مناضلي الحزب الدستوري الجديد في 28 سبتمبر 1948، وقد اشتهرت بسياستها المناصرة للحركة

الوطنية والمناهضة لوزارة الكعّاك. وصدر منها 38 عددا، ظهر آخرها في 28 جوان 1949.

2) جريدة « **بالمكشوف**» التي أصدرها صاحبها الطاهر الزقناني تحت شعار «وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا». وقد ظهر منها 14 عددا، آخرها في 14 جوان1951.

3) **النشاب**، وهي جريدة إخبارية أخلاقية أدبية فكاهية، لصاحبها عبد الملك القبرصلي. ولم يصدر منها سوى عدد وحيد مؤرخ في 11 جويلية 1953.

4) جريدة **الفرززّو**، وهي آخر ما ظهر من الصحف الهزليّة قبل الاستقلال. أصدرها في 2 جانفي 1955 الصحافي الكبير و الأديب القدير الهادي العبيدي الذي سار في تحريرها على نفس المنهج الذي سلكته جريدة السرور في الثلاثينات.ولكنّها لم تعمّر طويلا، إذ لم يصدر منها سوى 21 عددا، ثم احتجبت إثر صدور العدد المؤرخ في 26 فيفري 1956، أي قبيل الاستقلال.

ركود الصحافة الهزلية بعد الاستقلال

لقد ركدت الصحافة الهزلية في تونس إثر الاستقلال (20 مارس 1956) ركودا استرعى انتباه جميع المهتمّين بتاريخ الصحافة العربية عامّة والصحافة التونسية خاصّة. فلم يظهر سوى عدد قليل من الصحف الفكاهية التي لم تدم طويلا. وأوّل جريدة هزلية صدرت بعد الاستقلال هي جريدة العفريت التي أصدرها صاحبها أحمد بن عبد الله في سنة 1957 ثم احتجبت في سنة 1958 ولم يصدر منها سوى 27 عددا.

وفي 30 مارس 1960 أصدر الممثّل الفكاهي المعروف حمّادي الجزيري جريدة **الستار** التي سلكت في أوّل عهدها سبيل الصحف الهزلية القديمة الراقية مثل **النديم والسرور والشباب**. ولكنها مالبثت أن حادت عن طريق الفكاهة البريئة والفدلكة المرحة ومالت إلى أساليب المساومة وهتك أعراض الناس. فأثارت موجة من السخط أفضت بها إلى الاحتجاب في شهر جانفي 1961، بعدما صدر منها 27 عددا.

وفي سنة 1962 أصدر السيد الحبيب البرجي جريدة هزلية جديدة باسم **القنفود** (القنفد) . وقد ظهر منها 46 عدداً من 1962 إلى 1964 ثمّ احتجبت. وعادت للظهور في سلسلة جديدة ابتداء من 8 ماي 1978 واستمرّت في الصدور إلى سنة 1980 .

وفي سنة 1978 أعاد الحزب الاشتراكي الدستوري إصدار جريدة **كلّ شيء بالمكشوف** وعهد بإدارتها إلى السيد الطيب الرزقي وكلّف برئاسة تحريرها الصحافي القدير عبد المجيد بوديدح، و برسم الصور الكاريكاتورية الفنان الموهوب علي عبيد الذي ذاع صيته في هذا الميدان منذ ذلك التاريخ. وقد صدر من هذه السلسلة الجديدة 112 عددا من سنة 1978 إلى سنة 1980.

تلك هي باختصار حصيلة التجربة التونسية التي دامت أكثر من نصف قرن في مجال الفكاهة البريئة، والنقد السياسي والاجتماعي الساخر، والكلمة الضاحكة المازحة التي اختفت - وياللأسف - في أيّامنا هذه من الصحافة التونسية ، وأكاد أقول من الصحافة العربيّة عامّة.

المراجع

1) أحمد جليد، **بيبليوغرافيا الصحافة الساخرة (1906 - 1985)**. مجلة الحياة الثقافية. تونس عدد 39 / 1986 - ص 132 - 138.

2) جعفر ماجد ، **الصحافة الادبية بتونس من 1904 إلى 1955** (بالفرنسية)، نشريات الجامعة التونسية، تونس 1979 .

3) حمادي الساحلي ، **الصحافة الهزلية في تونس ، نشأتها وتطوّرها** ، تونس 1977 .

4) عمر بن قفصية، **أضواء على تاريخ الصحافة التونسية** ، تونس 1972 .

5) فيليب طرازي، **تاريخ الصحافة العربية** ، بيروت 1913.

6) محمد حمدان، **دليل الدوريات الصادرة بالبلاد التونسية (القسم الأول)**، منشورات بيت الحكمة، تونس 1989.

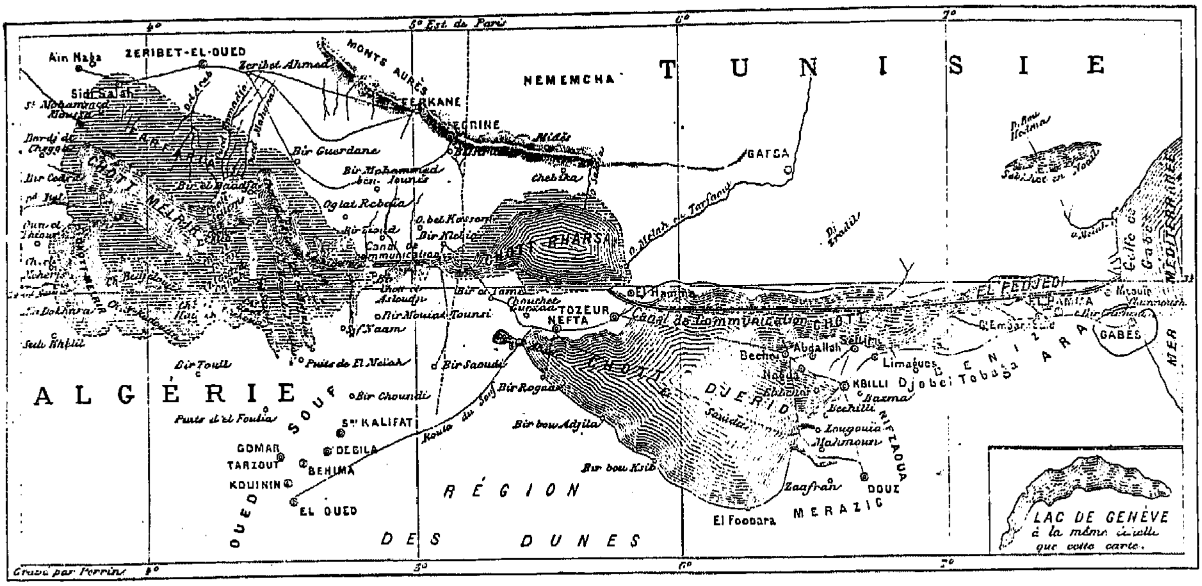
7) محمد الشعبوني، **الصحافة بصفاقس من 1904 إلى 1982** ، صفاقس، 1986.

8) محمد صالح المهيدي، **تاريخ الصحافة العربية وتطوّرها بالبلاد التونسية** ، منشورات معهد علي باش حانبه ، تونس 1965.

9) محمد الفاضل بن عاشور، **الحركة الأدبية والفكرية في تونس** (الطبعة الثالثة) ، تونس 1983.

10) محمد محفوظ ، **تراجم المؤلفين التونسيين** ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1985.

حمادي الساحلي



مشروع شطّ الجريد أو بحر الصّحراء

عينت السلط الفرنسية الاستعمارية الضابط الشاب فرنسوا رودير[1] FRANCOIS ROUDAIRE بالجزائر سنة 1860 وكانت مهمّته الأساسية تتمثل في اقامة الخارطة المسحية (الطوبوغرافية) للبلاد الجزائريّة.

وقد كان رودير انشغل بفكرة لبول ماريس PAUL MARES[2] مضمونها أن البحر الأبيض المتوسط كان في السابق يتصل بشكل طبيعي بشطوط (المفرد :« شطّ» وليس «شاطيء) [3] هي ، شطّ ملغيغ وشط غرسة و شط الجريد وهذا الشط الأخير يقع كاملا بتراب البلاد التونسية فيما يمتدّ الشطان الأول والثاني على تراب البلاد الجزائرية ..... .

لذلك فإن رودير قد سخر كامل حياته لتحقيق هذا المشروع الذي هو « البحر الداخلي الافريقي - LA MER INTERIEURE AFRICAINE » باعادة ماكان قد زال بفعل عوامل الزمان.

وكانت الأوساط العلمية والسياسية في وضع يجعلها مستعدة لسماع مقترحات من هذا القبيل نظرا للجدوى التي أثبتتها مشاريع مماثلة مثل مشروع قناة السويس(4) بمصر ومشروع قناة باناما (5).

لقد اقتضت الظروف أن يعود رودير إلى فرنسا ليشارك في الحرب الفرنسية الألمانية كضابط عسكري وما أن انتهت الحرب حتى عاد سنة 1870 إلى الجزائر من جديد .

كانت الأشغال الأولية التي قام بها رودير كافية لإقناعه بأنه لن تحصل له رؤية شاملة ومتكاملة للمشروع إذا لم يقم بزيارة للبلاد التونسية....

وهكذا فلقد اقتضى البحث والدرس أن ينظم رودير ثلاث سفريات (حملات - expéditions) إلى البلاد التونسية وكانت هذه الرحلات العلمية قد شغلت الأوساط السياسية والعلمية وفي مقدمتها صاحب مشروع قناة السويس سابق الذكر فرديناند دي ليسابس FERDINAND DE LESSEPS . أما على المستوى السياسي فإن المشروع قد أخذ أبعاداً أخرى ، استراتيجية و جغراسياسية واقتصادية استعمارية. (2)

عندما أصبحت الأشغال موضع أخذ ورد من قبل العلماء و السياسيين إلى حدّ الرفض القطعي وبينما كان دي ليسابس بصدد إقناع أكاديمية العلوم أن موقف اللجنة العليا لا يعني هذه الدرجة القصوى من رفض مواصلة الأبحاث ...وبينما كان رودير يخوض غمار حملة جديدة بقابس في البلاد التونسية...في هذه اللحظة الحاسمة أصيب رودير بمرض في الكبد توفي على إثره سنة 1885 (2)

إن حماس فرديناد دي ليسابس للمشروع واقتناعه بجدواه جعله يقرر مواصلة ما كان رودير ينوي تنفيذه فقام بتعيين ضابط آخر بالجيش كان من أقرب مساعدي رودير وهو الضابط لنداس LANDAS....

وكانت مرحلة الضابط LANDAS بإشراف F. DE LESSEPS تقوم على مقاربة جديدة تقتضي المبادرة بإنشاء مرسى بمدينة قابس التونسية.... وقد تحمّس لنداس

بدوره للمشروع واقتنع بجدواه وآمن بنجاحه بسبب معانيته لوجود آثار عديدة لحنايا AQUEDUCS (2)

إلا أن أحلام ماريس MARES و رودير ROUDAIRE و تيسّو TISSOT ودي ليسابس F. DE LESSEPS و لنداس LANDAS ومن قبله الجنرال فاف GENERAL FAVE لم تجد ما يكفي من الظروف لتجسيمها على أرض الواقع واكتفى ليسابس بالتحصيل من باي تونس على ترخيص لإقامة مرسى بقابس (2).

ويبدو أنه على إثر اكتشاف النفط بالصحراء طالع خمسينات هذا القرن (1952 - 1953) قد عاد الحديث عن المشروع ليشغل الأوساط السياسية والاقتصادية من جديد....

والمهم أنّ الحفر قد أعاد الاعتقاد أنه هناك ارتباط بين منطقة الشطوط وبين البحر الأبيض المتوسط في العصر الجليدي وأنه بالفعل فإن البحر كان يمتد إلى منطقة الشطوط (6) وان مياه البحر الأبيض المتوسط قد انخفضت بمرور العصور انخفاضا أدى إلى ظهور حاجز قابس الصخري الذي فصل بين قابس والشطوط الذي فصل البحر والشطوط حتى جفت وبقيت سباخا مالحة (6). هذه المعطيات جعلت مشروع رودير يصاغ صياغات جديدة.

في سنة 1958 ظهر لويس كيفران بمشروع جديد المعالم تماما وهو يقوم على البلوغ إلى نفس الغاية مع توخي طرق ووسائل جديدة ، فهو يقترح تحويل مياه نهر النيجر من جهة على مشارف مدينة تمبكتو وتوجه نحو الشمال إلى المنطقة المحيطة بـ (تاؤود يني) حيث تقسم المياه هناك الى فرعين ، يتجه أحدهما في منعطف واسع إلى صحراء موريتانيا ليصب في المحيط الأطلسي قرب العاصمة نواق الشط ويتجه الثاني شمالا الى بلدة عين صالح ومنها يمتد في أنانيب إلى قلعة فلاترز حيث يتسرب إلى وادي أغرغر المتحجر فينساب مع مجراه إلى شط ملغيغ وبقية الشطوط المنخفضة. ويرى صاحب المشروع أن التنفيذ لا يحتاج إلى حفريات كثيرة (6).

أما في سنة 1959 فإن جمعية الأبحاث الفنية لدراسة بحر الصحراء الداخلي التي حاولت إعادة إحياء مشروع رودير منذ سنوات قد تخلت عن المشروع لفائدة مؤسسة البحث العلمي التي تفرع عنها اتحاد التعدين الفرنسي ...وكان المقترح يتمثل في شق قناة عبر شط الجريد عمقها يتراوح بين 400 و 700 يارد واتساعها

بين ميل ونصف وميلين اثنين وربع الميل مع إقامة سد ضخم على شط الجريد قرب مدينة توزر لتوليد الكهرباء (6).

أما الحكومتان التونسية والجزائرية المستقلتان فإنهما قد بعثتا مؤسسة مشتركة خاصة بالمشروع إلا أنه قد وقع حلها قانونيا سنة 1989

أولا : جولات المشروع علميا وميدانيا

رأينا أن رودير إثر عودته إلى الجزائر بعد الحرب الفرنسية الألمانية قد اقتنع بضرورة السفر إلى البلاد التونسية لاستكمال الرؤية حول مشروع بحر الصحراء، أو البحر الداخلي الافريقي ولقد حصلت له هذه القناعة بعد أن قام بأعمال وتجارب علمية وميدانية.

فلقد شرع رودير سنة 1873 في أشغاله فتبين له أن شط ملغيغ ينخفض عن مستوى البحر من الجهة الشرقية 30 مترا (2) . فدرس مؤلفات ورحلات القدامى من عرب وأعاجم أمثال أبي عبيد البكري (7) وأبي محمد التجاني (8) الذي كان بصحبة شيخ الموحدّين أبي يحي زكرياء (9) قد قطع منطقة الشطوط (2) وأمثال أبي الحجاج (10) الذي وصف رحلة يودف بل المنسين (كذا) وهو جغرافي(11)..وأبي سالم العياشه (كذا) (12) والمولى أحمد (13)...كما عاد رودير إلى مصنفات الأعاجم ومنهم هيرودوت Herodote (14) وسيلاكس SCYLAX (15) ويومبونيوس ميلا POMPON- IUS MELA (16) وبتوليمي PTOLEMEE (17). ثم نشر نتيجة مطالعاته هذه كبحث علمي بمجلة العالميْن La Revue des DEUX MONDES (2) وبذلك كانت للمشروع أصداء مهمة فأعلن رائد مشاريع قنوات البحار فرديناد دي ليسابس مساندته العلمية لمشروع رودير....

وارتقت المسألة إلى دوائر القرار السياسي فصادقت الجمعية الوطنية الفرنسية (البرلمان الفرنسي) سنة 1874 على قرض للمشروع تلاه تنظيم أول الارساليات إلى إفريقية تحت إدارة رودير الذي قدم للوزارة تقريره سنة 1877.

أولا : 1 : السفرية الأولى

قاد هذه السفرية صاحب المشروع نفسه القبطان فرنسوا رودير وكان له مساعدون هم السيدان باريزو PARIZOT ومارتان MARTIN وهما قبطانان بهيئة الأركان (2) والطبيب العميد جاكومي JACQUEMET ومندوب جمعية الجغرافيا السيد هـ. دوفايريه H. DUVEYRIER والتلميذ مهندس المناجم لوشاتليية LE CHATELIER ممثل وزارة الأشغال العامة الفرنسية.....

وقد اعتمدت هذه السفرية على خدمات 30 رجلا من لفيف افريقيا تحت إمرة القبطان كوموا COMOY و 20 من جنود الجرّ وبعض الصبايحية (2).

وقد وصلت السفرية يوم غرة ديسمبر 1874 وبعد الصعوبات الادارية التي تعرضت لها بسبب مواقف الإدارة الفرنسية ببسكرة وبفضل الاعانة الثمينة لجمعية الجغرافيا تمكنت السفرية خلال خمسة أشهر من إنجاز مهمتها. وقد ابلى الجنود الافريقيون (المغاربيون) البلاء الحسن (2).

وأثناء الأشهر الخمسة أمكن لسفرية القبطان رودير الأولى العودة إلى بسكرة بالجزائر بعد أن جابت منطقة الشطوط (ملغيغ - غرسة - الجريد....)

لقد وقع مسح 650 كلمترا فيما تراوح الاحديداب بين 150 و200 مترا (2). ومن العبر التي استخلصت من إنجاز هذه الأشغال ضرورة مواصلة العمل بالتراب التونسي وبالذات بخليج قابس لمعرفة مدى قابلية المشروع للانجاز (2).

وبما أن ولاية تونس بلد أجنبي بالنسبة للدولة الفرنسية في ذلك العهد قبيل الحماية الفرنسية على تونس فلقد وقع الالتجاء للطابع العلمي للموضوع كهامش للمناورة إزاء السلط التونسية وبناء على ذلك وبمبادرة من م. تفيل M.WATTEVILLE رئيس دائرة بوزارة المعارف الفرنسية أصدر الوزير بعد استشارة لجنة البعثات Commission des missions قرارا بتكليف رودير بالقيام بأعمال مماثلة للّتي كان قام بها في الجزائر وذلك بمنطقة الشطوط التونسية وكان ذلك في طالع سنة 1876 (2) فارتحل رودير إلى تونس مصحوبا بالسيدين ميشال باروني MICHEL BARONNET وهو مهندس مدني وكرمون CORMON وهو دهّان أورسام (Peintre) (2)...

ولقد أحسنت السلط التونسية استقبال الوفد «العلمي» الذي أنهى أعماله في مدة شهرين اثنين (2) وقد تمثلت في قياس تضاريس 460 كلمترا بخليج قابس ارتفاعا وانخفاضا...بداية من الخليج وإلى غاية الحدود الجزائرية (2).

إن الحماس في الإنجاز لم يكن يعني الوصول إلى نتائج مشجعة بل على العكس فإن سرير شط الجريد كان أرفع موقعا من البحر الابيض المتوسط وبذلك تكون مساحة البحر الداخلي منخفضة بحوالي 5000 كلم مربع إلا أن شطي ملغيغ وغرسة

يشكلان لوحد هما حوضا مساحته 8.200 كلم مربع وهو ما يساوي 14 أضعاف أو 15 أضعاف مساحة بحيرة جينيف وذلك بعمق متوسط يزيد عن 20 مترا. (2)

فاستخلص رودير النتيجة كما يلي :

إن التأثير الذي كان يراد أن يحصل على مستوى مناخ المنطقة بتنفيذ المشروع لن يفقد قيمته . أما المنافع على الأصعدة التجارية والسياسية والعسكرية فلن تكون مخالفة لما وقع تصوره والتخطيط له. (2)

وقد اقترح رودير الحل الذي رآه مناسبا لمعظلة وسط شط الجريد الذي كان مملوءا بكميات كبيرة من المياه وذلك بجعله متصلا بشط غرسة وهو أقل منه ارتفاعا بشكل كبير فتكون من نتائج ذلك امكانية توفير مساحة معتبرة من الأرض الخصبة الصالحة للزراعة (2).

وقدمت نتيجة هذه الإرسالية من طرف رودير إلى وزير المعارف الفرنسي في تقرير مصحوب بخارطة (سلم 1/ 400.000) وقد احتوى التقرير ستة فقرات هي 1) ملخص الأعمال السابقة ـ 2) الأعمال المنفذة في البلاد التونسية ـ 3) هوية حوض الشطوط وخليج تريتون ـ 4) ملخص لأعمال بسط الأرض المراد تنفيذها ـ5) نتائج وضعية حوض الشطوط ـ 6) مناقشة الطعون الموجهة ضد المشروع.

أولا = 2 : السفرية الثانية

إن الانتقادات التي وجهت لأعمال رودير المتصلة بمشروعه (مشروع البحر الداخلي الافريقي) حتمت ضرورة المزيد من البحث والتمحيص (2).

ولكي تنجز هذه التحريات العلمية في شكل دراسة أكثر مثلما كانت طالبت بها أكاديمية العلوم L'ACADEMIE DES SCIENCES فإن مجلس النواب الفرنسي قد انعقد وعلى اثر تقرير السيد جورج بيران GEORGES PERIN وقع الاقتراع على قرض بتاريخ يوم غرة فيفري 1878 (2) وبعد أن صادق مجلس الشيوخ الفرنسي (SENAT) على القرض المذكور شرع رودير في تجهيز السفرية الثانية وكان من مساعديه السادة : باروني BARONNET و جيغو JEGOU المهندسان المدنيان واندري ANDRE الطبيب عميد و ديفور Dufour واليغرو Allegro المترجمان وديرو DEROEUX ضابط صف بقوات الجيش ورئيس الحفر (2) .

انطلقت السفرية في شهر نوفمبر 1878 وكانت هذه المرّة مجهزة بالحفارات appareils de sondage أو السابرات وذلك علاوة على معدات المسح (الطوبوغرافيا) والتسطيح (nivellement) وكانت السابرات محمولة على ظهور الجمال .

ومن الصدف أن فرديناد دي ليسابس كان يوجد بتونس العاصمة (18) في نفس الفترة فقرر الالتحاق بسفرية رودير بقابس (2) ولقد وصل بالفعل الى مرسى قابس يوم 27 نوفمبر 1878 على متن الباخرة شامبلان (LE CHAMPLAIN) التي سخرتها له وزارة البحرية وكانت الباخرة قد حلت بتونس العاصمة قبل يومين (25/ 11 / 1878) (2).

ومن الغد قام دي ليسابس في قابس بصحبة رودير و باروني وجيفو بعملية استطلاع على متن الخيول فتوجهوا إلى منبع الوادي المالح واقفين على حدود قابس وقد عادوا في نهاية نفس اليوم بعد الطواف بحوالي 60 كلم (2) .

وبينما عاد دي ليسابس إلى باريس حيث تنتظره التزاماته تواصلت أعمال السبر وكان الانطباع الذي حصل له هو أنه لم يقع العثور في أي مكان صخور صلبة وأن ضفاف وادي مالح شديدة الارتفاع إنما هي في حقيقة الأمر من الرمال المتماسكة... ولقد حدّث أعضاء أكاديمية العلوم يوم 05 - 12 - 1878 بما استخلصه خلال زيارته لقابس (2).

كان يوم 4 ديسمبر 1878 عرف إنجاز أول عملية سبر في نقطة تجمع مياه وادي مالح على بعد 8 كلم غربي بلدة وذرف...(2) وتواصلت عمليات السبر منذ ذلك التاريخ وإلى حدود 17 ماي 1879 بدون انقطاع ولا هوادة (2).

وكانت حصيلة الارسالية الثانية 28 عملية سبر أنجزت 11 منها بمشارف قابس و14 بشط الجريد وواحدة بمشارف موية السلطان الواقعة بين شط الجريد وشط غرسة وبذلك فإن المسابر قد حركت سواكن 670 مترا من الأرض أما الأعماق التي بلغتها أعمال السبر فقد تراوحت بين 08 و 17 مترا تحت مستوى الأرض المنخفضة مخترقة طبقات الأرض المتكونة من الرمال أو كتل الرمل أو كتل الوحل دون سواها أي دون وجود الصخور. هذا مع ضرورة استثناء مشارف قابس حيث وقعت ملاحظة وجود الكلس في مستوى من الارتفاع يتراوح بين 12 و20 مترا وقد وقع الاحتفاظ بـ 265 عينة من التراب تمّ تصنيفها...وفي نفس الوقت وقع حساب ارتفاع سطح مساحة تساوي 422 كلم وذلك بين كل من خليج قابس وشط غرسة (2).

وكانت هذه الأعمال الدقيقة قد أفضت إلى نفس النتائج العلمية التي أسفرت عنها السفرية الأولى على مستوى البلاد التونسية سنة 1876 فجاءت الأعمال الجديدة

مؤكدة لسابقتها ومكملة لها (2). وإلى جانب ذلك فإن السفرية الثانية قد سجلت ملاحظات حول الحالة الجوية (ميتيورولوجية) بشكل منتظم كما انها قد احتفظت بعدة عينات تتصل بفن التاريخ الطبيعي (2).

ومثلما كان الأمر بالنسبة للسفرية الأولى فإن رودير في هذه السفرية الثانية قد لخّص الاشغال في صلب تقرير قدمه لوزير المعارف عند العودة إلى باريس وكان هذا التقرير هو الآخر مصحوبا بخارطة (سلم 400.000/1) وبمقطع جيولوجي لحوض الشطوط وبه ملحقان أولّهما حول المياه (هيدر ولوجي) وثانيهما حول الجيولوجيا (طبقات الأرض) والباليونتولوجيا (علم الاحاثة) أعدهما السيدان درو DRU و مولنيه شالماس MULNIER - CHALMAS وقد نشر التقرير بملاحقه في «آرشيف البعثات العلمية والأدبية : - « ARCHIVES des MISSIONS scientifiques et littéraires

وكانت تلك أهم الأعمال الميدانية والعلمية للسفرية الثانية.

أولا = 3 : السفرية الثالثة

أولا - 3 - أ : التعقيدات الإدارية

إن نتائج السفرية الثانية غير الحاسمة والتي هي لا تشحذ العزائم ولا تحبطها جعلت الموضوع يتجاوز أنظار وزير المعارف ليصبح من أنظار رئيس الحكومة الذي هو في نفس الوقت وزير الخارجية بل ويرتفع إلى مستوى رئيس الجمهورية الفرنسية.

فبالاتفاق مع دي ليسابس يقترح رودير على الحكومة بعث شركة هدفها تحقيق المشروع لقاء لزمة (CONCESSION) لمدة 99 عاما موضوعها عائدات الصيد البحري والملاحة والعبور (Transit) بالاضافة إلى الأراضي التي ستصبح صالحة للزراعة والموجودة على ضفاف البحر الداخلي حسب المشروع (2).

وبناء على ذلك عرض رئيس الحكومة وزير الخارجية السيد فريسيناي FREY-CINET على رئيس الجمهورية الفرنسية تقريرا قدمه له يوم 27 افريل 1882 أو يوم 27 ماي 1882 (2).

وبناء على ذلك تكونت لجان لدراسة المشروع منها ما سمي : اللجنة العليا أو اللجنة البرلمانية (2) التي ضمت شخصيات علمية كبرى إلى جانب أعضاء من

مجلس الشيوخ ونواب بالجمعية الوطنية الفرنسيين وممثلين عن وزارات : الشؤون الخارجية والمالية والحرب والبحرية والأشغال العامة و التجارة والفلاحة و وزارة حكومة الجزائر وأخيرا أعضاء ينتسبون لأكاديمية العلوم وللهيآت العالمة بصفة عامة وهم السادة :

انطوان دابادي A. D'ABADIE عضو المعهد (كذا) (19) وآدمون باكارال E.BECQUEREL عضو المعهد ودويرى DAUBRE المتفقد العام للمناجم وعضو المعهد ودوما DUMAS الأمين القار لأكاديمية العلوم وأمير اللواء فافي GENERAL FAVE عضو المعهد، وفورنيي FOURNIER المهندس الرئيس للجسور والطرقات وفريمي FREMY وجامان JAMIN العضوان بالمعهد...وأيضا السادة :

لافالاي LAVALLEY المهندس المدني ومقاول أشغال قناة السويس ودي ليسابس عضو المعهد ومولينوس MOLINOS مهندس مدني مدير أشغال مرسى لا راينيون LA REUNION والعقيد بيريي Colonel PERRIER ورونو RENOU مدير المرصد الجوي بسان مور ST MAURE وفيزان VISIN المتفقد العام للجسور والطرقات وايفون فيلارسن YVON VILLARCEAN عضو المعهد ووكيلي رئيس اللجنة البارغريفي A.GREVY وسادي كارنو SADI CARNOT.

وقد تفرعت هذه اللجنة إلى ثلاث لجان تفرغت كل واحدة منها لمظهر من مظاهر المشروع.

وقد عقدت اللجان الفرعية اجتماعاتها بمقر وزارة الخارجية وصاغت تقريرها العام وأعمال اللجان في صلب وثيقة سميت « اللجنة العليا لدراسة مشروع البحر الداخلي لجنوب الجزائر وتونس ، الذي قدمه القبطان رودير » (20) .

أما الموقف العام الذي يمكن استخلاصه من هذا التقرير فهو أن اللجنة العليا أو البرلمانية لا تساند كثيرا مشروع البحر الداخلي بمقولة : « أن اللجنة ويعد تثمينها للأشغال التي قام بها السيد رودير ويعد تقريرها لشجاعته وإقدامه اللذين واجه بهما الصعوبات المنجرة عن الدراسات التي قام بها خلال الثلاث سنوات الأخيرة بجنوب كل من الجزائر وتونس.... بعد كون ذلك فان اللجنة تعتبر ان إقامة البحر الداخلي تتطلب تكاليف لا تتناسب بالمرّة مع النتائج التي يمكن أن نأمل في حصولها.......وإن رأي اللجنة تبعا لذلك هو أنه ليس للحكومة الفرنسية أن تشجع هذا المشروع» (2) و (20).

وقد أسست اللجنة العليا موقفها على عدة اعتبارات فنية وعلمية ومنها خاصّة أنه لا يصال ماء البحر إلى حوض شطي غرسة وملغيغ فإنه لا يكفي قطع مشارف قابس ومشارف كريز بل ان مثل تلك النتيجة يقتضي حفر قناة صالحة للملاحة يساوي طولها تقريبا 200 كلم وعرضها 30 مترا أمّا عمقها فلا يقل عن 14 مترا (2) و(20) وانه حسب هذه المعطيات فان الاشغال اللازمة للتنفيذ تتطلب مدة لا تقل عن 10 سنوات (2) و (20) كل ذلك وان مساحة البحر الداخلي لن تكون متقاربة مع ما وقع تصوره في البداية هذا وأنه فيما كان رودير قدر أن تكاليف المشروع لن تزيد عن 75 مليون فإن تقرير اللجنة العليا قد قدر هذه التكاليف بما لا يقل عن 800 مليون وباحتساب خدمة الفائض عن كامل مدة الأشغال (10 سنوات) فان التكاليف ستبلغ ما لا يقل عن مليار و 300 مليون (2) و (20).

فما كان من رودير إلاّ الردّ بعنف على تقرير اللجنة البرلمانية العليا بملحوظات مناقضة نشرها سنة 1883 تحت عنوان البحر الداخلي الافريقي (2).

وكان موقف دي ليسابس هو الآخر غير متفق مع وجهة نظر اللجنة وقد حاول نقض دفوعاتها في الاجتماع الأخير حيث قدم قراءته الشخصية لتقارير اللجان الفرعية مقررا أنها لا تنطوي على الرفض قائلا « إن البحر الداخلي لا يجلب أية مضرّة ، بل على العكس فهو عامل يساعد على تنمية السياسة الاستعمارية، وعلى تطوير المناخ وعلى توفير أسباب خصوبة الأرض وعلى تطهير المنطقة.... »

و من أرحام هذه الظروف الصعبة ولدت الإرسالية الثالثة

أولا= 3 ـ ب : مهادنة رودير للجنة العليا

أخذاً بخاطر بعض أعضاء اللجنة فقد غير رودير رسم القنال ليجعله يمر من مشارف كريز عوضا عن مروره من مشارف مويه السلطان وهو الخط الأكثر استواء والأقل التواء.

والملاحظ أن اللجنة الفرعية الأولى قدرت مصاريف الأشغال بهذا المكان على أساس أنها منطقة تقوم على الصخور الصلبة ولم يكن بالإمكان مناقشتها في رأيها هذا لأنه لم يقع سبر المنطقة المذكورة على الإطلاق. ولكي يقع دفع اللجنة فإنه لا بد من التثبت من حقيقة الوضع الجيولوجي وهو ما يتطلب ترفيعا مهولا في المصاريف والتكاليف.... هذا وان كانت لرودير قناعة بأن جيولوجيا المنطقة الكائنة بين كريز وتوزر أقل ارتفاعا مما هي عليه في كريز وأن باطن الأرض

هناك مكون من الرمال، إلى جانب أن الاستجابة إلى مقترحات اللجنة الفرعية الأولى يقتضي كذلك إتمام عمليات قيس سطح الأرض بشط غرسة (2).

وهكذا وبالاتفاق مع دي ليسابس وثلة من الرجال الذين آمنوا بالمشروع نظّم رودير خلال شهر ديسمبر 1882 السفرية الثالثة....(2). وقد ساعده فيها السادة باروني BARONNET (21) و دفور DUFOUR (22) و دورو DOROEUX و اليقرو ALLEGRO (23).

توجهت السفرية إلى توزر وقد تجهزت بسابرات تصل إلى أعماق تتراوح بين 80 و100 مترا وقد اتفق على أن يلتحق بهم دي ليسابس بمجرد أن تتقدم الأشغال بمقدار معلوم (2) وكان حلول السفرية بتوزر يوم 22 جانفي 1883 ومن الغد انطلقت الأشغال وكانت نقطة البداية العلامة التي سبق تركها إبان معالجة شط الجريد خلال سنة 1879 (2).

ولقد بينت الأشغال ان المشارف التي تفصل شط غرسة عن شط الجريد هي تقريبا أفقية الهيكلة بين دقاش وتوزر وأن ارتفاعها بالنسبة لمستوى البحر يتراوح بين 79 و 84 مترا .

وقد تواصلت الأشغال التي ابتدأت يوم 27 جانفي 1883 بدون انقطاع فشملت أعمال قياس السطح الأرضي على مسافة 200 كلم سواء على مشارف حوض شط غرسة أو داخله وبهذا أمكن تلافي النقص الذي أشار إليه تقرير الرئيس فريسيناي وأصبحت المعطيات المتصلة بشط غرسة معروفة وبالدقة الكافية وهي الدقة التي اتصفت بها الأشغال المتصلة بشط ملغيغ...وهي في الحقيقة لا تبتعد كثيرا عن المعطيات التي سبق أن وفرها رودير مضمنة مع المعطيات الطوبوغرافية (2).

وبما أنه لا توجد أية واحة فإن التغييرات ستكون طفيفة بحيث أن اتجاه الضفاف لن تعرف تبديلا على مستوى خط امتدادها (2).

وفي يوم 12 مارس 1883 بلغ سبر مشارف توزر عمق 58.61 مترا وقد وقع العثور على الماء بعد حفر لم يتجاوز عمق 22 مترا ظل تدفقه مستقرا. وان السابرة لم تخرق إلا طبقات الرمال غير الدسمة مما جعل الأشغال تتم في معظمها بآلة غير معقدة.

وفي هذه المرحلة قدم دي ليسابس من فرنسا مصحوبا بفريق من المهندسين ومقاولي الأشغال وما أن وصلوا إلى قابس حتى كان رودير و باروني و ديفور واليقرو في استقبالهم فيما بقي دورو مشرفا على الأشغال في توزر.

ولقد ثبت أن نتيجة الأشغال كانت إيجابية من كل وجهات النظر.. وأن المقاربة الأخيرة المنطلقة من توزر قد جاءت مقنعة وأتت بالحل الكامل ذلك أن جيولوجيا المكان أقل ارتفاعا ممّا هي عليه بجهة كريز وبمقدار12 مترا وهي تتشكل من تربة هشة ولا يوجد بها ولو متر مكعب واحد من الصخر الصلب.

وهكذا كانت القافلة قد وصلت بسكرة بالبلاد الجزائرية يوم 13 افريل 1883. وقد صاغ دي ليسابس تقريرا قدّمه لأكاديمية العلوم يوم 16 أفريل 1883 (2) ويتلخص رأي دي ليسابس في :

أن دقة الأشغال العلمية فوق كل الشكوك.

أنّ حفر القنال لملء البحر / المشروع لا يمثل أية صعوبة

انه حتى مع قبول التبخر والملوحة فإن البحر ستطول مدة عمره لأن مدة ألف أو ألف وخمسمائة عام تعادل الخلود بالنسبة للأعمال البشرية.

أن البحر / المشروع عامل لجلب الخير والخصوبة

هناك منافع تجارية وعسكرية وغيرها تنجرّ عن تنفيذ المشروع.

ثانيا= الأبعاد المختلفة للمشروع

إن المنافع التي ستنجرّ عن شق قناة في خليج قابس إلى شط الحامة (6) والذي سيسمح لمياه البحر الأبيض المتوسط بالانسياب إلى منطقة الشطوط فتصبح بحرا متسعا يربط بين الجزائر وتونس كانت بالنسبة لصاحب المشروع رودير ونصيره الأول دي ليسابس وغيره ممن آمنوا به قد كانت (أي المنافع) موضوع نقاشات علمية وسياسية نلخص أهم ما جاء فيها.

رأينا أنه عندما تكونت اللجنة العليا أو اللجنة البرلمانية فإنه قد انبثقت عنها ثلاث لجان فرعية وهي :

- اللجنة الفرعية التقنية Technique

- اللجنة الفرعية المختصة بمسألة نتائج تدفق المياه في القناة

- اللجنة الفرعية لدراسة المضاعفات البحرية والتجارية والسياسية.

وبفضل أعمال هذه اللجان وردود رودير ومناصريه اتضحت أهميّة المنطقة على أكثر من مستوى وأكثر من بعد ، فهذه نتائج جغراسياسية وأخرى أمنية الخ .... فضلا عن النواحي الاقتصادية من منظور استعماريّ.

ثانيا : 1 : البعد الفلاحي ـ الاستعماري

إن المصاريف التي يتطلبها انجاز المشروع الرامي إلى إقامة البحر الداخلي الافريقي باهضة وقد رأينا أن الأرقام التي تصورتها اللجنة البرلمانية العليا تبلغ ملياراً و300 مليون ولذلك فلقد تفتقت الأذهان على مختلف الأبعاد و المنافع التي يمكن أن تنجرّ عن تنفيذ المشروع / الحلم . ولعل أهم المظاهر التي يمكن أن تحسس الرأي العام الفرنسي ليتولى بالتالي الضغط على دوائر القرار هو المظهر الفلاحي الاستعماري فوجود الاستعمار بشمال افريقيا قائم على الاستغلال الفلاحي قبل كل شيء ، و قد كان لفظ « المعمر » Colon يعني الفلاح الفرنسي...

إن الأوضاع الفلاحية الاستعمارية بالجزائر لم تكن في تلك الحقبات من القرن التاسع عشر إلا عاملا مبررا للعمل على تنفيذ المشروع....

من المعلوم أن الاحتلال الفرنسي للجزائر قد بدأ هامشيا أي أنه لم ينصب على الهياكل الاقتصادية في أول أمره إذ أن طبقة الطفيليين والمحتالين سماسرة المشاريع الوهمية كانوا أول من حلوا بالجزائر وقد انخرط معهم البعض من القواد أمثل الجنرال كلوزيل (24) في هذه الصفقات الوهمية والمحرمة كالمحالّ الليلية ودور القمار والسمسرة الوهمية..

على أنه وبعد الحرب مع الأمير عبد القادر (25) توقف الزحف على الجزائر بل ان عديدين قد قفلوا راجعين إلى فرنسا، وعندما بدأت السياسة الاستعمارية الفرنسية تتجسم عمدت السلط العسكرية الفرنسية في غمار الحرب مع الأمير عبد القادر إلى حجز الأراضي الشاسعة وتركيز الأوروبيين والاغداق عليهم بالقروض حتى يستثمروها ولا يفروا منها (24) وقد أسفرت هذه العملية عن خروج ثلاثة أرباع الأراضي في ضواحي العاصمة من يد أصحابها الجزائريين ودخلت في حوزة الأوروبيين (24).

وتطورت الأحداث وبعثت السلطات الفرنسية بالجزائر ماسمي « بالمكاتب العربية ـ Bureaux Arabes » (26) تمكنت بواسطتها من الاستيلاء على الحياة الادارية في المناطق التي احتلتها (24)....و ان تغيُّر الحكم في فرنسا من ملكيّ إلى جمهوري لم يؤثر على السياسة الاستعمارية بالجزائر (27) إذ لم تبلغ سنة 1860 حتى أصبح عدد الأوروبيين الذين يملكون الأراضي بالجزائر يساوي 200 ألف من بينهم 120

ألف فرنسيا (27). حتى أن احالة الأراضي لم تعد مجرد هبات بل إن المعمرين أصبحوا يشترون الأراضي من السلط الاستعمارية (27) بل إن الشركات الكبرى ورؤوس الأموال الضخمة دخلت في الميدان مثل شركات : « جينوفوان» و «ماكنّا» و «الشركة الجزائرية » وهي شركة فرنسية (27) وأصبح أصحاب الأراضي الأصليون عمالا في هذه الشركات وهاجر آخرون إلى الأراضي القاحلة وتفشّت فيهم المجاعة حتى أن حوالي نصف مليون نفر قد هلكوا بين سنتي 1867 و 1868.. (27)

إلا أن الفلاحين الفرنسيين هم أيضا قد أصابهم الكساد بسبب رداءة الإنتاج فلقد انقرضت فلاحة القطن سنة 1865 وفشلت تجارب فلاحية أخرى مثل قطاعي السكر والقهوة وتدنى إنتاج التبغ (27) وتراكمت ديون فلاحي الحبوب الذين صاروا يسوغون أراضيهم للجزائريين أو أنهم يستغلونها بالطرق غير المتطورة التي يعمد إليها الأهالي الجزائريون (27) وباختصار فإن عملية الاستعمار قد أصبحت كلها على أبواب الفشل (27).

ولئن ازدهرت فلاحة وحيدة وهي فلاحة الكروم التي أصبحت أقوى نشاط اقتصادي خلال 1865 فإنها قد كانت تبتلع القروض سواء من بنك الجزائر أو من الاعتمادات المتأتية من فرنسا (27) ..ولقد أصابت الأمراض العنب.

تلك هي إذا، حال أهم الأنشطة الاقتصادية للمستعمرين الفرنسيين بالجزائر...لذلك فإن الآذان ستكون صاغية لمشروع رودير لما يحتوي عليه من وعود بالنهوض بالقطاع الفلاحي...

يقول رودير إنه بمجرد إقامة البحر الداخلي فإن التبخر سيحوّل يوميا 28 مليون متر مكعب من الماء إلى بخار ، فلقد لوحظ في بسكرة من بداية شهر أفريل إلى موفى شهر سبتمبر أن الرياح الجنوبية الشرقية تهب مدة 130 يوما من واقع 180...وهكذا فإن الكمية الكبيرة من الماء والتي قدرت بـ 28 مليون م 3 ستدفع بها الرياح إلى البلاد الجزائرية (2) وأن مقداراً كبيرا منها سيتحوّل إلى سحب وإلى أمطار بمجرد أن تطرأ عليها البرودة عند التقائها بسلسلة جبال الأطلس (2) التي قدر لها اتجاهها الغربي / الشرقي أن تلعب دور المكثّف (2).

ويواصل رودير قائلا إن الأمطار بهذا الشكل الغزيرستكون عامل خير لمنطقة حال جفافها دون المعمرين ودون انتفاعهم بخصويتها (2) ويضيف رودير أنه بقطع

النظر عن الأمطار فإن التبخّر لوحده يمارس تأثيرا إيجابيا على المناخ ..وأن التبخر سيصبح بمثابة الشاشة الحائلة دون قساوة أشعة الشمس في النهار وضد الإشعاع في الليل (2).

ويقرر روديز أن تأثير نسمات البحر القارة سيكون إيجابيا ويصل مداه إلى بسكرة وبذلك فإنه لا مناص من الاعتراف بأنه علاوة على خصوبة التربة فإن أسباب استقرار إقامة الاوروبيين بالمنطقة ستصبح من تحصيل الحاصل (2) ويقول روديز أن خصوبة جنوب الجزائر وتونس في العهد الروماني تفسر بأن الشطوط في تلك العصور قد كانت ملأى بالماء ولقد انتهت تلك الخصوبة عندما جفت الشطوط(2).

ويعلق روديز على أهميّة البحر الداخلي على صعيد التحولات المناخية وتطوير المنتوج الفلاحي بأنه أمر لا يقبل المجادلة (2)....

ويعدد روديز النتائج الايجابية الأخرى مثل تغذية ميدة الآبار بالواحات (2).

ثانيا ، 2 : البعد التجاري / حركة القوافل

من المعلوم تاريخيا أن الشمال الافريقي (أي افريقية بأقسامها الثلاثة) كانت امتدادا طبيعيا للصحراء الكبرى وأن القوافل التجارية المغربية كانت تتبع الخط الصحراوي سواء لغرض التجارة أو لغرض الحجّ خلال العصر الحديث(28) ويبدو أن ذلك من التقاليد الاسلامية العريقة والأصيلة والثابتة حيث يقول عبدالله العروي: «و يبدو من الثابت أن الصلات بين نشر الاسلام والتجارة كانت وثيقة إلى أقصى حدّ » (29).

وكانت قوافل الصحراء تحمل مصنوعات الشمال من الصوف وأساور النحاس وخرزالزجاج الأزرق والودع علاوة على أهم مادة تصدر للسودان وهي الملح وكانوا يبادلونهم بالذهب والرقيق(30)

أما قبل دخول فرنسا إلى الجزائر سنة 1830 فإن النشاط التجاري للجزائر في اتجاه إفريقيا والصحراء قد انحصر بالخصوص في ريش النعام وبعض المواد الاخرى (31) وكانت هناك قوافل رحلات مضبوطة المواعيد تجوب البلاد ....أما الظاهرة الطاغية على التجارة فهي الأسواق الاسبوعية (31) ويبدو أن الصحراء قد أصبحت مصدر خطر لا تأتي منها غير الكروب. ذلك أن الأمير عبد القادر في إطار خطته الأمنية قد ابتنى في الخط الفاصل بين السودان والصحراء عدة

حصون منها حصن سعيدة (32) مما يسهل - نظريا على الأقل - عملية الاستعمار الذي يصل إلى هدف تركيز استعمار توطيني أوروبي عن طريق أو بواسطة تدمير سافر وشامل لمنظومة علاقات الانتاج القديمة في الداخل (33) فلا حاجة إلى تدمير علاقات الانتاج القديمة هذه إذا كانت لم توجد أصلا.

ولقد أعاد رودير إلى الاذهان ما في التاريخ التجاري للمنطقة قائلا : « لقد كانت قوافل السودان تأتي إلى الجزائر للتبادل وهي لذلك تعبر شط آماغدور AMAGDOR وورغلة ولقد أصبحت الآن تذهب إلى طرابلس والمغرب » (2).

وأخذ يشرح البعد التجاري لتنفيذ مشروعه ذاكرا أن إقامة البحر الأفريقي من شأنه أن يوفر فرص إقامة المراسي القديمة من غدامس وطرابلس فلا تصل القوافل إلى المغرب وتضطر للتعامل والتبادل معنا في أحسن الظروف (2).....

وحسب رودير فإن القوافل القادمة من السودان لئن كانت لا تترك فرصة للتعبير عن عدائها للنصارى وأن من أشكال تلك المعاداة المقاطعة التجارية فإن التهيئة العمرانية الجديدة التي ستكون عليها الأرض بعد إقامة البحر الافريقي ستجعلهم يشعرون بأنها أرض محايدة وليست أرض نصارى وأن التخفيض في الأثمان من شأنه أن يشجعهم على التعامل مع أهل المنطقة وتجارها (2).

والحق أن الاوضاع التجارية للقسم التونسي من الشطوط لا يشبه حالة الشطوط الجزائرية فشط الجريد محاط بمنطقة الجريد ، نفطة وتوزر والوديان والحامة كمراكز كبيرة وذلك فضلا عن التجمعات الصغرى مثل ؛ عباس وبلاد المدار ودقاش وزرقان و اولاد ماجد وكريز... ولمنطقة الجريد أنشطة اقتصادية متنوعة مثل الصناعات التقليدية وتربية الماشية من إبل وضأن والدهان والقطران والانتاج الزراعي وخاصة التمور بأنواعها (الحرّة وجرعيم والكنتيشي) (34).

إلاّ أن طرق التصدير إلى الخارج قد انعدمت في القرن التاسع عشر بانكماش القوافل الافريقية التي كانت موجودة ويشكل مزدهر في القرن الثامن عشر (35) وبما أنه لا يوجد بالبلاد التونسية أي واد قابل للملاحة (36) وأن وسيلة نقل البضائع كانت بالنسبة لداخل البلاد على ظهر الدواب من إبل وخيل وأحمرة (35) وأما بالنسبة للخارج فإنها قد كانت بفضل البواخر الأجنبية الأوروبية (35) إذ لم يكن للبايات أبدا أسطول بحريّة تجارية حسب الاستاذ مصطفى كريّم (35) وأنهم

(أي البايات) لم يكن لهم نشاط قرصنة بحريّة بل على العكس فانهم قد كانوا عرضة لقرصنة فرسان مالطا المسلحين أو قرصنة الصقليين (35) وهنا نتبين قوة وشطارة بعض القياد رجال الأعمال (مثل الجلولي وابن عياد) وبعض التجار (مثل الحاج يونس الجربي) الذين تعاطوا التجارة بالاشتراك مع البايليك في سوق البحر الأبيض المتوسط (37) فهم بالفعل قد غيروا مجرى التقاليد التونسية في هذا المجال ضرورة أن الحكام المراديين ومن بعدهم الحكام الحسينيين قد أهملوا سياسة الجهاد البحري الاسلامي على الرغم من قيام حكام الجزائر وطرابلس الغرب بعمليات جهاد بحري...ورغم أن موقع تونس الجغرافي وطبيعة سواحلها على البحر المتوسط تتيح لها مباشرة تلك العمليات...(38)

ويسبب هذه العوامل فإن أهالي غدامس قد جعلوا لهم ممثلين بتونس إذ أنهم قد سيطروا سيطرة شبه كلية على التجارة (39) وقد كان الجريد بالذات أحد مركزين إلى جانب تونس العاصمة من المراكز التي يمر منها الحجيج القادمون من المغرب (تازة) ويقومون بعمليات التبادل التجاري (39).

ولهذا فإن إقامة البحر الافريقي وتجهيزه بالمراسي من شأنه بالفعل أن يطور تجارة البلاد التونسية وينوع اتجاهاته....

أما بالنسبة إلى المنافع التي ستنجر للتجارة الجزائرية (أي الفرنسية) فإن إقامة البحر الأفريقي سيمكن من ترويج البضائع في اتجاه الشرق كما رأينا ذلك (2) وفي اتجاه مناجم الغرب (2) وفي الغابات الكائنة شرقا وغربا (2)

ثانيا : 3 : البعد السياسي العسكري

قال رودير في خصوص الحيثيات السياسية لمشروعه إنه منذ أن احتلت فرنسا الجارة تونس في عام 1881 أصبحت مسألة الأهمية السياسية لحوض بحري كبير تتحكم فيه فرنسا لوحدها...مسألة بديهية لا تقبل الجدال إذ سيمدّ النفوذ الفرنسي من قابس (بالبلاد التونسية) إلى بسكرة (بالجزائر) (2)

إن قناة (أو قنالا) بعمق قدره 10 أمتار ويعرض يتراوح بين 70 أو 80 مترا سيكون حاجزا جديا وذا نجاعة بالنسبة لقوات عسكرية مجهزة بالعتاد الملائم وسيحول دون العرب ودون عبورهم لهذا الحاجز (2) وذلك بشكل قاطع ومطلق.

وقال روديز إن حدود الجنوبين التونسي والجزائري مجتمعة انطلاقا من قابس والى حدود المغرب تغطي ما يقارب 800 كلمتر ..وأن هذا المدى الشاسع هو اليوم مفتوح تماما في وجوه العرب وأن اقامة البحر الافريقي ستجعل عبور هؤلاء خاضعا لترخيص السلط الفرنسية (2).

هذا وقد عرفت فرنسا قلاقل كبيرة في الجزائر. إن هذه القلاقل قد انطلقت من الصحراء، حيث كانت مقاومة الصحراء عنيفة طاحنة ولم تتردد القوات الفرنسية في مواجهتها بوسائل الإبادة.....(40) .....وعندما ثار أولاد سيدي الشيخ سنة 1864 صبت فرنسا نيران انتقامها على الصحراء وقد شملت بتشفيها وهران (40)....

إلا أن انتقام فرنسا قد زاد في لهيب المقاومة الشعبية في الجنوب تلتها ثورتا 1871 و 1881 ويمكن الجزم بأن ثورة 1871 قد شملت كل مناطق الصحراء (41).

وإن هذه الحيثيات لم تخف على روديز الذي لاحظ أن الصحراء قد كانت مخابئ وملاجئ الاهالي الثائرين (2) تمكنهم من استراحة المحارب ليعودوا مجددا من هذه النقطة أو تلك متسببين للقوات الفرنسية في الفشل تلو الفشل (2) وقد طالب روديز بإنشاء البحر الافريقية لأن ذلك يكون بمثابة القلاع التي ستحرس مقاطعتي الجزائر ووهران وهي قلاع متوغلة في أعماق الصحراء (2).

ويبدو أن روديز قد كان محقا في وجهة نظره تلك إذ ذكر الاستاذان شريط والميلي سابقا الذكر أن قوات فرنسية قد سارت سنة 1899 تريد إخضاع عين مالح وتيركالت و توات و غرارة فلم تستطع إنجاز مهمّتها إذ اصطدمت بالمقاومة ودارت بين الجانبين معارك دامية ...وكانت مقاومة دون هوادة جعلت الاستعمار يقيم حكما عسكريا في الصحراء سنة 1902 (41) .

ولقد تعددت أسباب تحرش فرنسا ضد الصحراء فمنها أن الصحراء كانت مخبأ للمقاومين الفارين من الشمال (42) ومنها كذلك أن أهالي الصحراء يقاومون أحيانا إلى جانب المقاومين في الشمال فقد دافع عن العاصمة سنة 1830 من المزاب مثلا 4000 رجل...كما كانت فرنسا تريد وضع يدها على الصحراء حتى تراقب التجارة مع افريقيا السوداء عبر مناطق الصحراء (42) .

ولذلك اقترح روديز تنفيذ مشروع بحر الصحراء حتى يصبح بإمكان القوات العسكرية الإبحار من بسكرة ومباغتة أية حركة عصيان من الخلف (2) هذا فضلا

عن أن العرب عندما سيجدون أنفسهم بين نارين فإنهم لن يفكروا مستقبلا في أي شكل من أشكال العصيان (2).

هذا وإنه هناك شخصيات أخرى غير روديرممن سبق ذكرهمّ قد أبدوا الرأي في المسألة.

فقد قال تيسّو TISSOT إن تنفيذ مشروع رودير من شأنه أن يضع حدودا أمام قبائل الجنوب التونسي المتمردة حاليا (2) وذلك بحرمانها من امكانية اللجوء على وجه الفرار الاضطراري نحو الجنوب (2)....وبالتالي فإنه هناك دواع سياسية لبعث بحر الصحراء .

أما أمير اللواء فافي LE GENERAL FAVE فلقد عرض وجهة نظره أمام اللجنة العليا قائلا إن البحر الافريقي سيمكننا من التخفيف من عدد رجالنا من العساكر تدريجيا (2) .إن هدفنا الوحيد على هذا الصعيد هو مقاومة عصيان العرب فهم رحل ولا يقدرون على القتال إلا في الظروف الخاصة بحالتهم الحضارية، وهذه الظروف تتمثل في أن الرجال المسلمين يشكلون فيلقا منظما إلى حدّ ما ويتركون خلفهم كل ماهو ثمين من شيوخ ونساء وأطفال وقطعان وبصفة عامة كل ما يملكون من النفائس وهو ما يسمونه (السمالح أو الصمالح SMALAH) (43) (كذا) وذلك تجنبا للخسارة المطلقة فإذا خسروا معركة أو حربا حافظوا على ما يعتبرونه نفيسا (2) .

وبناء على هذه المعطيات انبرى أمير اللواء فافي يحلل ويشرح منتهيا إلى ضرورة تمكين القوات العسكرية الفرنسية من مرونة التحرك على ساحل البحر الأبيض المتوسط هذه المرونة غير الموجودة في الظرف الراهن وتحصل هذه المرونة في التحرك بتدريبهم بشكل مستمر على عمليات التنقل بحرا والإبحار والإرساء كما لو تعلق الأمر بالتدرب على المناورات التي يتعود عليها كل عسكري..وعلى هذا الأساس فإن الحاجة لن تكون إلى بوارج حربية تجوب البحر الداخلي وإنما إلى مجرد أساطيل نقل صغيرة تماما كما كان يصنعه الرومان بما جعلهم مهابين رغم محدودية امكانيتهم القتالية البحرية (2) .

واختتم قوله بالموافقة على تنفيذ المشروع إذا لم تتجاوز تكاليفه مبلغ 150 مليونا (2) .

ومن جهته فإن الأميرال جوريان دي لاقرافيار L'AMIRAL DE LA GRAVIERE قد أبدى رأيه حول تأثير مشروع البحر الافريقي الداخلي على الناحية البحرية العسكرية (2) وبين ذلك من زاويتي الدفاع والهجوم(2).

تلك هي أهم المعطيات حول مشروع القبطان رودير المعروف بمشروع البحر الداخلي الافريقي.

الاحالات

(*) التجأنا في ترقيم الإحالات إلى الاختصار قدر الاستطاعة، وذلك بأن جمعنا المتعدّد منها في رقم واحد أردناهُ أن يكون دالاً على المصدر أو المرجع المقصود. وهذا أفيد للقارىء، كما نعتقد.

1) ولد فرنسوا رودير بمدينة قيرات GUERAT سنة 1836 وكان ابوه مهندس قيس اراض وقد كان تلميذا متفوقا بالمعهد الموجود بمسقط رأسه (قيرات) عمل لدى محام وأعد شهادة الباكالوريا ليلتحق بباريس حيث انخرط بمدرسة سان سير ST. CYR وكان عمره إذاك 17 عاما وقد ظهرت ميوله للطوبوغرافيا فوقع ارساله بعد تخرجه للجزائر ليعمل بميدان الطوبوغرافيا بالذات. كان سنة 1860 برتبة قبطان وقد ساهم في الحرب الالمانية الفرنسية وجرح في مدينة وارث WERTH. وفي سنة 1883 رقي إلى رتبة ملازم وعلى إثر توعك صحته بسبب مرض في الكبد عاد إلى مسقط رأسه حيث مات يوم 18 جانفي 1885.

2) LA MER INTERIEURE AFRICAINE in les nouvelles conquêtes de la science. Imprimerie Crête de l'Arbre - Corbeille - France - 1 - pp : 747 - 808.

3) الشط : انظر عن الشطوط التونسية : H. SETHOM et A. KASSAB. Les régions géographiques de la Tunisie - Publications de l'Université de Tunis - 2ème Serie geographie - Volume XIII - 1981 p. 128.

4) LE CANAL DE SUEZ in les nouvelles conquêtes de la science ... pp. 431 - 625.

5) LE CANAL DE PANAMA idem pp. 626 - 724.

6) محمد المرزوقي - **قابس جنة الدنيا** - مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد - 1962 - (ص ص: 55 - 57) وقد استقى المعلومات عن جورج غير ستر من خلال تعريب خيري حمّاد لكتابه بعنوان : **الصحراء الكبرى** - بيروت - 1961.

7) ابــو عبــيد البكــري : **المسالك والممالك** ومنه « **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** ». تحقيق دوسلان - باريس 1964 الطبعة الثانية.

8) أبو محمد التجاني : صاحب **الرحلة** انظر (**رحلة التجاني** - تحقيق حسن حسني عبد الوهاب - الدار العربية للكتاب - تونس / ليبيا - 1981 ص ص من بي الى تج.

9) أبو زكرياء الحفصي :(1228 - 1249)

10) أبو الحجّاج : هو « أبو الحاج يوسف ابن زيري » صاحب التأليف المعروف (**الكافي في الوثائق**) ، انظــر **رحلة التجاني** تحقيق حسن حسني عبد الوهاب - الدار العربيــة للكتــاب - 1981 - ص ص : 155 و 441 .

11) يودف بل المنسين :بل هو « يوسف بن المنصور » **رحلة التجاني** - م. س - ص - 55 وهو بالفعل قد قام برحلة إلى توزر بحيث تطابق الخبر في المصدرين.

12) سالم العياشية : هو « ابو سالم العياشي » صاحب (**الرحلة العياشية**) أو (**ماء الموائد**) - المطبعة الحجرية بفاس 1898.

13) المولى أحمد : صاحب رحلة في جنوب الجزائر وإمارات إفريقية ترجمها إلى الفرنسية باربرقار BERBRUGGER ونشرت بباريس سنة 1846 .

14) Herodote (هيرودوت) : مؤرخ يوناني ولد في هاليكارناس (484 ق م - 420 ق م) يروي رحـلاته بشكل يجمع بين الحقيقة والاسطورة . زار افريقيــة ومصــر وفــاس .

Nouveau petit Larousse - Paris 1972 - p. 1406.

15) (سيلاكس) SCYLAX : بحّار يوناني عاش في عهد داريوس الاول (DARIUS 1ér) رحل إلى الهند والجزيرة العربية (Nouveau petit Larousse - 1972 p 1384).

16) POMPONIUS (بومبونيوس ميلا) : فقيه روماني عاش فــي القرن الثاني بــعــد المــيلاد (N.P. Larousse 1972 p 1615)

17) PTOLEMEE (بتوليمي) : فلكي يوناني عــاش في القرن الثاني ، عالم حسابــيات وجغرافيــا (N.P. Larousse 1972 - p. 1625)

18) كانت لفردينا د دي ليسابس علاقات بتونس تتمثل في كون والده الكونت ماتيودي ليسابس كان قنصلا تلميذا (قنصلا مساعدا) بتونس سنة 1831 .

19) المعهد هو نفسه أكاديمية العلوم

20) Ministère des affaires étrangères - Commission Supérieure pour l'examen du projet de la mer intérieure dans le sud de l'Algérie et de la Tunisie présenté par le commandant Roudaire - 1882 - Paris - imprimerie Nationale M DCCCLXXXIII.

وقد تحصلنا على هذا الكتاب هدية من وزارة الخارجية الفرنسية على إثر طلبنا (راجع : المكتوب الصادر عن الوزارة بتاريخ 26 افريل 1993 عدد 1629 ـ ARD ـ أرشيف الوثائق ـ المكتبة).

21) شارك باروني في السفرية الاولى وفي السفرية الثانية

22) شارك ديفورفي السفرية الثانية .

23) هو يوسف اليقرو : أصبح فيما بعد حاكما (قايد الاعراض) ويمتد نفوذه إلى قبيلة ورغمة الكبيرة وقد كانت له صولات وجولات خلال سنوات 1886 و 1887 عندما التجأت ورغمة إلى طرابلس . و كانت أمه مسلمة وأبوه لويس آرنولد آليقرو وهو طبرقي من أصل جنوي رغم أن جده جوزاف اليقرو كان عونا قنصليا اسبانيا ببنزرت .

راجع . Mongi SMIDA - Consuls et Consulats de Tunisie au 19ème siècle - Imprimerie de l'orient - Tunisie 1991 - pp 83 -85.

عبد الرحمان تشابجي، **المسألة التونسية** ـ تعريب د. عبد الجليل التميمي ـ دار الكتب الشرقية تونس ـ 1974 ـ ص ص 189 ـ 191).

24) الدكتور عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي ـ **مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي** ـ المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر 1985 ـ ص ص 268 و 269.

25) الامير عبد القادر : قائد جزائري نظم المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي ـ بايعته الجزائر على الامارة يوم 27 نوفمبر 1832.

26) تنطق من قبل العامة والخاصّة في تونس « بيروعرب »

27) د.ع. الله شريط و م. م الميلي ـ م ـ س. ص 270.

28) الدكتور عبد الجليل التميمي ـ **الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا خلال العصر الحديث** . منشورات المجلّة التاريخية المغربية ـ عدد 7 ـ تونس 1981 ـ ص 19

29) الدكتور عبد الله العروي ـ **تاريخ المغرب محاولة في التركيب** . ترجمة الدكتور ذوقان قرقوط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 1977 ـ ص 107.

30) الدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش ـ **دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب افريقيا** ـ دار الغرب الاسلامي ـ بيروت 1988 ـ ص 52.

31) د.ع شريط و م م الميلي - م س - ص ص 186 و187.

32) ن. م - ص 233

33) الدكتور خالد المنوبي - **اقتصاد المغرب العربي ورأس المال العالمي** - دار توبقال للنشر - الدار البيضاء المغرب - 1987 ص 69 .

34) Abdelhamid Henia : LE GRID, ses rapports avec le beylik de Tunis (1876 - 1840) - Université de Tunis - Ecole Normale Supérieure - 3ème série : Histoire 1er volume - Tunis 1980 pp. 33 -35.

35) Mustapha Kariem. La Tunisie Précoloniale - Tome 2. STD. Tunis 1973. p. 34.

36) مصطفى كريم - م س . ص 31

37) محمد الهادي الشريف : **ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس** دار سراس للنشر - تونس 1980 - ص 93.

38) رأفت غنيمي الشيخ - **في تاريخ العرب الحديث وجهاد الاندلسيين** - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة 1992 - صفحة 350.

39) مصطفى كريم - م س - ص 69 و 70

40) الدكتور عبد الله شريط ومحمد مبارك الميلي - م س - صفحة 263

41) د، ع. الله شريط و م. م الميلي - م س - صفحة 264.

42) ن. م - صفحة 262

43) SMALAH (كذا) . لعلها ، الزّمالة وهي نوع اللفافة الطويلة يزمل بها الرأس وتكون أحيانا من الحرير. راجع : محمد المرزوقي - **مع البدو في حلّهم وترحالهم** - الدار العربية للكتاب - تونس / ليبيا - 1984 - ص 240 .

محمد بن الأصفر



تاريخ المسرح التونسي من البدايات إلى 1956

I ـ الظواهر المسرحيّة الاولى في تونس

مما لا شكّ فيه أنّ التونسيّين عرفوا المسرح منذ عهد الرومان على الأقل مثلما تشهد بذلك الآثار القديمة لمسارح الهواء الطلق المنتشرة في عديد المدن التونسيّة. لكن هذه الآثار وما تحمله من تقاليد مسرحيّة لم تتواصل مع الفتوحات الإسلاميّة [1]. كذلك فإن أول عرض مسرحي قدم سنة 1742 أمام علي باي وحاشيته والذي قدمته فرقة مسرحية فرنسيّة وقعت في أسر القراصنة، كان طارئا ولم يخلد تقليداً مسرحيًا [2]. لكن مصادر أدب الرحالة الغربيين تفيدنا أن الجاليات الغربية المقيمة بتونس كان لها نشاط مسرحي كبير خاصة منذ بداية القرن الماضي.

و من الأكيد أن الجاليات الأجنبيّة الموجودة بتونس أقامت مسارح لها وقدمت عروضا مثلما تؤكد شهادات الرحالة الذين زاروا تونس خلال القرن التاسع عشر. ويورد Grandchamp أن أحد أصحاب القاعات تعاقد مع فرقة مسرحية من مدينة Mi-lan بإيطاليا سنة 1826 ، لكن أغلقت القاعة بسبب وفاة زوجة حسين باي ورفع الممثلون قضيّة ضد صاحب القاعة الذي عدل عن دفع أجورهم [3]. كما يذكر الرحالة Greenville Temple خلال مروره بتونس سنة 1832 أنه تعرف على قاعة مسرحيّة تعرض 4 مرات في الأسبوع [4]. أمّا السويسري Gottfried Scholl الذي زار تونس سنة 1842، فإنّه حضر عرضا مسرحيّا بقاعة بناها Tapia من الحطب [5] كما يذكر A.Dumas أنه شاهد سنة 1846 بتونس إعلانات إشهاريّة لبعض المسرحيّات تقوم بدور البطولة فيها السيدة Squi [6] .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كثر عدد المسارح ففتح مسرح Le Carthaginois أبوابه سنة 1860 للفرق الإيطاليّة، أمّا مسرح Tapia فقد اندثر على إثر حريق شب فيه سنة 1879، وأقيم مكانه مسرح Politheama Paradiso الذي تحول فيما بعد بداية من 1885 إلى المسرح البلدي بإدارة Donchet . وكذلك بنى المحامي Paul BRULAT مسرحاً بالشارع الرئيسي بتونس يقدم فيه الهواة أعمالهم. وبنفس الجهة من الشارع وفي الموقع الحالي للمسرح البلدي أقام Morel مسرحاً بني من الخشب سرعان ما انقرض سنة 1891. أما بنهج عناية (شارل ديقول حاليا) وبزاويته فقد عرف مسرح صغير تتوسطه حديقة احترق سنة 1885، أقام على انقاضه David Cohen Tanugi مسرحاً جديداً.

وعلى إثر إنشاء المسرح البلدي بقيادة Donchet سنة 1885، أسّست الجالية الإيطالية مسرح Politheama Rossini الذي سيلعب دورا كبيرا بالنسبة لبدايات المسرح التونسي. كما لا يفوتنا ذكر قاعة المسرح الموجودة بنهج اسبانيا حاليّا وكذلك مسرح ARENA للهواء الطلق الذي سيصبح فيما بعد المسرح الايطالي [7]. إذن كانت لمدينة تونس قاعات عديدة للعروض المسرحيّة وللجاليات المتعدّدة الموجودة بها. ومن الغريب للوهلة الأولى أن تتناول النخبة التونسيّة المسرح في كتاباتها كاكتشاف خلال رحلاتها إلى البلدان الغربية منذ أواسط القرن التاسع عشر. وربما يرجع ذلك لاكتشافهم المكانة المميّزة للمسرح في المجتمعات الغربية والتي لم تكن واضحة عند الجاليات بتونس.

ولم تَخْلُ أي رحلة من وصف المسرح في البلدان الغربية فأحمد بن أبي الضياف[8] وبيرم الخامس[9] وخيرالدين [10] ومحمد السنوسي [11] ومحمد بن الخوجة [12] وغيرهم عرّجوا على ذكر المسرح في الغرب وإن اختلفوا في إعطاء تعريف واضح لهذه الظاهرة الثقافية الغربيّة حسب مدى إلمامهم بالثقافة الغربية ولغاتها. إذ يتوسّع خيرالدّين في ذكر تاريخ المسرح الغربي ويأتي على أهم أعلامه الفرنسيين مثل راسين وكورناي وموليار والإسبانيين مثل لوب دي ڤيڤا وكالدرون [13]. ومحمد السنوسي يذكر كذلك موجزاً عن تاريخ المسرح الغربي منذ العصر اليوناني، [14] لكن أغلب الرحالة اكتفوا بتقريبه إلى بعض مظاهر الثقافة العربيّة ـ الإسلاميّة. ولم يخف على الرحّالة التونسيين جانب الدعاية السياسية في المسرح وجاؤوا على ذكر عديد الأحداث التي عايشوها خلال رحلاتهم. [15] والتقوا جميعهم حول الاعتراض على المسرح لما يقدّمه من مواضيع غرامية إذ اعتبروها مفسدة للأخلاق كما اعتبروا احتكاك الرجال بالنساء خلال العروض من العادات السيئة التي ينشرها هذا الفن [16]. وقد حاول رجال النخبة التونسية في باب التعريف بهذا الفن الجديد بالنسبة إليهم أن يقدموا مصطلحات عربية لمختلف العناصر التقنية للمسرح، لكن القليل من هذه المقترحات اللغوية ثبت اليوم [17].

أما الظواهر الاحتفالية الأخرى والتي هي موجودة تقريبا عند كافة الشعوب ومختلف الحضارات والثقافات، فتشكل الرصيد الفرجوي والعَرْضي في التراث. وهذه الظواهر لا علاقة لها بالمسرح الغربي، فقد وجدت قبله أو بعده واستمرت إلى جانبه إلى اليوم بالنسبة للبعض منها [18].والأكيد أن نشأة المسرح الغربي بتونس لم تنطلق من ظواهر الفرجة في التراث، رغم ماكان في هذه الأخيرة من عناصر دراميّة [19].

ويمكن تقسيم هذه الظواهر الفرجوية إلى ثلاثة أنواع :

الظاهرة الأولى تهم الدورة الانتاجية الفلاحية وانفعالات الطبيعة (كطلبة النوّ) عند الجفاف أو احتفالات الربيع أو مواسم الحصاد أو حفر الآبار وجزّ الصوف وغيرها...والثانية ترافق المراحل الانتقالية للإنسان داخل المجتمع مثل الميلاد والختان والزواج والمآتم إلخ... أمّا الظاهرة الأخيرة فتقترن بالدين الاسلامي نفسه، كاحتفالات عاشوراء [20] أو المولد النبوي أو الألعاب التي تقام في الأعياد وغيرها أو التي جاءتنا نتيجة تأثيرات ثقافيّة أخرى، من أصل تركيّ كما هو الشّأن بالنسبة

لخيال الظل كاراكوز ،أو من أصل إيطالي بالنسبة إلى فن تحريك الدّمى الوارد علينا من جزيرة صقلية [21].

وتشكل هذه الظواهر الفرجوية مجموعة العروض الملائمة لمرحلة تاريخيّة معيّنة في المجتمع الريفي الزّراعي أو حتّى بالنسبة للمجتمع الحضري فمجموعة العروض التقليديّة تحتل مكانة وظيفية بارزة.

II - بداية المسرح العربي بتونس ووفود الفرق المصرية

من الأكيد أن بعض التونسيين شاهدوا عروضا مسرحية غربية بتونس خاصة بعد الحماية. وقد كان الباي وحاشيته والمقربون يذهبون لمشاهدة بعض العروض بالمسرح البلدي [22]. ومن الأكيد كذلك أن مجيئ البعض من رجال النخبة المشارقة إلى تونس وعملهم خاصة في حقل الترجمة والصّحافة كان له الأثر البالغ في التعريف بالنشاط الثقافي في البلدان العربيّة ومنها المسرح. ورغم أن زيارة يعقوب صنّوع (موليار مصر) إلى تونس كانت لغرض الدعاية لمعرض باريس الدولي فإنّ لقاءاته العديدة بالنخبة التونسيّة وحديثه الطويل حول تجربته المسرحيّة في مصر استفاد منها التونسيون [23]. وكذلك شكري غانم[24] وأنطون فرح والمصويع وغيرهم [25] .

كانت البدايات الأولى للمسرح العربي بتونس في شكل عروض مسرحيّة قصيرة مضحكة يقدمها كيكي قويطة في الحفلات الخيرية [26] وكذلك وعت الجمعيات الثقافية الأولى بأهميّة الفن المسرحي، ولذلك كانت من أهداف اتحاد جمعيتين (الهلال) و (النجمة) في أكتوبر 1905، تخرج « جماعة يتقنون صناعة التمثيل»[27] وقد عرضت الجمعيّة الموسيقيّة (الاخوة) « عمليات تشخيصيّة عربيّة وفكاهات مستظرفة...» [28] ولكن هذه المبادرات الأولى لم تتطوّر إلى نشاط مسرحي متكامل.

وسواء كانت الهيئات الأولى التي دفعت إلى خلق مسرح تونسي هي الصحافة المحلية الفرنسيّة التي بدأت تكتب عن المسرح المصري وتشجع التونسيين لحضور العروض [29]، أو السلطات السياسية نفسها وأهمّها المجلس البلدي [30] ، فإن النخبة التونسيّة ستتهيأ لاحتضان أول فرقة مصريّة بتونس في سبتمبر 1908 وتشاهد أول عرض مسرحي لفرقة (الكوميدية المصريّة) [31] التي قدّمت على المسرح البلدي مسرحيّة (العاشق المتهم). لكن أمام خيبة الجمهور واصلت الفرقة

تقديم بعض المسرحيّات الأخرى بمقهى (خريّف) مثل (البنت الطبيب) و (الإرث المجهول) و (الطبيب رغما عنه) وبعض التراجيديات مثل (تضحية أخ) أو (الشحاذة) [32] أمام عزوف الجمهور رجعت الفرقة إلى مصر وبقي البعض من أفرادها في تونس مثل مرسي بركات والست الطائرة وعبد الرحمان المنيلاوي وخاصة المطرب حسن بنّان [33] ولكن الجمهور التونسي سيتعلّق بعروض فرقة سليمان قرداحي التي ستفد في بداية شهر ديسمبر 1908. وستدافع النخبة التونسية من أجل تخصيص قاعة لعروضه بتونس [34]. وعند استحالة ذلك بدأت فرقة سليمان قرداحي عروضها بسوسة ثم بصفاقس [35]. وأخيرا استهل قرداحي عروضه بتونس بمسرحيّة (صلاح الدين) يوم 14 جانفي 1909. ثم بكل من بنزرت والقيروان. وبقيت الفرقة تعرض بمسرح «روسيني» بتونس قبل سفرها إلى الجزائر وعودتها في بداية شهر ماي 1909 قبيل وفاة سليمان قرداحي [36] .

كان لعروض سليمان قرداحي تأثير كبير على التونسيين وعرّف الجمهور التونسي بعديد المسرحيات الكلاسيكيّة أهمها (عطيل) و (روميو وجوليات) و (السيد) و(هارون الرشيد) و (البرج الهائل) و (ضحيّة الغواية) و (حمدان) و (أنيس الجليس) وغيرها...[37]. وعلى إثر وفاة سليمان قرداحي تأسس الجوق التونسي المصري [38] وقد ضمّ بعض أفراد فرقة قرداحي مثل أحمد عفيفي ومحمد زكي ومصطفى سري وأحمد عبد العزيز وماري وزهية إلى جانب ممثلين تونسيين سيقدمون لأول مرّة عملاً مسرحيًا متكاملاً منهم محمد بورقيبة وأحمد بوليمان والهادي الأرناؤوط. وقدمت الفرقة على التوالي (صدق الاخاء) و(عنترة). وغادر الفرقة بعض أفرادها من المصريين [39] ولذلك واصلت الفرقة نشاطها باستقدام عناصر جديدة منهم عبد الحميد التمار ومحمد بن عمر ومحمد الخياري وابراهيم الأكودي. وبعد جولة بمدن الساحل استقرّت بتونس لتقدّم عروضا بمسرح (بطحاء بن عياد) و بمنازل بعض الأثرياء، [40] ، ولكنها لم تعمّر طويلا.

ووفدت في نهاية شهر جويلية 1909 ، فرقة ابراهيم حجازي وتوسط في جلبها أحمد عفيفي [41]. وقدّمت هذه الفرقة في البداية عروضا بكل من المسرح البلدي وبكازينو حلق الوادي، ثمّ أبرمت عقدا مع قاعة الروسيني للعرض لمدّة شهرين[42] ورغم تقديم هذه الفرقة لعديد العروض ولأهم المسرحيات التي قدمتها فرقة قرداحي إلاّ أن الجمهور عزف عن مشاهدة العروض ولم تلاق الفرقة نجاحا، وربما كان ذلك بسبب الحملة التي يشنها البعض من أعضاء الشبيبة التونسيّة

بالجرائد[43] أو الخلافات السابقة مع بعض الممثلين [44]. وانتقلت فرقة ابراهيم حجازي على إثر ذلك إلى مصر.

وقد تزامن تقريبا مع فرقة ابراهيم حجازي قدوم (الجوق الفكاهي المصري) بقيادة محمد المغربي[45] ، ورغم إدخالها للفن الكوميدي - لأوّل مرّة - إلى تونس إلاّ أن إقبال الجمهور كان متواضعا. ويمكن أن يعزى ذلك إلى أسلوب تقديم هذه المسرحيّات الموغل في عرض مواقف لا يستسيغها التونسيّون وربما للفراغ الذي أحدثته فرقة سليمان قرداحي التي حازت إعجاب التونسيّين بصفة ملحوظة.

ولكن الجمهور التونسي سيجدد العهد مع مشاهدة العروض المسرحيّة الممتعة بمناسبة زيارة الشيخ سلامة حجازي الملحن والمغني الشهير. سافر سلامة حجازي من الإسكندريّة إلى تونس وقدّم أول عرض له وهو مسرحيّة (صلاح الدين الأيوبي) [46] يوم 16 ماي 1914 بقاعة الروسيني. وقدمت الفرقة عديد المسرحيّات منها (غانية الأندلس) و (الاتّفاق الغريب) و (هاملت) و (شارلوت) و(عايدة) و (أنيس الجليس) و(نديم) كما قدّمت مسرحيّة (اليتيمتين) بقصر الباي.[47]

لقد كان تأثير هذه الفرق المسرحيّة المصريّة الوافدة على تونس كبيراً وخاصة فرقتي سليمان قرداحي وسلامة حجازي. إذ إلى جانب تعريفها بالمسرحيّات العديدة التي ستعيد عرضها الفرق التونسية حتّى نهاية الحرب العالميّة الثانية، وإلى جانب طريقة الأداء واختيار الأزياء وباقي تقنيات الركح، فقد تأثّر التونسيون بتقليد الغناء في المسرح وإلقاء القصائد الشعريّة. وبقي نمط تقديم العروض المسرحيّة في اكتماله يستمده التونسيون من العروض المسرحيّة لقرداحي وسلامة حجازي.

III - نشأة الفرق التونسية

رغم المحاولات الأولى التي كانت لأحمد بوليمان ومحمد بورقيبة وابراهيم الأكودي في مواصلة نشاطهم ضمن الهيكل المتبقى (الجوق التونسي - المصري) ، فإن المساعدة الكبرى على تأسيس أول فرقة مسرحية ترجع بالأساس إلى مجموعة الشبّان التونسيين الذين أطروا هذا النشاط من ضمنهم حسن فلاتي والشيخ عبد العزيز الثعالبي والهادي بن الطاهر وعلي الخازمي والصادق الزمرلي والشاذلي القسطلي وغيرهم... وقد سبقت - (جمعيّة الشهامة) [48] بمبادرة جمع الممثلين والتدريب على تقديم مسرحية (صلاح الدين) وذلك منذ شهر نوفمبر 1910، لكن الخلاف الذي حدث بين أعضائها جرّ جلّهم إلى التخلّي عنها ، و بنصح بعض من

الشبان التونسيّين أسّسوا (جمعية الآداب)[49]. وربّما يرجع هذا التردد إلى الإتجاهات السياسيّة المختلفة ضمن كتلة الشبان التونسيين أنفسهم[50]. وقدمت الآداب بالمسرح البلدي خلال موسم 1911 عرضين لمسرحيّة (صلاح الدين)[51]، وعرضا لمسرحيّة (نديم) وآخر بالمسرح الروسيني[52].

كما سافرت الفرقة إلى مدينة المهدية وقدمت عرضين : (صلاح الدين) و (نديم)، وربما كان ذلك اعترافا للمساعدة التي قدّمها رجلان من أثريائها[53]، وخلال الموسم الموالي لسنة 1912 قدمت (الآداب) كل عروضها بالمسرح البلدي وهي (ميتريدات) و (روميو وجوليات) و (هيرناني) و(نديم) و (صلاح الدين) و (عطيل)[54]، ثم سافرت الفرقة إلى كل من صفاقس حيث قدمت على التوالي (صلاح الدين) و (ميتريدات) و (نديم) و (هيرناني)[55] ثم إلى سوسة حيث عرضت (صلاح الدين) و (نديم) و (هرناني)[56].

ويرجع الجهد الكبير الذي بدأت تبذله فرقة (الآداب) في تقديم مسرحيات جديدة إلى التنافس الذي بدأ على إثر خروج الملحن المصري حسن بنان وزوجته من (الآداب) وانتمائهما إلى (الشهامة). وربما حاولت جمعيّة (الآداب) تكثيف نشاطها المسرحي خلال موسم 1912 . 1913 وذلك لتجاوز الأزمة الداخلية التي تعيشها، فحاولت تقديم عروض جديدة منها (لصوص الغاب) و (الطبيب المغصوب) و(مريض الوهم) و (سليم وسليم) و(الأصمان).[57] وسافرت (الآداب) إلى الجزائر لتقديم عروض عديدة بكل من العاصمة وتلمسان وقسنطينة نالت إعجاب الجمهور فيها وذلك بفضل الدعاية التي قام بها الشبان الجزائريّون هناك[58].

ويرجع بروز نشاط جمعيّة (الشهامة) من جديد إلى نفي أهم أعضاء فرقة (الآداب) بعد أحداث الترامواي في 13 مارس 1912[59] وانضمام الممثل المصري جبران نعوم إليها إلى جانب حسن بنان وزوجته. وقد استغلت الأزمة التي تعيشها (جمعيّة الآداب) وقدّمت بداية من صائفة 1913 عديد المسرحيات منها (السيد) و(ثارات العرب) و (عطيل) و (مطامع النساء) و (مصارع الخيانة) و(هملت) و(روميو وجوليت) و (الطبيب المغصوب) و(المنذر ابن قابوس) و(هيرناني) و(صلاح الدين). وواصلت (الشهامة) نشاطها خلال موسم سنتي 1913 - 1914 بإعادة عرض بعض مسرحيات الموسم الفارط ولاقت مسرحيّة (مجنون ليلى) إقبالا كبيراً وأضافت إليها (البؤساء) كإنتاج جديد. كما استضافت فرقة (التهذيب) بصفاقس وكرمت نجل الأمير عبد القادر[60]. وربّما كان لمدير العلوم والمعارف

شارليتي بقبوله الرئاسة الشرفية للجمعية (61) دور كبير في إعانتها المادية وخاصة في تنسيق عملها مع بعض الفرق المسرحيّة الفرنسيّة.

ولم ينقطع تماما النشاط المسرحي في بداية الحرب العالمية الأولى، إذ أصبحت الفرق المسرحية تقدم العروض بعد حصولها على ترخيص من السلطات، وهكذا قدمت جمعيتا (الآداب) و (الشهامة) بعض العروض إلاّ أنّ هذه العروض أصبحت محجرّة تماما منذ دخول تركيا إلى جانب المحور سنة 1916. لكن واصل بعض الممثلين عرض المسرحيات الوطنية بالمنازل الخاصّة وذلك في نطاق السريّة (62). وإلى جانب نشاط جمعيتي (الآداب) و (الشهامة) فقد برزت بعض الجمعيات الأخرى مثل (البراعة) و (السعادة) و (حديقة التهذيب) و (النجابة) (63). لكن لم ينشط منها سوى جوق (الاتحاد) الذي أسسه الهادي الأرناؤوط (64) وجوق (الترقي) الإسرائيلي الذي عمل فيه الشريف بن يخلف مع موريس عتون قبل تأسيسه سنة 1919 (الجوق الفكاهي). كما برزت بعض الفرق المسرحيّة الجهويّة أهمّها جمعيّة (التهذيب) بصفاقس و (النجابة) بالقيروان و (جوق النجار) بسوسة مكونة من أطفال المدارس الإسرائيليّة (65) وجمعيّة تمثيلية بمدينة باجة.

IV ـ المسرح التونسي فيما بين الحربين

1ـ المزاحمة وتكاثر الفرق

كان للأحداث السياسية الأثر الكبير على تطور المسرح التونسي وخاصة على نشأة الفرق واضمحلالها. وهكذا انعكست الخلافات السياسيّة منذ نهاية الحرب على توجه الفرق المسرحيّة. فرغم دعوة المجلس البلدي لتوحيد فرقتي (الآداب) و(الشهامة) مهددا بتوقيف الإعانة (66) ، فإن هذه الوحدة لم تتم إلا بصعوبة بالغة وبعد مجادلات وخلافات طويلة، عطل عمل الفرقتين ودفع بالعديد من الممثلين إلى الاستقالة والانضمام إلى الفرقتين الناشئتين وقتها (قدماء التمثيل) التي ضمت حسن بنان وزوجته عليا والحبيب المانع وعبد الرحمان الضاوي وقدمت بعض المسرحيّات أهمّها (روميو وجوليات) و (مطامع النساء) ثم قامت بجولة فنية بالمغرب الأقصى بداية من فيفري 1923 (67). و فرقة (الهلال) التي أسسها أحد قدماء فرقة (الشهامة) محمد بحرون، وضمت كلا من الطاهر بلحاج والشاذلي بن فريخة والناصر بودربالة والأديب عبد الرزاق كرباكة وحبيبة مسيكة (68) وفيما بعد انضم إليها أيضا محمد بورقيبة وعبد العالي الكناني. وقدمت هذه الفرقة عديد المسرحيات مثل (موت قيصر) و (صدق الوداد)، وبداية من سنة 1923 مسرحيّة

(عُطيل) و (غانية الأندلس أو كارمن) [69] . لكن رغم اختيار النصوص الجيدة وإتقان التمثيل والإخراج إلاّ أن الظروف المادية من ناحية والمزاحمة الصعبة لفرقة (التمثيل العربي) التي أصبح يديرها جورج أبيض وخاصة الاغراءات الماديّة التي أصبح يعرضها علي بن كاملة على الممثلين هي التي حدّدت نشاط فرقة (الهلال) [70]. والأكيد أن تأثير جورج أبيض الذي تولى الإدارة الفنيّة لفرقة (التمثيل العربي) كان كبيراً وذلك على الأقل على مستويين : مستوى العمل الفني المحترف للفرقة ومستوى التمثيل والأداء والإخراج بالنسبة للعاملين معه. فقد لقن مبادئ التمثيل الكلاسيكي لعديد الممثلين الذين سيبرزون فيما بعد منهم ابراهيم الاكودي ومحمد عبد العزيز العقربي والبشير الرحال وصالح الزواوي وغيرهم . لكن الأسلوب الكلاسيكي الذي اتّبعه جورج أبيض في معالجته لم يستهو الجمهور التونسي الذي تربى على المسرح الغنائي لحجازي وقرداحي[71].

2 - تأثيرات المسرح المصري

وإلى جانب التأثير الكبير الذي سيخلفه جورج أبيض في تقنيات العمل المحترف من تناول للنص واستعمال التقنيات والإخراج وتحريك الممثلين وذلك عند الممثلين والعاملين في المسرح، رغم عدم تجاوب الجمهور، فإن زيارات فرقة (رمسيس) بقيادة يوسف وهبي التي قدمت أوّل عروضها في ماي سنة 1927 وفرقة فاطمة رشدي التي بدأت عروضها كذلك في شهر ماي 1932 ثم فرقة نجيب الريحاني في آخرالسنة نفسها وأخيراً فرقة ببّا عزالدين الغنائيّة في أكتوبر 1936. ورغم رداءة عروض فرقة ببّا عزالدين فإن الجمهور حضر بأعداد وافرة فاقت في بعض العروض أعداد جمهور المسرح الفرنسي [72] ، وكذلك أعجب الجمهور على اختلاف شرائحه بالمسرحيّات التي قدمتها فرقة يوسف وهبي لمقدرته الفنية العالية وفرقة فاطمة رشدي التي احتضنتها النخبة المثقفة التونسية بشكل خاص [73]. والفرقة الوحيدة التي لم تلاق عروضها نجاحا هي فرقة الريحاني رغم نجاحه الكبير في مصر وتقديمه لعروض جيدة. لكن الجمهور التونسي لم يكن ليحبذ المناظر الخليعة الراقصة التي قدمها في مسرحياته ولم يغفر له خاصة جريه المشطّ وراء المال[74].

لكن من خلال هذه التجارب وخاصة تجربتي جورج أبيض [75] ويوسف وهبي فإن المسرح التونسي سيستفيد بالدرجة الأولى من النصوص التي تقدمها هذه الفرق والتي ستجدّدُ نفس الفرق التونسيّة بإعادتها. ورغم تضايق الفرق التونسية من

مزاحمة الفرق المصريّة [76] فإنها ستستفيد من اكتمال التجربة المسرحيّة عند هذه الفرق ومن طرق الإخراج والتمثيل.

3 - بدايات تطور حرفيات المسرح التونسي

أ - علي بن كاملة والبحث عن استقلالية الإنتاج المسرحي المحترف

يعتبر علي بن كاملة أول من فكر بشكل جدّي في امتلاك البنية التحتية وفي إدخال منهج الإدارة العصريّة للمسرح [77] ويرجع ذلك لتجربته الطويلة في إدارة قاعة للسينما [78]. ورغم الصعوبات التي واجهها بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى والحريق الذي شبّ بقاعته [79] فإنّه واصل عمله في ظروف سيئة وفتح قاعة بالباساج في بداية سنة 1924. وجلب أهم الممثلين لتقديم بعض المسرحيّات إلى جانب الأفلام والعروض الموسيقيّة والغنائيّة وبعض الفصول المضحكة. وقد وفّر علي بن كاملة كل الإمكانيات المادية لإنجاح العروض كما عامل الممثّلين كمحترفين ودفع لهم أجوراً عالية [80] وسمح للبعض منهم إلى جانب ذلك بممارسة الأعمال الفنيّة الأخرى بمقابل مثل اهتمام أحمد بوليمان بالملابس وحسن بنان بالتلحين وتلقين الأغاني الخ... [81] لكن علي بن كاملة لم يستطع التوصل إلى موازنة المعادلة المالية لمسرحه وإرضاء الرأي العام وخاصة الجرائد الوطنيّة مع توفير أرباح تضمن الاستمرار لمشروعه إذ لم تكن الفرق التونسية آنذاك تستطيع تقديم عروض متنوعة ورفيعة المستوى دون الوقوع في التكرار أو كثرة الإنفاق، ولذلك قلت عروضها ولم تستغل القاعة استغلالا جيّدا. ورغم تأسيسه لفرقة مسرحيّة خاصة، فإنه لم يستطع تغطية المصاريف العامة للمسرح، لذلك التجأ إلى اقامة حفلات غنائية ومسرحيات غنائيّة راقصة وربّما سمح بتناول الخمر وذلك لضمان النجاح المادي للقاعة واستمرارها. لكن الرأي العام والصحافة لم تغفر له ذلك وشددت حملاتها النقدية فهجر الجمهور القاعة واضطر إلى غلقها في نوفمبر 1928 [82].

ب - بداية التجارب الطويلة: جمعية التمثيل العربي وفرقة المستقبل التمثيلي

واصلت فرقة التمثيل العربي نشاطها بعد رحيل جورج أبيض إلى مصر برجوع بعض الممثلين من فرقتي (الهلال) و (قدماء التمثيل)، ورغم مزاحمة فرقة (علي بن كاملة)، فإنّ الفرقة قدمت بقيادة ابراهيم الأكودي وبمشاركة حبيبة مسيكة عدة مسرحيات منها (حياة المقامر) و (المجرم البريء) و (المتسوّل الشريف) و (المنتقم)

وبداية من سنة 1928 وأمام مزاحمة فرقة (المستقبل التمثيلي)، قدمت (غادة الكميليا) و (مجنون ليلى) [83] . وبداية من سنة 1929 ستتأثر الفرقة بخروج كل من ابراهيم الأكودي وفضيلة خيتمي اللذين سيؤسّسان فرقتين خاصتين [84]. ورغم تداركها الظاهري، فإنّها لم تقدم سوى بعض المسرحيات الجديدة مثل (عبدالستار أفندي) و (المرأة المجهولة) و (البخيل) و (الهاوية) و (زوبعة في بيت) [85] وضعف نشاط (التمثيل العربي) بداية من سنة 1932 وذلك لمجيء الفرق المصريّة وكذلك لقلة النصوص الجديدة، فكان الجمهور يمل الإعادات التي لم تجتهد الفرقة في التغيير في إخراجها [86].

أما فرقة (المستقبل التمثيلي) فقد نشأت في بداية سنة 1927 بخروج البعض من الممثلين عن جمعية (التمثيل العربي) منهم البشير المتهني ومحمد الحبيب والطاهر بلحاج وبن فريخة وعلالة الصفائحي وبودربالة والقروي وكل من عزيزة ووسيلة صبري. ولم تطالبها السلطات بتأشيرة أبداً [87]. وفي سنتها الأولى، أعاد الممثلون المسرحيات التي تدربوا عليها بقيادة جورج أبيض مثل مسرحية (فتح بيت المقدس) و (عايدة) وربما تعززت الفرقة أكثربمشاركة حبيبة مسيكة [88] وقدمت الفرقة معها (النسر الصغير) و (روي بلاس) و(مجنون ليلى) و (السفّاح) [89] ولم تكن فكرة استقدام جورج أبيض للإدارة الفنيّة للفرقة سنة 1932 بصائبة، إذ أدت بها إلى خسارة مالية كبيرة بينما كانت تمر بظروف صعبة [90]، ورغم اتفاقها مع فرقة (التمثيل العربي) حول تراتيب العمل وتنظيم المهنة وتبادل الممثلين فإنها لم تصمد أمام منافسة فرقة (المسرح) الناشئة سنة 1935 [91].

ج - أزمة الجمهور وتنافس الفرق المسرحيّة

لم تكن الخلافات بين أفراد الفرق العاملة طارئة على المسرح التونسي، بل أغلب الفرق التي نشأت كان العامل الأول في نشأتها هذه الخلافات، ولكن مع بداية الثلاثينيات، كثرت الخلافات ، وتعددت الفرق الناشئة على إثرها. ورغم ما كانت تقدمه هذه الفرق من مسرحيات فإنّ تشتّت العناصر الجيّدة وقلة الإمكانيات المادية وخاصة غياب النصوص القيّمة واللجوء إلى إعادة المسرحيات القديمة، نفّرت الجمهور من القاعات. وكانت لظروف الأزمة الاقتصادية لسنوات الثلاثين والأحداث السياسية الجارية وقع هام على نشاط الفرق المسرحيّة إذ لم يستطع المسرح استيعاب كل هذه الأحداث الجارية مثل مسألة المرأة [92] والأحداث السياسية التي حاول المسرح إبرازها وعطّلتها الرقابة [93]. ولم يكن الجمهور الذي

يواكب المسرحيات يحترم تقاليد العرض المسرحي، إذ كان يتجاوب مع المسرحيات تماما كما يتجاوب مع أي حفل غنائي أو مناسبة أخرى وأدخل اضطراباً كبيراً أزعج مسؤولي قاعة المسرح البلدي [94]، وربما فسّرت كذلك الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة المتردية في الثلاثينات وغلاء تذاكر الدخول تردد الجمهور وتراجع عدده.

وأمام هذا الوضع فإن الفرق الصغرى الناشئة لم تستطع الاستمرار في الإنتاج طويلا ولم تقدّم مسرحيات هامة. ففرقة (السعادة) التي أنشأها عبد الجليل الأرناؤوط سنة 1926 قلّ نشاطها بعد سنتين فقط، أما فرقة (التقدم العربي) التي أسسها الطاهر بلحاج سنة 1926 وفرقة فضيلة خيتمي التي أسّستها هذه الأخيرة سنة 1929 والفرقة التي أسّسها ابراهيم الأكودي في بداية 1930 وكذلك (الفرقة التمثيلية التونسية)، فإنّها قدّمت مسرحيات قليلة في مدّة حياتها الوجيزة واندثرت [95]. وحتى المحاولة الأكثر جديّة لفرقة (المسرح) التي حاولت تقديم مسرحيات من تأليف أو ترجمة تونسيّة سنة 1935 فإنّها لم تعمّر طويلا.

4 ـ البلدية والسلط الاستعمارية والفرق المسرحيّة

منذ نشأة المسرح التونسي ، لم تكن العلاقة القائمة بين المؤسّسة البلدية والمسرح البلدي من ناحية والفرق التونسيّة جيّدة. فقد تصادمت الشبيبة التونسية مع موظفي البلدية خلال مجيء أول فرقة مصريّة إلى تونس سنة 1908 [96]. وقد حاولت البلدية منذ نشأة الفرق التونسيّة تقريبا أن تجعل من الإعانة الماليّة للفرق سيفا تسلطه للضغط عليها ولتلبية مقترحاتها للتقليص من عدد الفرق وتوحيدها . وقد كان لغياب قاعة وطنية وغلق المسرح الروسيني أثر كبير في تبعية الفرق التونسيّة للمسرح البلدي. هذا المسرح الذي كانت تؤجره البلدية سنويا إلى طرف ثالث لإدارته [97]. ولم يكن مسعى المؤجر سوى الربح المالي. وربما لم تكن الفرق المسرحيّة التونسيّة تستجيب لشروط العمل المسرحي المحترف من تهيئة مسبقة لمسرحيات الموسم وتقديم مواعيد لها في بداية الموسم وكذلك ترتيبات القاعة وتوفير الضمان المالي لمؤجري المسرح وغيرها... إذ لا يمكن للفرق المسرحيّة التونسيّة مجتمعة أن تغطي تكاليف عروضها إلا بعد ثمانية عشر عرضا على الأقل خلال الثلاثينات وهذه النسبة بعيدة التحقيق لقلة الجمهور[98]. وقد ساعد سوء التنظيم في بيع التذاكر خاصة وسلوك الجمهور خلال العروض في تردي العلاقة بين الفرق المسرحيّة التونسيّة ومؤجري المسرح البلدي [99]. كما استغلت البلدية

تنافس الفرق المسرحيّة التونسيّة وتكاثرها لرفض تخصيص قاعة المسرح البلدي وللتدخل حتى في اختيار المسرحيّات المعروضة [100]. وكانت سلطات الحماية شديدة أيضا على الفرق المسرحيّة. والتي تستغلّ كغطاء للنشاط السياسي، وقد رفضت التأشيرة للعديد من الفرق و سمحت للبعض الآخر بالعمل المؤقت [101]. أمّا التدخل الهامّ والمؤثر لسلط الحماية فيبرز في رقابة النصوص التي كانت تجريها لجنة للقراءة وحضور أحد الأعضاء عند التمارين. وقد وصلت هذه الوضعية بالمخرجين إلى المبادرة بإسقاط بعض المشاهد من تلقاء أنفسهم قبل عرض نصوصهم على الرقابة [102].

5 - وحدة الفرق المسرحيّة سنة 1936

لم يكن مقترح شيخ مدينة تونس في توحيد الجمعيات المسرحيّة العاملة بتونس يهدف إلى إخراج المسرح من أزمته مثلما قدّم ذلك في مقترحه ولا لتجاوز الخلافات بين هذه الفرق والتنافس فيما بينها على الإعانة الماليّة للبلدية، ولاحتّى ضمّ الجهود المسرحيّة المبعثرة أو للارتقاء بالمستوى الفني للإنتاج المسرحي [103] . لأنّ كلّ هذه العوامل تواصلت بعد الوحدة الفعلية سنة 1936 إذ تكاثرت الفرق ولم تحدث بالمسرح التونسي نقلة نوعية فنيّة أو إنتاجيّة، وكذلك بقيت المزاحمة على أشدها إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. ولكن الهدف الأساسي والأول من مشروع وحدة الفرق المسرحيّة كان مراقبة نشاطها السياسي الذي واكب الأحداث السياسية إذ شهدت هذه الفترة أكبر عدد من المسرحيّات الممنوعة من طرف الرقابة [104] وكذلك للحدّ من مطالب تأسيس الجمعيات بصفة عامّة بعد صدور القانون الجديد في أوت 1936 وهو أكثر مرونة من سابقه الصادر في سبتمبر1888 . ولذلك كانت التوصية موجهة أيضا لدمج الجمعيات في باقي المدن الكبرى فتشكل اتحاد للفرق المسرحيّة في كل من صفاقس [105] ، وسوسة والقيروان [106] على غرار ما حصل في العاصمة تونس. كذلك فإن دمج الفرق المسرحيّة خاصة بالعاصمة، وقدرة البلدية على إعانتها كان سيحد بالتأكيد في نظر السلطات من المطالبة بالإعانة ويُفشل المطالبة النقابية الناشئة منذ 1934. [107] وترأس جمعيّة (الاتحّاد المسرحي) بتونس محمد الورتاني وكان ضمن هيأتها محمد الأحمر ومحمد زروق ومحمود بورقيبة ومحمد الحبيب ومسعود بن عثمان وعبد العزيز الوسلاتي وبلحسن بن شعبان والهادي صاحب الطابع ومحمد فارح، وكلف البشير المتهنى بالإدارة الفنية للجمعية [108]. ورغم إنتاجها المتواضع نتيجة الأحداث

السياسية ودخول الحرب العالميّة الثانية وتحجير النشاط المسرحي، وخاصة انشقاق البعض من أفراد الفرقة [109] فإن جمعية (الاتحاد المسرحي) حاولت تقديم نصوص مسرحية من تأليف أو ترجمة تونسيّين وأقامت لهذا الغرض مباراة النصوص المسرحيّة. وسمحت لكتّاب مشهورين أمثال أحمد خيرالدين ومحمد المرزوقي ومصطفى خريّف وأحمد مختار الوزير وغيرهم بالمشاركة، وقدمت الفرقة فيما بين 1936 و نهاية الحرب العالميّة الثانية مسرحيات عديدة من أهمها (سي حمدون) و (القبلة القاتلة) لمحمد زروق وعبد العزيز الوسلاتي و (الكاهنة) لأحمد خيرالدين، التي لاقت نجاحا كبيراً و (اليد الآثمة) اقتباس محمد فارح و(بريد جهنّم) لمحمّد المرزوقي و (السروجي على المسرح) اقتباس حميدة الحبيب. كما قدمت خلال موسم 1938 (فتح افريقيا) لزين العابدين السنوسي و (عبد الملك ابن مروان) للبشير المتهني. كذلك قدمت (ثمن العفاف) اقتباس أحمد خيرالدين و (أبو جعفر المنصور) و(عمر بن عبد العزيز) لأحمد خيرالدين والبشير المتهني و(آخر الموحدين) لنورالدين بن محمود و (أميرة القلعة) لأحمد مختار الوزير خلال سنة 1939.

٧ - المطالبة المهنية وتطور المسرح نحو الاحتراف بعد الحرب العالميّة الثانية

تميزت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وإلى حدود نهاية الخمسينات تقريبا، بالمطالبة المهنية في المسرح من طرف العاملين فيه وبتطوير جدّي في الكتابة المسرحيّة [110] . وربّما تجسدت في هذه المرحلة كل المشاريع والطموحات التي حاول المسرحيّون تحقيقها في الثلاثينات دون جدوى.

1 - الفرق المسرحيّة العاملة بعد الحرب وتطور إنتاجها

أ - الكوكب التمثيلي والاتحاد المسرحي

برزت هاتان الفرقتان على الساحة المسرحيّة و أصبحت المنافسة بينهما على أشدها وذلك إلى اتحادهما في نهاية سنة 1947. وقد واصلت فرقة (الاتحاد المسرحي) نفس النمط المسرحي الذي بدأته منذ نهاية 1938 بتقديمها لمسرحيات تعتمد الفكاهة الشعبية والفلكلور مثل (كيد النساء) و (عم عثمان التياس) و(شد مشومك) و (سي حلويسة) و (سلاك الواحلين) وبعض المسرحيات الميلودرامية سنة 1946 مثل (الضحية) و (فاجعة في بيت) و (الذّبائح) . ورغم أن هذه

المسرحيات لاقت نقداً لاذعاً من الصحافة إلا أنّها شدّت لها جمهوراً كبيرا في تلك الفترة[111] . كما قدمت في الموسم الموالي بعض المسرحيات التاريخية والتي حاولت فيها معالجة فكرتي الوطنية والتاريخ[112] وقدمت مسرحيتين للأديب جلال الدين النقاش (الجاسوسة تبر) و (المأمون) ومسرحية (عبد الملك بن مروان) للبشير المتهني. وواصلت نشاطها بعد عودة نورالدين بن عمر من فرنسا وإنهاء دراسته، فقدمت بعض النصوص الجديدة مثل (موسى الهادف) و (أنا أنت وأنت أنا) و(ست البدور) و (خاتم سليمان) و (كاز يمودو) ترجمة أحمد خيرالدين[113].

أما فرقة (الكوكب التمثيلي)، فالمسرحيات التي قدمتها كان جلّها لكتاب تونسيين بارزين اعتنوا بالمسرح التاريخي، مثل (المعز الصنهاجي) لخليفة السطنبولي و(ولادة وابن زيدون) لعبد الرزاق كرباكة و (عبد الباسط) لمحمد زروق، وكذلك (الواثق بالله الحفصي) و (طارق ابن زياد). و إلى جانب هذه المسرحيّات قدّمت الفرقة بعض المسرحيّات الهزلية مثل (الطبيب المغصوب) و (مريض الوهم) وتوقفت عن النشاط بتطوّر أحداث الحركة الوطنية.

وتحت تأثير الأحداث الوطنية وحركيّة النشاط النقابي الذي يشمل قطاع المسرح توحّدت فرقتا (الكوكب) و (الاتّحاد) تحت اسم (اتحاد كواكب التمثيل)، ولكن رغم الدافع الوطني للعمل وإرادة الممثلين ووقوف النقابة وراء مجهوداتها فإنّ هذه الوحدة لم تدم أكثر من سنتين (1947-1949). وخلال هذين السنتين قدمت مسرحيّة (الطاغية) و (عائشة القادرة) و (انتقام المهراجا) ثمّ مسرحيّة (فتح افريقيا) لزين العابدين السنوسي و (بنت الشاه بندر) و (ليلة من ألف ليلة) لبيرم التونسي و(توبة وشعفة). ورغم مشاركة أشهر الممثلين في هذه الفرقة منهم أحمد بوليمان والطاهر بلحاج وعلالة الصفائحي وشافية رشدي فإن نشاطها كان أقل كثافة من الفرقتين الأصليتين[114].

ب - الفرق المسرحيّة الاخرى

وإلى جانب هذه الفرق نشطت فرق أخرى مثل (المسرح التونسي) و (الرابطة التمثيلية) التي أسسها صالح الزواوي سنة 1944 وفرقة (النصر) سنة 1945 و(الرياض المسرحي) سنة 1948 وفرقة النادي الإفريقي و (الرسالة المسرحية) سنة 1950 و (النهضة التمثيلية) بحمام الأنف وكانت إنتاجاتها غير منتظمة ومتواصلة[115] . ولكن نشطت في هذه الفترة و إلى استقلال البلاد سنة 1957

فرق أخرى أهمها فرقة (تونس المسرحيّة) التي أسّسها البشير المتهني سنة 1947 والتي واصل فيها النمط المسرحي الكلاسيكي المحبذ لديه والذي تلقاه عن جورج أبيض فقام بإخراج (الانتقام الرهيب) و (مجنون ليلى) و (ماري تيدور) و(هيرناني) و (النسر الصغير) إلى جانب بعض المسرحيات الهزلية مثل (عم عثمان المشحاح) و (جحا) و (البخيل) لموليير. كما قدمت فرقة (نجوم الفن) التي أسستها شافية رشدي بمساعدة صالح الزواوي سنة 1949 (عائشة القادرة) و (آه من بابا وحماتي) و (أمّي) [116]. أما فرقة (أنصار المسرح) والتي تداول على مساعدتها عديد المسرحيين مثل شافية رشدي والهادي القرجي وحمادي الجزيري، فقدمت (العباسة) في مارس 1950 ثمّ (عفيفة) و (هرناني) و (الموت لازمة والعذاب علاش) و (العبآسة أخت الرشيد) و (المعز لدين الله الصنهاجي) و (ضحية الواجب) [117]. وإثر مروره العابر في إدارة الفرقة البلدية، أنشأ حمادي الجزيري فرقة مسرحيّة وقدّم معها عديد المسرحيات الهزلية والسكيتشات منها (سلاك الواحلين) و (الدنيا عجائب) وغيرها...

2 - الوضع الاجتماعي للمسرحيين وتطور المطالب المهنية

رغم طموح العاملين بالمسرح التونسي في تقديم أعمال متميّزة وعلى مستوى فنّي وتقني عال وذلك منذ نشأة المسرح الأولى، إلاّ أنّ الإطار العام الذي تطور فيه المسرح بقي هاويا إلى نهاية الحرب العالميةالثانية. ولم يكن المسرح المورد الأساسي لأي ممثل أو مخرج أو تقني. ومع تطوّر العمل المسرحي، أصبح أقدم الممثلين يطلبون مبالغ تفوق المبتدئين وذلك إلى جانب الأجور المرتفعة للممثلات، بالإضافة إلى نفقات التنقل والصرف. وأصبح العمل بحسب الرتب جاريًا بصفة رسميّة منذ بداية العشرينات [118] لكن مع الأزمة الاقتصادية في الثلاثينات ، بادر المسرحيون بمحاولة إنشاء نقابة للدفاع على وضعيتهم والمطالبة بالمساعدات المادية من قبل البلدية وسلط الحماية وتمكينها من الفضاءات [119]. لكن لم يبدأ العمل الفعلي إلا مع سنة 1946، انطلاقة الاتحاد العام التونسي للشغل وقد مهدت لجنة الدفاع عن المسرح التونسي، انطلاقة نقابة الممثلين. وفعلا عملت هذه النقابة على ضمّ جهود الممثلين بتوحيد فرقتي (الاتحاد المسرحي) و(كواكب التمثيل) وكثّفت جهودها للمطالبة بإرساء الاحتراف وتلبية سلطات الحماية وعلى رأسها البلديّة مطالب الإعانات الماديّة وخاصة التكوين [120]. وكللت مجهودات نقابة

الممثلين بتأسيس الفرقة البلدية ومدرسة التمثيل العربي وهي أوّل مدرسة لتدريس التمثيل بتونس.

3 - الفرقة البلدية ومدرسة التمثيل العربي

لم تتأسس الفرقة البلدية دفعة واحدة ، بل على أربعة مراحل. فتحت تأثير النقابة والحملات الصحافية وافقت البلدية في البداية على تأسيس فرقة موسيقيّة تابعة لها ثم على فرقة مسرحية. وبعد جلسات عديدة بين الممثلين والبلدية تمّ الاتّفاق على تكوين فرقة مسرحيّة لمدّة تجريبية بداية من 1951 وأسند لحمادي الجزيري الإشراف عليها [121] وبدأ الممثلون التمارين على مسرحيّة (بياعة الخبز). لكن أمام عدم تسديد البلدية مرتبات الممثلين، أوقف الممثلون العمل. وأمام إضراب الفرق المسرحيّة طلبت البلدية من متعهد الحفلات المصريّة بتونس جلب زكي طليمات لتقديم عملين مسرحيين أحدهما درامي والآخر غنائي. ورغم معارضة نقابة الممثلين، اختار زكي طليمات الممثلين وقدم مسرحية (تاجر البندقيّة) لشكسبير وأوبرا (ليلة من ألف ليلة) في جوان 1954. وبعد نجاح زكي طليمات وافقت البلدية على إبقائه على رأس الفرقة للإشراف على الجانب الفني وأسندت الإدارة إلى محمد عبد العزيز العقربي. كما شكّلت لجنة لمساعدة زكي طليمات تكوّنت من محمد الحبيب والبشير المتهني والهادي العبيدي وقبلت رسميا مبدأ الإحتراف. وتمّ اختيار الممثلين القارين وحدّدت درجاتهم ومكافآتهم . وقدّمت الفرقة البلدية عديد المسرحيات منها (الحجاج بن يوسف) و (يوليوس قيصر) لزكي طليمات و(الجمل ما يراش حدبته) للعقربي و (جيل اليوم) و (صقر قريش) و(ضاع صوابي) و(ولد اشكون ها المغبون).

لا يمكن فصل المطالبة المهنيّة عن التكوين في تونس ، فالتكوين كان من أهم مطالب جمعيّة الدفاع عن المسرح التونسي. وطالبت الجمعيّة بإسناد منح لدراسة الفن المسرحي بفرنسا [122] ثمّ بتأسيس مدرسة للتمثيل. وفعلا تأسّست مدرسة التمثيل العربي في فيفري 1951 بإشراف وتمويل من إدارة العلوم والمعارف [123].

الهوامش

1) ابن عذاري المراكشي - **البيان المغرب** - الدار العربية للكتاب - تونس 1982 - تحقيق ج و س كولان-وإ-في بروفانسال-الجزء الاول-ص34-35.

2) Grand champ Pierre- Autour du Consulat de France à Tunis-Tunis 1943.

3) Grand champ Pierre - op.cit.

4) Greenville .T.Temple.Excursions en Mediterrannée Alger et Tunis.

5) Darmon Raoul- " un presque siècle de Theâtre en Tunisie" Bulletin" économique et social de la Tunisie . Mai 1951

6) Charfeddine Moncef - Alexandre Dumas à Tunis- Impressions de voyage. Edition IBN Charaf - Tunis. 19. S.D.P. 36.

7) بالنسبة لمواقع هذه القاعات بتونس يمكن مراجعة

Canal Albert. la littérature et la presse Tunisiennes de l'occupation à 1900.

La renaissance du livre, Paris 1923

8) أحمد بن أبي الضياف - **اتحاف أهل الزمان** - المطبعة الرسمية - تونس 1963 - الجزء الخامس - ص 103.

9) محمد بيرم الخامس - **صفوة الاعتبار** - المطبعة الاعلامية ، مصر 1302 هـ -

10) خيرالدين باشا - **أقوم المسالك في التعريف بأحوال الممالك** تحقيق المنصف الشنوفي - الدار التونسية للنشر- المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1986.

11) محمد السنوسي - **الرحلة الحجازية** - تحقيق علي الشنوفي -الشركة التونسية للتوزيع - 1976 - ص 140.

محمد السنوسي - **الاستطلاعات الباريسية** - 1890 - تونس

12) محمد ابن الخوجة - **سلوك الابريز في مسالك باريز** - المطبعة الرسمية - تونس 1900 - ص 55.

13) خيرالدين باشا - أقوم المسالك... ص 57

14) محمد السنوسي الرحلة الحجازية....م.م. ص130.

15) مثل الذي يذكره محمد بيرم الخامس...**صفوة الاعتبار**....م.م. ص 83

16) بيرم الخامس - صفوة الاعتبار ...م.م. ص 83 والسنوسي - الرحلة ... م.م. ص 159.

17) لمزيد التفاصيل راجع محمد مسعود ادريس - المسرح وأدب الرحلة في فكر النهضة - **دراسات في تاريخ المسرح التونسي...**» المعهد العالي للفن المسرحي - دار سحر للنشر 1993. ص 27.

18) راجع [Duvignaud Jean-Rencontre de civilisation et participation des publics dans le Monde Maghrebin Contemporain - Le theatre arabe - UNESCO 1970].

19) يمكن مراجعة عديد الاعمال بالنسبة لمظاهر الفرجة بتونس نذكر أهمّها. الصادق الزرقي - **الاغاني التونسيّة** - الدار التونسيّة للنشر. 196

AZIZA Mohamed- Les Formes traditionnelles du sepctacle. S.T.D 1975.

DRISS Mohamed Messaoud - Tradition orale et spectacles contemporains. Thèse de 3è cycle - Paris I - Sorbonne 1979 - 1980.

20) DRISS Mohamed Messaoud - Analyse sociologique de deux fêtes - Tolbet Ennaw et Achoura. Revue des Arts et Traditions Populaires. I.N.A.A. n 9. 1986.

21) Aziza Mohamed - Les formes traditionnelles du spectacle S.T.D 1975.

22) على سبيل المثال الحاضرة بتاريخ 26 / 3 / 1889

23) La Dêpêche Tunisienne du 28 Janvier 1890. La conférence du Cheikh Abu Nadhara.

24) ساهم شكري غانم في التعريف بالأدب العربي والنقد بعديد الدراسات بمجلة (La Revue Tunisienne)

25) حول مساهمة النخبة بتونس ، راجع الدكتور احمد بن ميلاد و محمد م. ادريس - **الشيخ الثعالبي والحركة الوطنية** - مؤسسة بيت الحكمة ، 1991 - الجزء الاول -

26) الصواب 8 سبتمبر 1905 و 6 سبتمبر 1907

27) الصواب بتاريخ 6 / 10 / 1905

28) الحقيقة بتاريخ 10 / 4 / 1907

29) Le courrier de Tunisie 26 /11 / 1905

30) La Dépêche Tunisienne 22 janvier 1907

31) حول مجيئ هذه الفرقة ونشاطها يمكن مراجعة :

BEN HALIMA . H- Un demi-siècle de Theâtre arabe en Tunisie 1907- 1957 Publications de l'Université de Tunis. 1974 p. 39

32) . BEN HALIMA . H . Un demi - siècle. p. 38

33) شرف الدين المنصف - **تاريخ المسرح التونسي** - شركة العمل للنشر والصحافة 1972 -

ص 43 .

34) التقدّم بتاريخ 1 ديسمبر 1908 . وشرف الدين المنصف - تاريخ المسرح التونسي - شركة العمل للنشر والصحافة 1972 - ص 22.

35) الزهرة 19 ديسمبر 1908 و 27 ديسمبر 1908

36) الحاضرة 11 / 5 / 1909 وشرف الدين ن.م. ص 35 و بن حليمة حمادي ن.م. ص 44

37) BEN HALIMA . H. Un demi - siècle ... op.cit . , p. 40 et suivantes

38) وربما كان ذلك بإيعاز من الشبيبة التونسية ...**الأرشيف الوطني** - سلسلة E صندوق 550 15 / 30 ملف 61. تقرير حول نشأة المسرح التونسي.

39) وهم خاصة مصطفى سري وأحمد شرابية وأحمد عفيفي - راجع شرف الدين المنصف . ن.م. ص 44 و بن حليمة حمادي... ن.م. ص. 46

40) بن حليمة حمادي - ن.م. ص. 46

41) شرف الدين المنصف - تاريخ ن.م. ص 47

42) مرشد الأمة بتاريخ 10 أكتوبر 1909.

43) Le courrier de Tunisie - 26 septembre 1909

44) BEN HALIMA. H. Un demi - siècle

45) المصدر السابق - ص 47.

46) الزهرة بتاريخ 18 ماي 1914.

47) الزهرة بتاريخ 23 ماي 1914

48) شرف الدين المنصف ، تاريخ المسرح التونسي - م.م . 134

49) تأسست الآداب في غرة افريل 1911. الأرشيف الوطني - سلسلة E صندوق 509 ملف 38 (الآداب)

50) محمد مسعود ادريس - دراسات **في تاريخ المسرح التونسي 1881 - 1956** . منشورات المعهد العالي للفن المسرحي - دار سحر للنشر - تونس 1993 - ص 34

51) يومي 7 و 17 افريل 1911

52) قدم عرض (نديم) على المسرح البلدي يوم 13 ماي 1911 وبالروسيني يوم 3 جوان 1911.

53) راجع الصواب بتاريخ 14 أفريل 1911. خطاب الشيخ الثعالبي في أول عرض لمسرحية (صلاح الدين) على المسرح البلدي.

54) يوم 23 فيفري 1912 قدمت (ميتريدات) و (روميـو وجوليـــات) يـومـي 23 / 2 / 1912 و 29 / 3 / 1912 و (هرناني) يوم 8 / 3 / 1912 و (نديم) يوم 22 مارس 1912 و(صلاح الدين) يوم 20 أفريل 1912 و عصيل يوم 4 أفريل 1912 .

55) قدمت مسرحية (صلاح الدين) يوم 23 / 1 / 1912 وميتريدات يوم 24 / 1 / 1912 ونديم يوم 25 / 1 / 1912 و (هيرناني) يوم 26 / 1 / 1912.5

56) عرضت (الآداب) مسرحية (صلاح الدين) يوم 28 / 1 / 1912 ومسرحية (نديم) يوم 29 / 1 / 1912 ومسرحيّة (هيرناني) يوم 31 / 1 / 1912.

57) م.م. ص 57 BEN HALIMA . H. Un demi-siècle de Théâtre....

58) الأرشيف الوطني ـ سلسلة E صندوق 509 . ملف 38 (الآداب) رسالة الحاكم العام للجزائر الى المقيم العام بتونس بتاريخ 5 / 4 / 1913.

59) محمد مسعود ادريس والدكتور أحمد بن ميلاد ـ الشيخ الثعالبي والحركة الوطنية ـ مؤسسة بيت الحكمة ـ تونس 1991 .

60) شرف الدين ـ تاريخ المسرح التونسي م.م. ص 90

61) شرف الدين م.م. ص. 107.

62) محمد مسعود ادريس ـ دراسات في تاريخ المسرح التونسي ـ المعهد العالي للفن المسرحي ـ دار سحر للنشر ـ تونس 1993 ـ ص 33.

63) **الأرشيف الوطني** ـ سلسلة E ـ صندوق 509 ، ملف الجمعيات.

64) محمد مسعود ادريس ـ دراسات في تاريخ المسرح التونسي ، م.م. ص 69.

65) الزهرة 15 ماي 1913.

66) دعت البلدية منذ سنة 1913 فرقة (الآداب) و (الشهامة) للوحدة، وعلّقت الإعانة السنوية التي تمنحها لعدم استجابتهما إلى سنة 1922 بعد الاستجابة الى طلبها، راجع أرشيف المسرح البلدي ـ رسالة شيخ المدينة الى نائب رئيس البلدية بتاريخ 19 / 1 / 1936. ص 7.

67) م.م. ص 75. BEN HALIMA . H. Un demi-siècle de Théâtre.....

68) م.م ص BEN HALIMA. H. Un demi-siècle.....75

69) محمد مسعود ادريس ـ **بيبليوغرافية المسرح التونسي** ـ المعهد العالي للفن المسرحي ـ دار سحر للنشر ـ تونس 1993.

70) محمد مسعود ادريس ـ دراسات في تاريخ المسرح التونسي ـ المعهد العالي للفن المسرحي ـ دار سحر للنشر ـ تونس 1993 ـ

71) محمد مسعود ادريس . المسرح المصري في تونس . 1907 . 1956 . (دراسة غير منشورة)

72) محمد مسعود ادريس . الفئات الاجتماعية وجمهور المسرح العربي بالمسرح البلدي بتونس 1934 . 1936 . دراسات في تاريخ المسرح التونسي . دار سحر للنشر . المعهد العالي للفن المسرحي . تونس 1993 . ص 95.

73) راجع النهضة 5 / 5 / 1932 والحفل الذي أقيم لها بحضور الأدباء والشعراء النهضة 7 / 5 / 1932

74) م.م. ص 106. BEN HALIMA .H. Un demi-siècle

75) سيعود جورج أبيض سنة 1932 ليدير فرقة (المستقبل) لكن مرة أخرى سيفشل معها ويغادر الى مصر.

76) أرشيف المسرح البلدي . رسالة جمعية المسرح إلى رئيس البلدية بتاريخ 6 / 7 / 1935.

77) وذلك رغم المحاولة الأولى لفرقة (الشهامة العربية) سنة 1913 عندما حاولت امتلاك قاعة خاصّة بها.

78) بدأ علي بن كاملة بفتح قاعة للسينما منذ ديسمبر 1913 . الزهرة 22 / 12 / 1913.

79) الزهرة 16 و 17 و 18 / 12 / 1919.

80) محمد مسعود ادريس . دراسات في تاريخ المسرح التونسي 1881 . 1956 . المعهد العالي للفن المسرحي . دار سحر للنشر . تونس 1993. ص 140.

81) الصواب 24 / 8 / 1923.

82) محمد مسعود ادريس . دراسات في تاريخ المسرح التونسي 1881 . 1956. المعهد العالي للفن المسرحي . دار سحر للنشر .1993 .

83) م.م. ص 93 BEN HALIMA. H. Un demi-siècle....

84) محمد السقانجي . المرأة التونسية في المسرح . العمل الثقافي 18 / 4 / 1986 . ص 8.

85) م.م. ص 82 BEN HALIMA. Hamadi . Un demi-siècle....

86) محمد مسعود ادريس . الفئات الاجتماعية وجمهور المسرح العربي بالمسرح البلدي بتونس . 1934 - 1936 . دراسات في تاريخ المسرح التونسي 1881 - 1956 المعهد العالي للفن المسرحي . دار سحر للنشر 1993 - ص 99.

87) أرشيف المسرح البلدي . رسالة من شيخ المدينة إلى رئيس البلدية بتاريخ 19 / 1 / 1936.

88) Charfeddine Moncef. la voie folle de Habiba Messika- l'Action Magazine n 22 du 8/3/ 1982.

89) الزهرة الدريدي - **الجالية اليهودية والمسرح في تونس مثال لحبيبة مسيكة** - رسالة ختم الدراسات المسرحية - المعهد العالي للفن المسرحي - 1989 - 1990 .

90) م.م. ص 94 BEN HALIMA Hamadi. Un demi-siècle ....

91) **أرشيف المسرح البلدي** - الاتفاقية الموقعة بين كل من البشير المتهني ومحمد الورتتاني بتاريخ 20 / 9 / 1935 كذلك محمد مسعود ادريس - دراسات في تاريخ المسرح التونسي 1881 - 1956 - دار سحر للنشر - المعهد العالي للفن المسرحي - 1993 - ص 97.

92) راجع محمد مسعود ادريس الهوية والتجديد ، مثال لمسرحية (الحريم) دراسات في تاريخ المسرح التونسي 1881 - 1956 - المعهد العالي للفن المسرحي - دار سحر للنشر 1993 - ص 85.

93) أرشيف المسرح البلدي - عديد المذكرات من قسم الرقابة بالحكومة التونسية.

94) محمد مسعود ادريس الفئات الاجتماعية وجمهور المسرح العربي بالمسرح البلدي بتونس 1934 - 1936 - دراسات في تاريخ المسرح التونسي . م.م. ص 95.

95) م.م. ص 91 BEN HALIMA . Un demi-siècle..

96) راجع التقدم بتاريخ 1 / 9 / 1908 و 3 / 12 / 1908.

97) أجر Gaubert و Gabis المسرح البلدي أطول مدة في تاريخه خلال فترة الحماية.

98) أرشيف المسرح البلدي. محضر جلسة لجنة المسرح بتاريخ 6 / 6 / 1935.

99) محمد مسعود ادريس - الفئات الاجتماعية وجمهور المسرح العربي بالمسرح البلدي - 1934 - 1936 - دراسات في تاريخ المسرح التونسي . م.م. ص 95.

100) ذلك عند اقتراحات الفرق في بداية الموسم لبرامجها وخاصة عند تقديم الفرق لنفس المسرحيات راجع مثلا الوزير بتاريخ 28 / 2 / 1935.

101) راجع الأرشيف الوطني - سلسلة E صندوق 509 ملفات لمختلف الجمعيات بما فيها المسرحية.

102) أرشيف المسرح البلدي المذكرات العديدة للقطع من طرف القسم الأول بالوزارة

103) أرشيف المسرح البلدي - رسالة شيخ مدينة تونس الى نائب رئيس البلدية بتاريخ 19 / 1/ 1936.

104) محمد مسعود ادريس - الفئات الاجتماعية وجمهور المسرح العربي بالمسرح البلدي بتونس 1934 - 1936 - دراسات في تاريخ المسرح التونسي . م.م. ص 95.

105) الأرشيف الوطني - سلسلة E - صندوق 509 . ملف 166 - حيث تم اقتراح الاتحاد بين كل من فرق (النجمة) و (التهذيب) و (الهلال).

106) الأرشيف الوطني - سلسلة E - صندوق 509 ملف 209 حيث تم اقتراح الاتحادين كل من (الإغالبة) و (الشباب الرشيق) و (النجابة).

107) كانت المحاولة الأولى في إنشاء نقابة سنة 1934 لم يكتب لها النجاح.

108) م.م. ص 110 .... BEN HALIMA Hamadi . Un demi-siècle

109) انشق كل من صالح الاحمر ومحمد فارح ونور الدين بن محمود وانضموا إلى فرقة (العشرة الطيبة) التي أسّستها فتحية خيري بإعانة آخرين مثل صالح الزواوي وصالح المهدي والمنجي بن يعيش وعبد المجيد بوديدح وخليفة السطنبولي

110) BEN HALIMA. H. Notes et Documents sur le Théâtre arabe en Tunisie. Repertoire tunisien (1909 - 1912) - Arabica. Tome XVI. Oct. 1969. pp. 313 -329.

111) م.م.ص 121 .... BEN HALIMA . Hamadi. Un demi-siècle

112) حول المسرح التاريخي في تونس راجع BEN HALIMA Hamadi. Les principaux thèmes du Théâtre tunisien.

113) م.م.ص 120 BEN HALIMA Hamadi . Un demi-siècle

114) م.م.ص 124 BEN HALIMA Hamadi- Un demi-Siècle

115) محمد مسعود ادريس . دراسات في تاريخ المسرح التونسي م.م. ص 59 خاصّة بجدول الفرق المسرحية

116) محمد السقانجي . المرأة التونسية في المسرح . العمل الثقافي 25 / 4 / 1986

117) محمد مسعود ادريس . **بيبليوغرافية المسرح التونسي** . 1881 . 1956 . المصادر العربية . المعهد العالي للفن المسرحي . دار سحر للنشر . 1993.

118) محمد مسعود ادريس . الوضعية الاجتماعية والمادية للمسرحيين من الهواية والاحتراف 1910 . 1956 . دراسات في تاريخ المسرح التونسي . م.م. ص 136

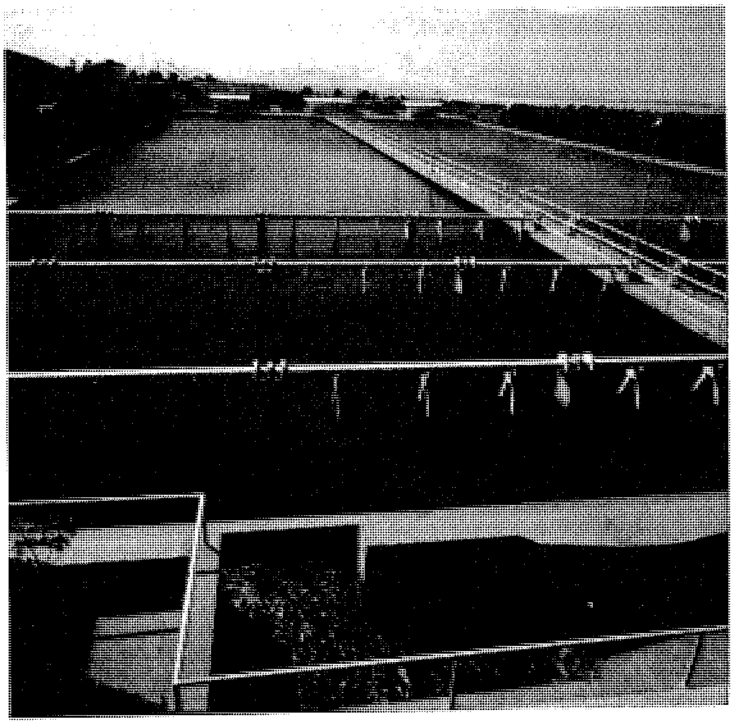
119) المصدر السابق ص 140

120) المصدر السابق ص 144

121) محمد السقانجي . **فرقة بلدية تونس للمسرح** . شركة كاهية للنشر . 1988

122) وأثمرت هذه الجهود على اسناد البلدية منحة دراسية لحمادي الجزيري الذي درس بفرنسا

123) الصباح 7 و 15 فيفري 1951 . 6 ديسمبر 1950.



تطوّر التهيئة المائيّة وتعبئة الموارد المائية بالبلاد التونسية

1 - **مقدّمة**

تطوّر التهيئة المائية بالبلاد التونسية من الصفحات المجهولة من تاريخنا التي لم يكتب فيها إلاّ القليل ومن وجهة نظر المؤرخين فقط دون أن يمكن في أغلب الحالات التطرق إلى وضع الأسئلة المتعلّقة بإشكالات مرجعية هذه التهيئة وكيفية الاستفادة من حضارات البلدان المجاورة وخاصة منها تلك التي كانت على صلة بالبلاد التونسية خلال مختلف المراحل التاريخية. وفي فهم ملابسات تطوّر هذه التهيئة المائية ما يساعد على تبيّن العديد من مجالات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لهذه الأرض نظرا لارتباط حياة الإنسان الذي عاش فوقها بالماء

باعتباره موردا حيويا كثيرا ما انجرّ عن غيابه من خلال الجفاف أو من خلال حدوث الفيضانات، العديد من النكبات والمآسي .

وإذا كانت تعبئة هذه المياه للشرب أو للصناعة أو للريّ من المآثر التي كثيرا ما يتعرّض لها المؤرخون بالتنويه والإشادة فإن مناهج هذه التعبئة وشمولها مختلف القطاعات مازالا في حاجة إلى تظافر الجهود لتبيّن الكثير من ملابساتهما. وإنّ في تتبّع مختلف مظاهر تعبئة الموارد المائية بالبلاد التونسية خلال مختلف المراحل التاريخية والأساليب المتبعة لتعبئة هذه الموارد لمرحلة أوليّة في مجال «الأمن المائي» الذي يفرضه التفكير في مستقبل هذه البلاد .

2 - مفهوم الموارد المائية

لم يبرز مفهوم الموارد المائية إلاّ مع تطوّر مختلف فروع علم المياه وتأكد الحاجة إلى الماء كمورد طبيعي تقوم عليه مختلف القطاعات الاقتصادية من تزويد التجمعات السكنيّة الكبرى بحاجياتها من مياه الشرب والاستعمال المنزلي وكذلك الريّ والاستعمالات الصناعية. ويبدو هذا المفهوم اليوم ألصق بالبلدان الواقعة في نطاق المنطقة الجافة وشبه الجافة من الكرة الأرضية نظرا لعدم انتظام تساقط الأمطار بها وندرة مياه الأودية وصعوبة استخراج المياه الجوفية وعدم تجدّدها .

عادة ما تقسّم الموارد المائية باعتبار مصدرها إلى موارد سطحيّة متأتيّة من مياه الأمطار وموارد جوفية في شكل خزّانات باطنيّة تنبع طبيعيا في شكل عيون وينابيع أو يتمّ استخراجها بحفر الآبار والتنقيبات (Castany G. & Margat J. 1977) .
أما الموارد المائية السطحية فهي دائمة التجدد بحسب الدورة المناخية وانتظام فصول الأمطار في حين أن الموارد الجوفية قد تكون مياها مخزونة في باطن الأرض عرفت طريقها إليه تحت ظروف مناخية مغايرة قد تكون أنسب من تلك التي تسيطر حاليا على المناطق الجافة وبذلك تكون نسبة تجدد مثل هذه الموارد محدودة أو ضعيفة جدّا .

3 - المعطيات الجغرافية

الموارد المائية بالبلاد التونسية تخضع في توزعها وكمياتها ونوعيتها إلى المؤثرات التضاريسية والمناخية والجيولوجية زيادة عن تأثرها بموقع البلاد في النصف الشمالي من الكرة الأرضية في نطاق المنطقة الجافة وشبه الجافة .

3 - 1 - تأثير الموقع الجغرافي

تقع البلاد التونسية في النصف الشمالي من الكرة الأرضية بين خطي العرض 30° و 42° شمالا وخطّي الطول 7° و 11° شرقا. وهذا الموقع الجغرافي في نطاق المنطقة المناخية المعتدلة يسمح بتغيّر المناخ بين الشتاء البارد المطير والصيف الحار الجاف مع الاعتدال خلال الخريف والربيع المتميزين بتواتر الأمطار وعدم انتظامها .

كما أن موقع البلاد التونسية بين البحر الأبيض المتوسط من ناحية والصحراء الكبرى من ناحية أخرى قد أكسب مناخها ميزات الاعتدال وعدم الانتظام وذلك ما كان له تأثير واضح على تطوّر تضاريسها وجعل من البحر والتهيئة المائية عاملين بارزين فاعلين في حضارتها .

3 - 2 - تأثير المناخ والتضاريس الطبيعيّة

الموارد المائية للبلاد التونسية مرتبطة في توزعها وكميّاتها بالتضاريس الطبيعية وقرب البحر الأبيض المتوسط من جهة والصحراء الكبرى من جهة أخرى. ويتّضح هذا التأثير بصورة خاصة في تغيّر درجات حرارة الهواء وكميّات الأمطار وتواتر تساقطها وارتفاع فاقد البخر خلال أغلب أشهر السنة. وإن كان للبحر الأبيض المتوسط دور كبير في تلطيف درجة حرارة الهواء خلال فصلي الشتاء والصيف وتوفير الرطوبة التي تساعد على تكثف الأنداء وتحويلها إلى أمطار، إلاّ أن الصحراء الكبرى من ناحية أخرى، تعمل على دفع المنخفضات الجوية في اتجاه الشمال والتقليل من كميّة الأمطار على النصف الجنوبي من البلاد. لذلك كانت هذه المنطقة تتميّز بقلّة الأمطار وغلبة عدم الانتظام على توزعها. هذا إضافة إلى وجود سلسلة الظهيرة التونسية بالوسط وهضاب الظاهر بالجنوب وهي تشكّل حاجزا طبيعيا يحدّ من تسرّب السحب المحمّلة برطوبة البحر إلى المناطق الداخليّة للبلاد .

نتيجة لهذه المعطيات المناخية والطبيعية فإنّ الموارد المائية المتأتيّة من المياه السطحية هي أهمّ في شمال البلاد من وسطها وجنوبها وذلك نظرا لأن كميّاتها أكبر بهذه المنطقة، كما أن التضاريس وطبيعة الطبقات الجيولوجية الكتيمة ذات الانتشار الواسع بهذه المنطقة، يساعدان على تجميع نسبة كبيرة من مياه الأمطار في شكل سيول وجريان دائم في الأودية. ونظرا لعدم انتظام جريان

أغلب الأدوية بالبلاد التونسيّة طوال السنة، فإنّ تقييم الموارد المائية السطحية يتمّ عن طريق تقدير حمولة الأودية أثناء فترات الفيضان وتواتر الأمطار بالأحواض المائية. لذلك كانت قياسات تساقط الأمطار وشدّتها وربط ذلك بمعدّلات شهرية أو فصلية أو سنوية، ضرورية لتقدير هذه الحمولة. كما أن معرفة طبيعة سيلان الأودية ونظم حملاتها من المعطيات الأساسية لتقييم الموارد المائية التي يمكن أن تستوعبها شبكة المجاري الطبيعية للمياه وبالتالي تقييم الموارد القابلة للتعبئة منها. كما أن معرفة نظم الأمطار وتواتر تساقطها يمكّنان من تقدير نسبة التسرب الباطني التي تعمل على زيادة مخزون الطبقات المائية الجوفية وخاصة المتجدد منه .

3 – 3 – تأثير طبيعة الصخور والبنية الجيولوجية

يبرز تأثير طبيعة الصخور في توفير الموارد المائية من خلال الطبقات الجوفية التي يكون مخزونها من المياه أكبر بقدر نفاذية الصخور غير الكتيمة التي تكوّن تلك الخزانات الباطنية. كما أن أديم الأرض المتكوّن من الصخور الكتيمة ذات الطبيعة الطفليّة أو السجيليّة، تساعد كثيرا على الجريان السطحي للمياه وتزيد من حمولة الأودية .

نظرا لأن مناطق شمال سلسلة الظهيرة التونسية مكوّنة من صخور رسوبية تغلب عليها الطبيعة الطفلية وتتهيأ في شكل أحواض رسوبية صغيرة ساعدت العوامل التكتونيكية على تقسيمها إلى تشكيلات متعددة الالتواءات، فإنّ أهم الخزّانات المائية الجوفية لا تقع إلاّ في وسط البلاد وجنوبها حيث البنية الجيولوجية ملائمة لتشكّل الأحواض الباطنية ذات الامتداد الصحراوي .

وهكذا يتّضح أن التضاريس والبنية الجيولوجية قد ساعدت على توفير شبكة من الأودية عالية الكثافة بالشمال التونسي حيث تتوفر كميات أفضل من الأمطار وهو ما يجعل الموارد المائية بهذه المنطقة سطحيّة بالأساس في حين أن البنية الجيولوجية وطبيعة الصخور ميّزتا وسط وجنوب البلاد بمواردهما المائية الجوفية.

4 – المعطيات الحضارية

اقترنت مختلف استعمالات الموارد المائية بحياة الإنسان التونسي ومعتقداته منذ عصور ما قبل التاريخ ويتضح ذلك على وجه الخصوص في بقايا الآثار والمنشآت

التي تركها. فحضارة إنسان ما قبل التاريخ والتي تعود في أقدم مكتشفات بقاياها الراجعة إلى الحقبة الآشولية، والمتمثّلة في الصفائح الصوّانية والنقوش الحجرية، كثيرا ما وجدت مقترنة بالمنابع المائية المتصلة بالطبقات الجوفية. وهذه المنابع كانت توفّر للإنسان البدائي نقطة الماء وحيوان الصيد والبيئة الطبيعية الأقلّ قساوة. وما العديد من « الرماديات » المكتشفة حول ينابيع القطار وقفصة ومنطقة الشطوط من الجنوب التونسي إلاّ خير مثال للتعرف على الحيوانات التي كانت تعيش في تلك السهول شبه الجافة وكذلك للتعرف على الأجناس البشرية التي عاصرتها (Mtimet A., 1993) .

وقد حظيت تلك الينابيع والعيون الطبيعية بأهميّة خاصة خلال مختلف المراحل التاريخية الموالية نظرا للدور الذي كان لها في انتشار الفلاحة المروية أو في تزويد المدن والقرى بالماء الصالح للشراب. فالواحات المعروفة اليوم كانت قائمة في أغلبها على الينابيع الطبيعية وقد أصبحت بعد نموّها على طول امتدادها الجغرافي، معالم لرسم الطرق التجارية الكبرى الرابطة بين شمال الصحراء وجنوبها وكذلك بين طرفي العالم العربي الإسلامي. كما أن العديد من التجمعات السكنيّة الكبرى كالقيروان وقفصة وقابس وسبيطلة والقصرين وتوزر ونفطة وزغوان وتونس وقرطاج وبنزرت كانت تزوّد بالماء الصالح للشراب من تلك العيون الطبيعية .

وقد اكتسبت بعض تلك المنابع المائية بعدا اتنوغرافيا انعكس في المعتقدات والتقاليد المتعلّقة بها. فالعديد من الينابيع مرتبطة بأسماء الأولياء الصالحين أو هي ذات مكانة خاصة في المعتقد الشعبي خاصة وإن كانت مياهها ذات خصائص استشفائية (عيون حمام الأنف وقربص وحمام الجديدي وحامّة قابس) وخير مثال لذلك معبد المياه بزغوان (القرن الثاني بعد الميلاد) .

كما أن الينابيع الطبيعية الكائنة بمنطقة الواحات قد كيّفت حياة المجموعات البشرية المستقرّة حولها بحيث وجهت نظام حياتها وعاداتها ومعتقداتها بحسب أهمية تلك العيون وتغيّر دفقها أو منسوب مائها. وقد اقترنت العيون الطبيعية في وجدان الإنسان المتوسطي والصحراوي بالعالم الغيبي وكانت رمزا في تفكيره للقوى الطبيعية التي يخشاها والكائنات التي تدخل في إدراكه دون أن تتجسد في واقعه اليومي. وما التجاء هذا الإنسان إلى الرمز لهذه الينابيع بالقوى الغيبية من

خلال معتقداته وتقاليده إلاّ شعور منه بالأهمية التي تكتسبها تلك الظواهر الطبيعيّة في تغيير جوانب من واقعه وارتباط اليومي المعيش من حياته بها .

5- المعطيات التاريخيّة

إذا كان وجود الإنسان البدائي بالمناطق الجافة من البلاد التونسية قد ارتبط إلى حدّ بعيد بوجود الينابيع واستمرار تدفّقها حتى بعد أن غلب الجفاف على المناطق القريبة من تخوم الصحراء الكبرى، فإن أغلب المدن التي أقيمت منذ استقرار الإنسان على هذه الأرض، كانت دائما تواجه مشاكل توفر الماء ومواد البناء. وإذا كانت الطبيعة الجيولوجية لمختلف المناطق بالبلاد التونسيّة قد ساعدت كثيرا على إيجاد حلول موضعية لتوفر مواد البناء نظرا لغلبة الصخور الرسوبية المتماسكة على أغلب المناطق المتاخمة للسهول، فإن مشكل تزويد التجمعات السكنية الكبرى بالماء الصالح للشراب لم يكن دائما يجد حلولا في متناول الرغبة. وتوفير حاجيات السكّان من الماء الصالح للشراب كان منذ فجر التاريخ العمراني للبلاد التونسية أحد أهمّ جوانب تعبئة الموارد المائية بها نظرا لانتشار النسيج العمراني مبكّرا بالعديد من المناطق الساحلية والسهول المتّصلة بها. أما القطاع الفلاحي فقد كان دائما المجال الذي يتطلّب الكميات الكبرى من مياه الريّ المعباة وبمناهج وتقنيات متنوعة استوجبت التحكم في المعارف الهندسية المعروفة والمجرّبة بالبلدان الأخرى وكذلك استنباط الطرق الهندسية الأنسب لطبيعة البلاد وخصوصية مواردها المائية.

وقد شملت هذه التعبئة في نفس الوقت المياه السطحية والمياه الجوفية. وهي قد أولت تغيرات المناخ وعدم انتظام تواتر سقوط الأمطار ما يتطلّبه من أهمية لإيجاد الحلول التي تضمن استقرار الكميات المتوفرة ومجابهة الأوضاع القصوى مثل فترات الجفاف المتواصل سنوات عديدة أو الفيضانات الناتجة عن الأمطار الغزيرة خلال بعض الفترات المطيرة .

أما استعمال الموارد المائية في المجال الصناعي فقد كان خلال مختلف المراحل التاريخية لهذه البلاد ذا أهمية محدودة مقارنة بالماء الصالح للشراب ومياه الريّ وتندرج تعبئة حاجيات الصناعة من المياه في نطاق توفير حاجيات التجمعات السكنية الكبرى من الماء الصالح للشراب. ولعلّ استعمال الطاقة المائية في المجال الصناعي كان يحظى خلال مختلف المراحل التاريخية للبلاد، بأهمية أكبر من استهلاك هذه المياه في المجال الصناعي. وفي مجال استعمال الطاقة المائية يمكن

أن نذكر الالتجاء لإدارة النواعير والطواحين في مجالات الصنائع (الطحن وتقصير الثياب وصناعة الورق وصناعة الأسلحة وصقل الحديد) إلى مياه الينابيع ومجاري الأودية. وقد عرف هذا الاستعمال أيضا في مجالات التعدين لفرز الفلزات من الشوائب. ولم تبرز الحاجة إلى الماء كمورد في مجال الصناعة إلاّ حديثا وخاصة في مجالات التعدين والصناعات الكيميائية للغسل والتبريد والخلط (الفوسفات، الحامض الفوسفوري، الكيمياء النفطية، الخ ...) .

5 – 1 – تزويد التجمعات السكنية الكبرى بالماء

ترجع منشآت التهيئة المائية الأقدم من غيرها بالبلاد التونسية إلى المرحلة القرطاجية وتتمثل في بعض الآبار المتبقية بكل من أوتيك وكركوان وقرطاج وكذلك في بعض السواقي والأقنية التي تصل بين بعض العيون الطبيعية وإحدى هذه التجمعات السكنية (MAHJOUBI A. et SELIM H. 1993) وكذلك في بعض المواجل والفساقي التي يمكن أن يتبيّن منها أن الموارد المائية المستعملة لتلبية حاجيات تلك المدن كانت تعبأ بواسطة :

- الفساقي والمواجل انطلاقا من تجميع وتخزين مياه الأمطار.
- الصهاريج والقنوات اعتمادا على دفق بعض العيون الطبيعية القريبة .
- الآبار القليلة العمق التي تستغل مياه الطبقات الجوفية المعروفة بالطبقات السطحية .

ويغلب على الظن أن موارد الطبقات الجوفية القليلة العمق لم تكن تفي بالحاجة نظرا لمحدودية كميّات مخزونها أو لتدنّي نوعية مياهها ممّا استوجب الالتجاء إلى تجميع مياه الأمطار موسميا عن طريق الفساقي والمواجل والصهاريج أو إلى جلب مياه الينابيع بواسطة القنوات. ورغم أنه يصعب تقييم حاجيات الاستعمال المنزلي من المياه في العهد القرطاجي، إلاّ أن التجاء الإنسان خلال تلك المرحلة التاريخية إلى تجميع مياه الأمطار وجلب مياه العيون، دليل على عدم توفر كفايته انطلاقا من مياه الآبار القريبة منه .

وقد بينّت دراسة الخصائص الكيميائية لمياه الطبقات الجوفية القليلة العمق المتصلة بأهم المدن القرطاجية (قرطاج، كركوان، أوتيك، زيتا قرب بوغرارة)، أن هذه المياه غالبا ما تكون ذات ملوحة مرتفعة لا تستجيب لكل الاستعمالات المنزلية وخاصة الماء الصالح للشرب .

أما الفترة الرومانية من تاريخ البلاد التونسية فقد شهدت تشييد العديد من منشآت التعبئة المائية وخاصة منها تلك التي تزوّد التجمعات السكنية الكبرى بالماء الصالح للشرب. وتتمثّل أهم هذه المنشآت في :

- تهيئة العيون وجلب مياهها على مسافات قد تبلغ في بعض الحالات العشرات من الكيلومترات .

- تهيئة الينابيع الحارة واستعمال مياهها السخنة كحمامات للترفيه والعلاج .

- حفر الفساقي والمواجل والصهاريج الضخمة لتجميع مياه الأمطار بها وخاصة بالمدن وعلى طول شبكة الطرق التي كانت تصل بين أطراف البلاد .

وقد أمكن التعرف على بقايا العديد من المنشآت المائية الراجعة إلى المرحلة الرومانيّة من تاريخ تونس فمنها ما هو للاستعمال الخاص ومنها ما هو عمومي (Gauckler P., 1897). وعندما يتعلق الأمر بتزويد التجمعات السكنيّة الكبرى بالماء الصّالح للشّراب فإن المنشآت المستعملة خلال مرحلة تاريخية أو خلال المراحل المتعاقبة، عادة ما تكون متنوعة يستنتج منها التكامل بين المياه الجوفية والمياه السطحية إذ غالبا ما يقع في البداية، الالتجاء إلى الموارد المحلية المتوفرة في الطبقات الجوفية التي تكون تعبئتها فرديّة محليّة ثم يتمّ بعد ذلك جلب المياه من بعيد بواسطة القنوات والخرائق التي يقع إحداثها في الأرض وهي مياه يغلب على استعمالها الصيغة الجماعية والمنفعة المشتركة .

فأما الموارد المائية المحلية فهي بالأساس تلك التي تتم تعبئتها بواسطة الآبار أو بتهيئة الينابيع الطبيعية. ونظرا لأن نوعية المياه المستخرجة من جوف الأرض غالبا ما تكون متأتية من الطبقات القليلة العمق وذات ملوحة مرتفعة، فإنه يقع الالتجاء بعد ذلك إلى تخزين مياه الأمطار بواسطة المواجل والفساقي والصهاريج ثم يصبح استجلاب المياه الجارية من مسافات بعيدة من المشاريع التي يحتمها توسّع العمران وتزايد الكثافة البشرية. وفي هذا السياق تبرز أمثلة العواصم التاريخية الثلاث للبلاد التونسية (قرطاج - تونس، القيروان، المهديّة) كنماذج مختلفة لتوفير المياه الصالحة للشراب للتجمعات السكنية الكبرى خلال مختلف المراحل التاريخية المعروفة .

في مجال تهيئة الينابيع الطبيعية وجلب مياهها بالقنوات إلى المدن والتجمعات الحضرية يمكن أن نذكر مثال تعبئة مياه عيون جبل زغوان التي تمّ جلبها إلى قرطاج على مسافة 70 كلم خلال عهد الإمبراطور « هادريان » (بين سنتي 120 و123م). وقد تكون هذه القناة عرفت أشغالا إضافية تحت حكم « سابتيم سيفار» (Septime Sévère) بين سنتي 193 و 203 م .. وقد ظلّت هذه القناة قائمة إلى أن حاصر العرب الفاتحون قرطاج وتعطّلت بعد ذلك إلى أن أعاد الفاطميون إصلاحها. ويصف البكري (ت 487 هـ / 1093 م) المواجل الكائنة بقرطاج التي تنتهي إليها مياه منطقة زغوان، فيقول : « **ويها قبو عظيم لا يدرك الطرف آخره فيه سبعة مواجل للماء كبار تعرف بمواجل الشياطين فيها ماء قديم لا يدرى متى دخلها (...) وفي وسط المدينة صهريج كبير حوله في وقتنا هذا ألف وسبع مائة حنية قائمة سوى ما انهدم منها وكان يجري إلى هذا المصنع الماء المجلوب من عين جفّار إلى قرطاجنة على مسيرة أيام في قناة عظيمة تغيب مرّة تحت الأرض وتكون في موضع آخر في قناطر فوق قناطر حتى تساوي السحاب. ومن عين جفّار كان عبيد الله الشيعي يشرب الماء يرد عليه كل يوم منه أحمال معروفة** ». (البكري، **المسالك والممالك**، ص 22) (*).

عرفت مدينة تونس خلال الفترة الحفصيّة توسعا عمرانيّا ما انفك يتزايد ممّا استوجب تزويدها بكميّات إضافية من الماء الصالح للشرب. ومع توسع أرباض مدينة تونس وخاصة ربضي باب المنارة وباب الجديد حيث استقرت النخبة السياسية للبلاد، أصبحت الموارد المائية المحلية المتوفرة في الطبقة الجوفية المستغلّة عن طريق الآبار غير كافية ممّا استوجب العودة إلى القناة الرومانية التي يتحدث عنها البكري والتي تجلب الماء إلى تونس من عيون زغوان وجقّار. ثم وقع الالتجاء بعد ذلك إلى استحداث الفساقي واستنباط العيون بواسطة الأنفاق والخرائق. وخاصة منها تلك التي استحدثت بالجبل الأحمر بالجهة الشمالية للمدينة وكذلك في منطقة « جبل كم الأرض » (بئر القصعة) بجنوبها. وقد كانت مياه هذه الأنفاق الجوفية تنقل بواسطة قنوات إلى كل من باب العلوج وباب عليوة (Daoulati A., 1993) لكنّ أهمّ أشغال التهيئة المائية كانت متمثلة في تلك المرحلة في إصلاح القناة الرومانية والتي قام بها الخليفة المستنصر الحفصي في أواسط القرن 13 لمجابهة حاجيات مدينة تونس وأحوازها. وزيادة عن أشغال ترميم هذه

القناة لتشغيلها من جديد فهذا الأمير الحفصي قد أضاف عند مدخل مدينة تونس إلى القناة القديمة فرعين يتجّه أحدهما إلى جامع الزيتونة والآخر إلى « جنان أبي فهر » بأريانة حيث منتزه الأمير وبساتينه. وقد قدّرت كمية المياه التي كانت توصلها هذه القناة في ذلك العصر بما يعادل 14000 م 3 / اليوم وهي تتدنّى في فصل الصيف إلى 2290 م 3 / اليوم نظرا لضعف دفق العيون الطبيعية التي تغذّيها (Solignac M. 1936) .

وقد عرفت القناة الرومانية القديمة العطب والتعطّل مرّات عديدة خلال تاريخها بعد إصلاح المستنصر الحفصي لها وكان ذلك يحدث خاصة خلال فترات الاضطراب السياسي الذي ينجر عنه التدهور الاقتصادي وتراجع البنية الأساسية. وقد كانت المرحلة الأخيرة التي عرفت فيها هذه القناة أشغال الإصلاح والصيانة، هي الممتدّة خلال الفترة الحسينية إلى ثمانينات القرن الماضي (VERNAZ L. 1884) قبل أن يقع تعويضها في بداية هذا القرن بقناة مطمورة تحت الأرض تستجيب للحاجيات المتزايدة من الماء وتعكس التقنيات الحديثة لوضع القنوات المضغوطة .

وقد كانت حمولة هذه القناة سنة 1884 عند منطلقها بزغوان، في حدود 11142 م 3 / اليوم يصل منها إلى مدينة تونس 7216 م 3 / اليوم في حين يحوّل منها 3926 م 3 / اليوم. والحمولة التي كانت لهذه القناة في نهاية القرن الماضي لا تبعد كثيرا عن تلك التي قدّرت لها أثناء العهد الحفصي مما يؤكد أن نفس القناة بقيت مستعملة بنفس المواصفات تقريبا وإن اتضح في نهاية مدّة استعمالها أن كفاءتها قد تدنّت كثيرا إذ لا يتجاوز ما يصل من حمولتها إلى تونس إلاّ 65 ٪ مما كان يصلها أثناء العهد الحفصي .

تزويد القيروان بالماء الصالح للشراب

المعروف عن الموضع الذي اختطّت به مدينة القيروان خلال القرن السابع أنه منطقة سهلية تغلب عليها ركاميات الطمي التي تجلبها مياه فيضانات وادي زرود ومرق الليل. كما أن هذه المنطقة واقعة في المجال القاري ذي المناخ الجاف الذي لا يتأثر إلاّ لماما بالأمطار الساحلية لذلك فإن مياه الأمطار بها ذات طبيعة رعدية غالبا ما تأتي في شكل عواصف مطرية وبكميات غير ثابتة في توزعها وفي تواترها وهو ما يتطلّب للتحكم في مياه الجريان السطحي، تقنيات متطوّرة لتحويل الجريان والحدّ من الدفق وللتمكّن من التخزين المنظّم الذي يقلل من

الأوحال والطمي ويضمن مجابهة فترات الجفاف المتواصل. هذا إضافة إلى أن مياه الطبقة الجوفية التي يقع تعبئتها بواسطة الآبار لم تكن خلال المرحلة الأغلبية (800-909 م) ثم بعد ذلك أثناء فترة حكم العبيديين (909-972 م)، مستساغة كما أنها أصبحت غير كافية للاستجابة لحاجيات مدينة مثل القيروان. وقد وقع الالتجاء إلى المواجل ومضاعفة عددها بحيث أضحت تقنية معروفة خلال تلك الفترة بالعديد من المدن التونسية وخاصة منها تونس وصفاقس والمهدية .

وقد ثبت بعد مقارنة هذه المنشآت بمثيلها في الشرق العربي أن التقنية المستعملة في هندستها تعتمد في جزء كبير منها على الابتكار. ونصيب التأقلم مع البيئة المناخية والجيولوجية لمدينة القيروان (محفوظ فوزي، 193) واضح ممّا يدلّ على تجذّر هندسة مائية متطوّرة، خلال هذه المرحلة من تاريخ البلاد، يبرز جانب الإبداع فيها في تكامل هذه المنشآت الخاصة بتزويد القيروان من الماء الصالح للشرب مع التهيئة المائيّة للريّ) Creswell K.A.C., 1940 (. في الواقع، فإنّ هذه المواجل ما هي إلاّ الجزء الباقي من نظام متكامل للسيطرة على مياه الأمطار وتخزينها إذ أن هذه المنشآت التي استحدثت بسهل القيروان، تبدأ من مجرى الوادي حيث يتمّ تحويل جزء من مياهه أثناء فترات الحملات بواسطة سدّ يتحكّم في كميّة المياه لامحولّة في اتجاه المواجل، هذا إضافة إلى مجاري في شكل حواجز ترابية وسواقي محفورة أو مبنية في أجزاء منها. وتنتهي هذه المجاري إلى ماجل أول تترسب فيه الشوائب الصلبة بحيث لا يمرّ إلى الماجل الكبير إلاّ الماء الصافي الذي يستعمل للشرب ويتصل بالماجل الكبير آخر أصغر منه يستعمل لملء الماء. وقد مكنت الدراسات المتعلّقة بضبط مراحل بناء هذه المواجل ومقاييسها) Solignac M. 1953 (من تبيّن أن هذه المواجل راجعة إلى المراحل الثلاث التالية :

- **مرحلة الولاة** : وهي التي عرفت تعدد المواجل (خمسة عشر ماجلا ما بين سنتي 750 و 852 م) وار تباطها بمياه السيل في مجرى وادي مرق الليل. وخلال هذه المرحلة كان أهمّ هذه المواجل تلك الكائنة بالمكان المعروف بسيدي يوسف الدهماني وأكبر هذه المواجل تبلغ سعته التخزينية 3000 متر مكعّب. في حين أن

أصغرها لا يتّسع لأكثر من 1000 متر مكعّب. وهو ما يمكّن مدينة القيروان من مخزون مائي يتجاوز 30000 متر مكعّب من الماء الصالح للشراب .

– **المرحلة الأغلبية** : تميّزت فترة الحكم الأغلبي بتعدد المنشآت المائية المستعملة لتزويد التجمعات السكنية الكبرى وخاصة منها القيروان وضواحيها مثل القصر القديم ورقّادة وصبرة والمنصورية. وقد شملت هذه التهيئة المائية أيضا العديد من مدن الساحل التونسي وخاصة منها صفاقس وسوسة إضافة إلى مدينة تونس. وتميّزت في هذا الصدد على وجه الخصوص، جهود الأمير الأغلبي السادس أبي ابراهيم أحمد بن محمد الذي حكم بين سنتي 242 هـ / 856م و 249 هـ / 863 م. والأمير الأغلبي زيادة الله الثالث الذي حكم في آخر الدولة الأغلبية (903 / 909م).. ويبرز من بين هذه المنشآت الماجل الكبير بالقيروان الذي أنشأه أبو ابراهيم أحمد بن محمد الأغلبي الذي تبلغ سعته التخزينية إضافة إلى حوض الترسيب (الفسقيّة) وفسقيّة الاستسقاء، ما يقارب 63000 متر مكعّب. وقد قدّرت حاجيات مدينة القيروان في تلك الفترة بما يعادل 2000 إلى 3000م 3 يوميا (Solig-nac M. 1953). ومثل هذا المخزون لايمكّن المدينة إلاّ من احتياطي لمدّة تقارب الشهر. وفي مثل هذه الحالة يكون من الضروري أن تعتمد هذه المواجل على كميّات مائية تغذّيها دوريا متأتيّة من مورد ثابت غير مياه الأمطار. وقد أثبتت التنقيبات والمسوح (المائية Gresse R.11911, Gauckler P. 1897) بسهل القيروان وجود قناة تربط منطقة « وادي العدين » قرب الشريشيرة بالقيروان على مسافة تقارب 37 كم .

– **المرحلة الفاطميّة** : لم يستقرّ الفاطميون بإفريقية إلاّ خلال فترة قصيرة نسبيا (909-972) وقد تراوحت إقامتهم بين رقّادة (909-920) والمهدية (920-948) والمنصورية – صبرة (948-972) قبل انتقالهم إلى القاهرة. وخلال هذه المدّة كان تزويد القيروان وضواحيها (خاصة قصور الخلفاء) بماء الشرب يعتمد نفس الحلول التي توصلّ إليها النظام الأغلبي أي تخزين مياه الأمطار في المواجل والفساقي والصهاريج العمومية والخاصة وجلب مياه العيون الطبيعية من منطقة الشريشيرة بواسطة قناة محمولة على الحنايا (Gresser R. 1911) .

بقيت منشآت التحكم في منابع المياه الجوفية بوادي العدين والقنوات المحمولة على حنايا والمخصصة لنقل الماء إلى القيروان إضافة إلى المواجل والصهاريج المتعددة، خير شاهد إلى اليوم على تكامل هذه التهيئة المائية وتطويعها للتقنيات

والمعارف المستعملة في ذلك العصر لإيجاد الحلول لمشاكل تزويد القيروان بالماء الصالح للشراب. وقد أثبتت الحلول التي أمكن التوصل إليها - خلال فترة تزيد عن المائتي سنة، عرفت فيها هذه المدينة كثافتها البشرية القصوى التي لم تشهد مثيلها إلاّ خلال العقود الأخيرة - نجاعتها وقدرة مهندسي ذلك العصر على التحكم في المعارف الهندسية وتطويعها لإيجاد حلول عمليّة لمشاكل اقتصادية واجتماعية .

- تزويد المهدية بالماء الصالح للشراب

اقترن اسم المهدية بعبيد الله المهدي الفاطمي الذي تحوّل إليها من القيروان سنة 308 هـ / 920 م وامتدت بها إقامة خلفائه بها إلى حدود سنة 337 هـ / 948 م. ثم عاد إليها عمرانها باعتبارها عاصمة للبلاد مع الدولة الزيرية (365 هـ / 976 م - 543 هـ 1148 م). ومنذ القديم جاء في وصف المياه بالمهدية أنها غير عذبة فالبكري (المسالك والممالك، ص 29) يقول عن مياه المهدية « وماؤها زعاف ». وهو ما أكّدته الدراسات الحديثة في خصوص الموارد المائية لهذه المنطقة التي ثبت أنها تقتصر على الطبقة الجوفية القليلة العمق ذات الموارد المحدودة وهي بمياه ذات نوعية شبه مالحة (El Batti D. & al.1974). واعتبارا لملوحة مياه الطبقة الجوفية وعدم ملاءمتها للشرب فإنّه غير مستغرب أن يكون قد وقع الالتجاء منذ تأسيس هذه المدينة، إلى موارد مائية خارجية لتلبية حاجيات السكّان. وفي هذا الصدد نجد البكري نفسه يذكر الحلول التي أمكن التوصل إليها في ذلك العصر فهو يقول : **«وفي المهدية من المواجل العظام ثلاثمائة وستون غير ما يجري إليها من القناة التي فيها. والماء الجاري بالمهدية جلبه عبيد الله من قرية منانش وهي على مقربة من المهدية، في أقداس ويصب في صهريج داخل المهدية عند جامعها ويرفع من الصهريج إلى القصر بالدواليب وكذلك يستقى أيضا بقرب منانش من الآبار بالدواليب ويصبّ في محبس يجري منه في تلك القناة». (البكري : المسالك والممالك، ص 30) .**

ففي حالة مدينة المهدية ونظرا لغياب المياه السطحية الجارية أو الينابيع الطبيعية، وقع الالتجاء في مرحلة أولى، إلى تخزين مياه الأمطار في مواجل معدّة للغرض. ثم ويتزايد الحاجيات العمومية (الجوامع والحمامات والقصور)، تمّ جلب المياه إليها بواسطة قناة تصل المدينة بمنطقة يستخرج منها الماء من طبقة جوفية بكميّات أكبر وبنوعية أفضل وهي منطقة « منانش » أو « ميانش » التي يبدو أنها

كانت على مسافة صغيرة من المهدية (؟) كما يذكر ذلك ياقوت الحموي (**معجم البلدان**) .

الموقع الوحيد في منطقة المهدية الذي تعرف به اليوم موارد مائية جوفية ذات خصائص تمكّن من استغلالها للماء الصالح للشرب والذي قد تنطبق أوصافه على منطقة « ميانش » التي يذكرها البكري، يتمثّل في منطقة « رجيش » التي تتوفر على طبقة مائية جوفية ذات نوعية أفضل مما يعرف في باقي المنطقة وهي على مسافة قرابة الخمس كيلومترات من المهدية وليس كما ذكر ياقوت أن « ميانش » على نصف فرسخ من المهدية. ويقطع النظر عن موقع هذه البلدة التي يجلب منها الماء إلى المهديّة فإنّ الالتجاء إلى ضخّ المياه الجوفية يبرز حالة ضرورة قصوى انتفت فيه كل الامكانات الأخرى لتوفير المياه السطحيّة لهذه المدينة، إذ أن التقنيات المتوفرة في ذلك العصر لم تكن تتعدّى إمكانيّات النواعير المائية الصغيرة (الدواليب). وما تأكيد البكري على دور « الدواليب » في استخراج الماء من باطن الأرض إلاّ شعور منه بأهمية هذا الإنجاز الذي عادة ما يقتصر استعماله على تجهيزات لا تستجيب إلاّ لحاجيات محدودة مثل ضيعة فلاحية أو قصر الأمير. أما أن تستجيب مثل هذه التجهيزات لتلبية حاجيات مدينة كاملة من الماء الصالح للشراب فهو إنجاز غير معهود في تلك الفترة التاريخية .

خلاصة

عرفت البلاد التونسية خلال الفترتين القرطاجية والرومانية مظاهر متعددة من التهيئة المائية لتزويد التجمعات السكنية بالماء الصالح للشرب تمثلت في حفر الآبار والمواجل والفساقي والتحكم في دفق الينابيع بواسطة القنوات التي تراعي انحدارا مناسبا لضمان انسياب المياه من المرتفعات إلى المدن التي تنتهي إليها تلك القنوات. وهذه المعطيات الهندسية الخاصة بتهيئة الينابيع الطبيعية وشقّ الخرائق والأنفاق وبناء القنوات الموصلة إليها، كانت شائعة في ذلك العصر وتتطلب معارف هندسية أولية متعلقة بوضع القنوات المائية وتفادي المواقع التي ينعكس فيها الانحدار : وقد كان للخبرة الميدانية في ذلك العصر أهمية أكبر من تحصيل المعارف العلمية المتعلقة بالتهيئة المائية لذلك كانت مثل تلك الأشغال نتيجة خبرة تتناقلها الأجيال أكثر مما هي بحث واستقصاء وتطوير للمعارف وهو ما لا يمكن أن يتأتى في حياة الشعوب إلاّ بالاحتكاك بين الحضارات. وقد يكون في

انفتاح البلاد التونسية على العديد من الشعوب المتوسطية خلال تاريخها القديم ما ساعدها على تبني جوانب من الخبرة الهندسية المائية للشرق الأدنى وبلاد النيل من خلال الرافد الحضاري الفنيقي والخبرة المتوسطية عن طريق الحضارة الرومانية .

ومع انتشار جيوش الفتح الإسلامي واستقرار الأوضاع السياسية بعد مرحلة الولاة تزايدت الكثافة السكانية بأهم المدن والثغور الدفاعية وخاصة منها الأربطة، وتزايدت الحاجيات من الماء مما استوجب إيجاد حلول تعتمد معرفة أعمق بنظام تواتر الأمطار وتوزع كميّاتها وكذلك إمكانية التحكمّ في مياه الفيضانات وتعبئة المياه الجوفية بواسطة الضخ. وقد ظهرت النتائج الهندسية لهذا الاحتكاك الحضاري في مجال التهيئة المائية خلال الفترة الأغلبية على وجه الخصوص من خلال التحكم في مياه الأمطار للاستعمال الفلاحي وتوفير حاجيات التجمعات السكنية الكبرى من مياه الشرب .

على أنه تجدر الملاحظة أن الجهود التي بذلت خلال الفترة الرومانية أو أثناء فترات حكم الأغالبة والعبيديين والحفصيين ثم الحسينيين بعد ذلك من جهود لتزويد التجمعات السكنية الكبرى بالماء الصالح للشراب، لم تتمكن من توفير إلاّ كميّات من المياه تبدو نسبيّا محدودة، مقارنة لها بالتعبئة المائية الحديثة وذلك نظرا لأن تلبية الحاجيات المائية خلال تلك المراحل التاريخية كان يقتصر فيها على الحاجيات الجماعية الاجتماعية والتي لا تتعدى بعض المنشآت العمومية كالجوامع والحمامات والحصون والأربطة والسقايات وهي منشآت لا تدخل ضمن الإستعمال المنزلي إلاّ لنسبة محدودة من السكّان. كما أن هذه المياه المجلوبة بواسطة القنوات تستعمل بالأساس وبنسبة غالبة في قصر الأمير أو الخليفة وبساتينه وهي حاجيات مهما تضخمت تبقى محدودة بالقياس مع حاجيات غالبية السّكان التي يتّم توفيرها في الغالب على المستوى الفردي بواسطة نقاط المياه الخاصة والموضعية (الآبار والمواجل والفساقي وبعض العيون الطبيعية) .

كما أن هذه التهيئة المائية المتعلقة بوضع القنوات وجلب المياه من مسافات بعيدة، لم تكن تعتمد إلاّ مبدأ المحافظة على تناقص الانحدار، كما أنها لم تكن مدعومة بتقنية تمكّن من وضع قنوات تتحمّل ضغطا مائيا عاليا إضافة إلى أن حجم هذه القنوات يبقى في جميع الحالات متواضعا لا يسمح بنقل سوى بضع آلاف إلى بضع عشرات الآلاف من الأمتار المكعّبة من الماء يوميّا. وعندما تقارن حمولة تلك

القنوات بما تتطلبه التهيئة المائيّة المعاصرة من طاقة استيعاب تقدّر بمئات الآف من الأمتار المكعّبة يوميا، يتّضح أنّه مهما قيل عن التهيئة المائية قديما من ضخامة المشاريع والقدرة على استنباط الطول، تبقى جدواها مقارنة بتكلفتها متواضعة أمام ما قد توفره مثل تلك المشاريع اليوم من نجاعة اقتصادية ..

5-2- مياه الريّ

5-2-1- منشآت تعبئة الموارد المائية للريّ

منذ القديم ارتبطت الفلاحة في البلاد التونسية بمواسم الأمطار والتحكم في مياه السيلان. ومن أهم هذه المنشآت المنتشرة بالعديد من مناطق البلاد ما يلي :

- « المسقاة » وهي منتشرة بالساحل التونسي وتستغل في تجميع مياه السيلان، وتعتبر من المنشآت القديمة المرتبطة بفلاحة الزيتون لذلك هناك من يسعى لربطها بالمرحلة القرطاجية من تاريخ تونس. ومثل هذه المنشآت ترفع من كفاءة الأمطار بالمنطقة الجنوبية للساحل بما يعادل 100 مم بحيث أن هذه المنطقة التي تتلقى سنويا ما يعادل 250 مم من الأمطار، تتمكن الفلاحة فيها من الاستفادة بما يعادل 350 مم إذا أحكمت فيها التهيئة المائية في شكل « مساقي » تجمع مياه السيلان .

- « الجسور » و « الطوابي » وتستغل للحد من قوّة جريان المياه وانجراف التربة وتجميع مياه السيلان وهي منتشرة بالجنوب الشرقي (هضاب مطماطة والظاهر والودارنة) والوسط (مرتفعات العيايشة والسند وجبل وسلات). وهذه المنشآت المائية ترفع من كفاءة التحكم في الأمطار بما يعادل 150 مم سنويا بحيث تتمتّع الزراعات القائمة عليها بما يعادل 300 مم في منطقة لا يتجاوز المعدّل السنوي فيها 150 مم. وقد لوحظ منذ بداية المسح الاتنوغرافي للبلاد التونسية أن هذه المنشآت ألصق ببيئة الإنسان البربري سواء بالجنوب التونسي أو ببلاد القبائل أو بالأطلس.

- « المقود » (أو « النقْودة ») وهي منشآت في شكل حواجز ترابية تهيأ جانبيا على مجرى الوادي الرئيسي أو الفرعي بغاية تحويل جزء من مياه السيلان أثناء فترات الحمولة وتحويلها إلى المنبسطات المجاورة لريّ المزروعات بها. ومثل هذه التهيئة التي تمكن من الرفع في كفاءة التحكم في مياه الأمطار منتشرة بكامل الوسط التونسي وخاصة سهول القيروان وسيدي بوزيد وقفصة .

هذه التهيئة المائية الفلاحية المرتبطة بالتحكم في مياه الأمطار ذات انتشار متوسطي والبعض منها معروف بالمناطق الجافة وشبه الجافة ذات الطبيعة الجيولوجية المشابهة في بلدان أخرى عديدة من العالم. وهي منشآت غير مرتبطة بعصر معين لكنها عادة ما تلحق بالمرحلة قبل الصناعية لتاريخ هذه البلدان لذلك تعتبر منشآت تقليدية يبرز من خلالها تكيف الإنسان مع بيئته وقدرته على الاستفادة من معطيات وسطه الطبيعي للحد من تأثير الجفاف وندرة الموارد المائية.

وإن كانت الفترة الرومانية قد اعتبرت في تاريخ تونس مرحلة متميزة بتهيئة الينابيع وتوفير مياه الشرب بالوسط الحضري، فإن المرحلة الأغلبية تعتبر بحق بداية مرحلة التحكم في الموارد المائية سواء لتوفير مياه الشرب للتجمعات الحضرية الكبرى أو للرّي. ويبدو أن هذه المرحلة هي التي عرفت انتشار الهندسة المائية المعتمدة بالشرق الإسلامي (آسيا الوسطى وإيران) بالجزء الغربي من الحوض المتوسطي وخاصة منها الجوانب المتعلقة بإنشاء السدود للتحكم في مياه الأمطار وحفر الآبار وشقّ الأقنية المستغلة للطبقات المائية الجوفية. إذا كانت البلاد التونسية قد استفادت من الخبرة الرومانية والإغريقية لمدّ القنوات التي تساعد على جلب مياه العيون والينابيع من مسافات بعيدة فإنّ انتماءها إلى العالم الإسلامي منذ توسع الفتح قد مكّنها من تبنّي أنظمة تصرف في المساحات المروية شديدة الصلة بتلك التي عرفها الشرق الإسلامي اعتمادا على مياه الأنهار والسدود والكهاريز (الفقاقير أو الخرائق) سواء في تقسيم المساحات السقويّة أو لضبط الدورة المائية. وقد صاحب انتقال الخبرة المائية من هذه المناطق (بلاد ما بين النهرين وحوض النيل) إلى الغرب الإسلامي مؤشرات منها ما يلي :

- تقنية طي الآبار : نجد لدى ابن العوّام (من القرن 13، **كتاب الفلاحة**) تعريفا للآبار باعتبار قطرها وهو يصنّفها إلى نوعين « البئر العربية » ذات الشكل الإسطواني والفتحة المستديرة و « البئر الفارسية » ذات الشكل البيضوي وتكون بفوهة وقاع أقل انفتاحا من التجويف الواقع بينهما. ويمكن أن نضيف إلى هذين الصنفين « البئر الرومانية » وهي في شكل متوازي أضلاع بفوّهة وقاع مربعين. أمّا صنف البئر المعروفة بالبلاد التونسية فقد كان منذ القديم من قبيل البئر العربية التي تطوى بالحجارة والخشب ويتراوح قطرها بين المتر والخمسة أمتار

وهي أساس التهيئة التي تستغل بواسطتها الطبقات الجوفية التي لا يتعدى عمق منسوبها الخمسين مترا. ويبلغ عدد الآبار السطحية بالبلاد التونسية حاليا ما يناهز العشرة ألف بئر منها ما يقارب 40 ٪ مجهزة بمضخات حرارية وكهربائية وهي تساهم في استخراج 38 ٪ من المياه الجوفية المستغلة(DGRE 1990) .

وقد كانت الآبار التي تستغل الطبقات الجوفية خلال مختلف المراحل التاريخية للبلاد التونسية هي أساس تهيئة التعبئة المائية بالمدن والسهول الفلاحية للاستعمال الفردي في مجالي مياه الشرب والري. وكثيرا ما كانت هذه الآبار محطات للقوافل التي تجتاز المناطق الصحراوية وعن طريقها يمكن رسم أهم الطرق التي كانت تربط بين مختلف جهات البلاد. وقد تأكد وجود العديد منها على طول الخط الدفاعي الروماني على المشارف الصحراوية والذي كان يعرف باسم خط « الليماس » الممتد من برقة عبر الجنوب التونسي حتى منطقة الهضاب العليا بالجزائر .

- استنباط العيون والتحكم في الينابيع الطبيعية

ترجع الخبرة الحاصلة بالبلاد التونسية في مجال تهيئة الينابيع والعيون الطبيعية إلى العهد الروماني سواء منها تلك التي استعملت مياهها للشرب أو للريّ كما هو الشأن بالنسبة لينابيع واحات الوديان ونفطة وتوزر وقفصة والحامة وقابس وشبه جزيرة قبلّي(Gauckler P. 1897, Penet P. 1913) وقد كانت هذه التهيئة تعتمد على تعرية منابع العيون الطبيعية وبنائها بشكل يمكن فيه التحكم في الدفق وتجميعه في سواق توجّه الوجهة التي يرغب فيها. كما أن الينابيع الكائنة وسط الواحات والتي هي في أغلبها من قبيل « البرك المائية » يتمّ تجميع مياهها في أحواض وراء حواجز ترابية أو من الصخر (كما هو الشأن بالنسبة لأهمّ هذه الينابيع الكائنة بواحات المنصورة بقبلي وقابس والحامة وتوزر ونفطة) ولعل أهم جانب في هذه التهيئة المائية يتمثّل في استنباط العيون بواسطة الخرائق والأنفاق وهي تقنية كثيرة الانتشار بكامل المنطقة الصحراوية. وتتمثل أشغال استنباط العيون في حفر منطقة النبع وتهيئتها لتجميع الدفق أو الرشح المائي منها. ويمكن أن تقسّم العيون الطبيعية إلى قسمين هما « العيون الراشحة » و « الخرائق أو القطّارات » .

فأما العيون الراشحة فهي عادة ما تتهيأ طبيعيا في شكل منطقة رشح مائي حول تصدّع أو تغيّر في نوعية الطبقات الجيولوجية وظهورها على السطح. ويتدخل

الإنسان بتعرية منطقة الرشح وتجميع « الأوشال المائية » عن طريق أشغال التهيئة المتعددة من بناء الحواجز وحفر الأنفاق الموصلة إلى أصل منطقة الرشح وبناء القنوات المجمعة للدفق. وهذه التقنيات قد برع فيها القدامى منذ العهد الروماني وأمكن اعتمادا على تحكمهم في طبوغرافية التهيئة المائية، ربط أهمّ التجمعات السكنية الكبرى لذلك العصر بمنابع العيون المعروفة إلى اليوم. وخير نماذج هذه التهيئة توجد بمنطقة جندوبة وقرب الموقع الأثري لغار الملح .

أما الخرائق والقطّارات (وتعرف أيضا باسم القني والفقاقير) فهي حفائر تحت مستوى سطح الأرض تصل بين المنطقة المهياة للريّ ومستوى الطبقة المائية الجوفية. ويتمّ إحداث العديد من الآبار التي تربط سطح الأرض بهذا النفق وذلك للتهوئة واستخراج الأتربة التي قد تتجمع داخل النفق. وغالبا ما يصل طول مثل هذه الأنفاق إلى العديد من مئات الأمتار. وقد بقيت شواهد هذه التهيئة ماثلة في العديد من واحات شبه جزيرة قبلّي والوديان بالجريد والقطار (أحمد ممّو، 1987).

ترجع تقنيات حفر الخرائق إلى حضارة ما بين النهرين وقد ظهرت في البداية في آسيا الوسطى والشرق الأدنى كما أثبتت ذلك النقائش المسمارية لحضارة بلاد الرافدين ولا يعرف العهد الذي انتقلت فيه إلى شمال إفريقيا لكي تنتشر في كامل المنطقة الصحراوية ويرجح أن يكون ذلك قد حدث بين فترة حكم الولاة والدولة الأغلبية نظرا لتوسع التهيئة المائية خلال هذه المرحلة التاريخية على إثر تزايد الكثافة السكانية لكامل المنطقة وتزايد الاهتمام بالفلاحة المرويّة .

نظرا لما كانت للعيون والينابيع الطبيعية من أهمية في الحياة الاقتصادية للواحات فكثيرا ما تعرّض لها العديد من الرحالة بالإشارة أو بالوصف من أمثال البكري وابن حوقل والمقدسي والتجاني والعياشي .

انباط الآبار الإرتوازية

تختص منطقة الجنوب التونسي بوجود طبقات مائية نابعة تحت تأثير الضغط الإرتوازي وهو ما يعكسه توزع الينابيع بها بالعديد من السهول الساحلية ومنطقة الشطوط الداخلية حيث تركزت منذ القديم، الواحات التي كانت تربط بينها الطرق العابرة للصحراء أو تلك التي تصل المشرق بالمغرب. وقد وقع التفطن منذ القديم إلى الصبغة الإرتوازية للعديد من الطبقات المائية الصحراوية بحيث حاول الإنسان استنباط هذه المياه النابعة عدّة قرون قبل أن تنتشر التقنية المعروفة في

هذا المجال اليوم. فهذا عبد الرحمان بن خلدون يصف كيفية انباط المياه النابعة بالمناطق الصحراوية كما يلي : « **وفي هذه البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرقّ جرمها، ثمّ تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها عن الماء فينبعث صاعدا فيفعم البئر ثم يجري على وجه الأرض واديا. ويزعمون أن الماء ربّما أعجل بسرعته عن كل شيء وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وتيكورارين ورغلة وريغ والعالم أبو العجائب والله الخلاق العظيم** » (ع . ابن خلدون، **كتاب العبر**) .

وهذه التقنية التي يتحدث عنها ابن خلدون في كيفية انباط المياه النابعة بالمناطق الصحراوية لم يعثر لها على بقايا في الجنوب التونسي وإن تحدّثت بعض الروايات الشفوية عن وجودها إلى بداية هذا القرن بمنطقة « سوف » الجزائرية المتاخمة للجريد. وقد كانت المناطق الصحراوية من البلدان المغاربية خلال مختلف المراحل التاريخية مجال اهتمام أكثر من غيرها، بتهيئة الينابيع وحفر الخرائق إضافة إلى طي الآبار نظرا لاحتياجها الدائم إلى مياه الشرب ومياه الريّ ويعتقد أن مرور تقنيات التهيئة المائية الآتية من الشرق الإسلامي وخاصة منها المتعلقة باستنباط المياه الجوفية كان عبرها إلى الأندلس وجنوب القارة الأوروبية. كما أن العديد من الآبار المعروفة في هذه المناطق قبل دخول التقنيات الحديثة إليها، يدلّ على التوصل إلى التحكم بهذه المناطق منذ العصر الوسيط، في المياه الدافقة وكذلك بواسطة استغلال الطبقات الجوفية المضغوطة التي لا تصل إلى سطح الأرض لكي تصبح نابعة .

كان يجب انتظار سنة 1885 لكي يتمّ حفر أول بئر بالبلاد التونسية عن طريق التنقيب (أحمد ممّو، 1981) ولم تصبح هذه التنقيبات الموجهة لاستكشاف الطبقات الجوفية العميقة متداولة إلاّ بعد الحرب العالمية الأولى. وقد كانت طرق الحفر في البداية تعتمد « الفأس الدقّاق » (Forage par percussion) مع ما كان ينتج عن ذلك من مشاكل عند الحفر عند المرور من طبقة إلى أخرى؛ وقد أمكن بعد الحرب العالمية الثانية اعتماد تقنية أخرى للحفر بواسطة « الفأس الدوّار » (Forage par rotation) .

وقد كانت الصعوبات التي تواجه تقنيات الحفر متمثلة بالأساس في التحكم في الدفق النابع للطبقات المائية المضغوطة وفي تجوّف الآبار نتيجة عدم تماسك جوانبها الرملية. وقد ساعد تطوّر تقنيات الضخ واعتمادها في مجال الحفر ملء البئر بالطين السائل، على التعمق إلى بضع مئات من الأمتار. كما أن هذه التقنيات التي استفادت كثيرا من التطوّر الحاصل في مجال استكشاف الحقول النفطية أمكنها أن تصبح مع بداية الخمسينات، ذات أهمية أساسية في تعبئة المياه الجوفية .

يبلغ عدد الحفريات المائية اليوم بالبلاد التونسية ما يفوق 7000 تنقيبا منها ما يقارب 2300 تنقيبا هي اليوم في وضع استغلال (DGRE.1994) ويتراوح عمق هذه الحفريات بين بضع عشرات من الأمتار و 2800 مترا وهي تستعمل لاستخراج مياه الطبقات المائية الجوفية سواء النابعة منها أو المستخرجة بالضخ .

ويبلغ ما يستخرج من هذه الطبقات ما يناهز 55 ٪ من المياه الجوفية المستغلة .

- السدود والبحيرات الجبلية

كانت السدود منذ القديم من أهمّ المنشآت المائية لتعبئة مياه الجريان السطحي. وتتزايد أهميّة مثل هذه المنشآت كلمّا عملت المعطيات المناخية على عدم انتظام سقوط الأمطار وتناقص كميّاتها وهو ما يميّز عادة المناطق الجافة وشبه الجافة. وقد ثبت أن المنشآت التجميعية لمياه الجريان السطحي من سدود كبرى وسدود جبلية وبحيرات جبلية هي خير تهيئة مائية تمكّن من التحكّم في مياه الأمطار وتحدّ من أخطار الفيضانات الكبرى وتحمي البيئة من الانجراف .

كانت التقنيات القديمة المستعملة في بناء السدود تعتمد بصورة أساسية على الحجارة والتربة. وقد أثبتت المسوح والتنقيبات الأثرية التي شرع فيها منذ نهاية القرن الماضي (Gauckler P. 1897) وجود العديد من السدود بالبلاد التونسية ترجع إلى فترات مختلفة من تاريخها وهي تتراوح في سعة تخزينها بين السدود الجبلية التي قد تستوعب بضع ملايين من الأمتار المكعّبة من المياه سنويا والبحيرات الجبلية التي لا تتجاوز طاقة تخزينها بضع مئات من الأمتار المكعّبة من المياه. وقد بيّنت هذه المسوح الأثرية تنوّع منشآت التهيئة المائية الخاصة بالتحكم في مياه الجريان السطحي. ويبرز في هذا النطاق على وجه الخصوص السدود التخزينية والسدود التحويلية .

. – **السدود التخزينية**

عرفت السدود التخزينية أهمية متزايدة منذ بداية هذا القرن نظرا لتطوّر تقنيات بنائها وخاصة استعمال نواة إسمنتيّة في أصل هيكل السد. وكان ذلك أهم عامل ساعد على الترفيع من سعة تخزين هذه السدود. وهي تصنّف إلى سدود تخزينية كبرى وسدود جبلية وبحيرات جبلية .

فأما السدود الكبرى فهي منتشرة بشمال البلاد ووسطها حيث تتوفر كميّات أكبر من مياه الجريان السطحي. وهي حديثة نسبيا إذ « سد وادي الكبير » (ولاية زغوان) وهو الأول في البلاد، لم تتمّ أشغاله إلاّ سنة 1925. وقد كانت سعته التخزينية في البداية في حدود 22 مليون م 3 (MENARD P 1941) . أما بقيّة السدود الأخرى البالغ عددها اليوم حوالي العشرين سدا (من أهمّها سيدي سالم وسيدي سعد ونبهانة والهوارب وبوهرثمة وبني مطير) فقد أنشئت كلّها خلال النصف الثاني من هذا القرن وخاصة بعد استقلال البلاد. ويعتبر سد « سيدي سالم » على نهر مجردة أهمّها جميعا بسعة تخزينية قدرها 550 مليون م 3

أما السدود الجبلية فهي ذات سعة تخزينية لا تتجاوز بضع الملايين من الأمتار المكعبة من المياه وهي منتشرة شمال سلسلة الظهيرة التونسية. وقد وقع الالتجاء إليها لتعبئة موارد الاحواض المائيّة المتوسطة الحجم والصغيرة. وهي منشآت ذات نواة طينية مغلّفة بالتراب تقام على مجاري الأودية وعادة ما تتجدد مياهها كليّا خلال بضع سنوات .

أما البحيرات الجبلية فهي مجرد سدود ترابية تجمّع بضع مئات إلى بضع آلاف من الأمتار المكعّبة من المياه سنويا لكنها كثيرا ما تتعرض للجفاف خلال السنوات القليلة الأمطار .

تجد تقنية إنشاء البحيرات الجبلية جذورها الأولية في تلك الحواجز التي تعرفها المناطق الجبلية لهضاب مطماطة والظاهر والمعروفة « بالجسور ». وهي منشآت تستفيد من تجميع مياه الامطار لريّ المزروعات من أشجار وحبوب. وتنتشر هذه التقنية أيضا بمنطقة جبال قفصة (السند وبوعمران)، كما أن أمتدادها نحو الشمال يصل إلى مستوى جبل وسلات وتعتبر تقنية الحواجز الترابية لتجميع مياه الأمطار أو للتحكم في نشرها وسرعة دفقها من أقدم تقنيات تهيئة المياه السطحية التي عرفتها البلاد التونسية .

- السدود التحويلية

تستعمل السدود التحويلية (أو التعويقية) للحدّ من سرعة جريان مياه الأودية أثناء الحملات وكذلك لترسيب الحمولة الترابية وتحويل المياه إلى مناطق مجاورة للسد لريّها عن طريق النشر والفرش. وقد عرفت هذه التقنيات منذ القديم بكل من سهول تونس الوسطى (سهول القيروان وسيدي بوزيد وقفصة) والجنوب التونسي (السقي والأعراض والجفارة) حيث كانت مياهها تستعمل لريّ الغراسات والحبوب (PENET P. 1913). وهذه التقنية قد تفسّر الازدهار الفلاحي الذي عرفته مناطق تونس الوسطى خلال الفترتين الرومانية والأغلبية .

5-2-2- استغلال الموارد المائية للريّ

كثيرا ما ترد ملاحظات عن فترات ازدهار الفلاحة بالبلاد التونسية خلال مراحل متعددة من تاريخها. وهذا الازدهار عادة ما يقرن باستتباب الأمن في ظل حكومة مركزية ودولة قوية. وعندما يبحث في مقومات هذا الازدهار الاقتصادي، يتبيّن اعتماد الفلاحة خلال هذه الفترات بشكل أساسي على مياه الأمطار لذلك كانت فترات المجاعة والأوبئة مقترنة أيضا بفترات الجفاف وانحباس الأمطار. وإن لم تتوفر المعطيات لتقييم مدى التحكّم في مياه الأمطار أو موارد الطبقات الجوفية لاستعمالها في الريّ، إلاّ أن بقايا المنشآت المائية المستعملة لهذا الغرض قد تساعد على تبيّن التقنيات المائية وإن لم تسمح بتقييم مدى شمولية التعبئة المائية في هذا القطاع .

نظرا لاعتماد الفلاحة خلال المراحل المختلفة من تاريخ البلاد التونسية بشكل أساسي على مياه الأمطار، فإن استعمال الموارد المائية في مجال الريّ لم يتبلور بمختلف ملابساته من تعبئة وتهيئة مائية وتقاليد اجتماعية بين المنتفعين من تلك المياه إلاّ في حالتين هما الواحات والسهول التي يتمّ بها فرش المياه ونشرها لريّ المغروسات .

أما في حالة الواحات فإن دفق الينابيع والعيون الطبيعية كان دائما عاملا يحدّ من توسّع المساحات المروية ويجعلها شبه ثابتة في نطاق ما يتعرض له دفق تلك العيون المائية من مشاكل تعهّد وتنظيف تتسبب في تدنّي هذا الدفق ظرفيا. ونظرا للطبيعة الإرتوازية للطبقات المتّصلة بها هذه الينابيع، فإن الضغط الإرتوازي لهذه الطبقات كان في تناقص مستمر اتضح بشكل بيّن مع بداية هذا القرن حيث

تزايد الطلب على المياه بالواحات مما استوجب الالتجاء إلى التنقيبات. وقد أدّى تزايد حاجيات المناطق المروية بالواحات واتساع رقعتها، إلى تعويض تناقص دفق الينابيع بالمياه المستخرجة من الآبار النابعة أو المستغلة بالضخ وهو ما سارع بنضوب دفق أغلب الينابيع والتحول تدريجا إلى الآبار والتنقيبات لتلبية حاجيات المزروعات.

أما التحكم في مياه الأمطار خلال فترات الجريان السطحي بمناطق السهول المتصلة بالسباسب العليا أو المرتفعات الجبلية فقد عرف تراجعا ملحوظا منذ وقع الاعتماد أكثر فأكثر على مياه الطبقات الجوفية لتلبية حاجيات الغراسات. ولهذا التحول أسبابه الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بالتحول من الاستغلال الجماعي لتلك المنشآت إلى تفرد كل منتفع بأرضه.

6 - وضع استغلال الموارد المائية

تكتسب الموارد المائية اليوم بالبلاد التونسية أهميّة أساسية في العديد من المجالات الاقتصادية نظرا لدورها في التنمية. وقد كان تزويد التجمعات السكنية الكبرى خلال مختلف المراحل التاريخية للبلاد المجال الذي تركزت فيه مساعي تعبئة الموارد المائية أكثر من غيره من المجالات الاقتصادية الأخرى. ومع تزايد الكثافة السكنية بالبلاد وتزايد حاجيات القطاع الفلاحي المروي، تكثّف الطلب على الموارد المائية كما برزت حاجيات جديدة مرتبطة بالأنشطة الاقتصادية التي فرضتها نوعيّة الحياة الجديدة مثل مياه الصناعة وحاجيات المركّبات السياحية.

وقد ارتبط تقييم الموارد المائية بتكثّف الدراسات المتعلقة بتصريف الأودية وباستكشاف الطبقات المائية الجوفية. وفي هذا الصدد فإن المحاولات الأولى في مجال تقييم الموارد ترجع إلى بداية هذا القرن وذلك في نطاق المسح الشامل الذي قامت به إدارة الحماية لضبط الموارد الطبيعية للبلاد. وقد وقع الاهتمام في البداية بالينابيع الطبيعية وقياس تصريف الأودية الدائمة الجري (Penet P. 1913, Pervinquiere L., 1912) وذلك بغرض توفير الماء الصالح للشرب لأهم التجمّعات السكنية الكبرى وخاصة منها مدينة تونس التي تزايدت الكثافة السكانية بها بشكل ملحوظ. وترجع القياسات الأولى لدفق الينابيع الكائنة بالواحات والتي كانت عماد الريّ بمناطق الجنوب التونسي، إلى سنة 1896 (Mamou A. 1974).

ترجع أول المحاولات التقييمية الجادّة للموارد المائية بالبلاد التونسية إلى سنة 1952 (Gosselin M. 1952) وهي محاولات تهدف إلى تقدير الطاقة التخزينية لبعض السدود الموجودة بالبلاد وتقييم موارد الطبقات الجوفية التي تمّ استكشافها. ولكن هذه المحاولات التقييمية للموارد المائية لم تصبح ذات أهميّة إلاّ بعد أن أمكن التوسع في دراسة نظم جريان الأودية والتعرف بمزيد من الدقّة عن طريق الحفريات وقياس المناسيب وإحصاء نقاط المياه المستغلّة للطبقات الجوفية. وفي هذا السياق تبدو المحاولة الأكثر جديّة هي تلك التي تمت سنة 1968 (Zebidi H., 1968) في نطاق الإعداد للمخطط الرباعي الثاني للتنمية .

ومع هيكلة إدارة الموارد المائية والتربة في صلب وزارة الفلاحة في مطلع السبعينات، بدأت تتضح ملامح تقييمات الموارد المائية من خلال تقسيمها إلى موارد مياه سطحية وأخرى جوفية وبذلك أمكن مقارنة هذه الموارد بالاستغلال الرّاهن لها لتبيّن الموارد المتوفّرة والقابلة للاستعمال. ويتّضح ذلك خاصة في حالة المياه المعباة بواسطة السدود والسدود التلّية والبحيرات الجبلية والتنقيبات العميقة والآبار السطحية. وقد دأبت المصالح المختصة في صلب وزارة الفلاحة (قسم الموارد المائية الذي أصبح الإدارة العامة للموارد المائية) على القيام بمراجعة دورية للموارد المائية وتفصيل استغلالها كل خمس سنوات وذلك بداية من سنة 1980. وهو ما يمكّن من تبيّن نسق تزايد الطلب على المياه قطاعيا وتوجيه سياسة التنمية المتعلّقة بها .

الوضع الراهن لتعبئة واستغلال الموارد المائية

يرجع آخر تقييم للموارد المائية بالبلاد التونسية إلى سنة 1990 (DGRE, 1991) وهو يقدّم هذه الموارد ووضع استغلالها على النحو التالي :

- المياه السطحيّة : 2700 مليون م 3/س .
- الموارد القابلة للتعبئة : 2100 مليون م 3/س .
- الموارد المعباة : 1385 مليون م 3/س .
- السدود الكبرى : 1342 مليون م 3/س .
- السدود التليّة : 17 مليون م 3/س .
- البحيرات الجبليّة ومنشآت فرش المياه : 26 مليون م 3/س .

.. – المياه الجوفية : جملة الموارد القابلة للتعبئة 1840 مليون م 3/س وتنقسم بين الطبقات القليلة العمق والطبقات العميقة .

– الطبقات القليلة العمق : 670 مليون م 3/س تستغلّ حاليا بما يعادل 700 مليون م 3 / س وهو ما يعكس وضع استغلال جائر يتجاوز الموارد المتجددة .

– الطبقات العميقة :1170 مليون م 3/س تستغل حاليا في حدود860 مليون م 3/س.

تبلغ درجة تعبئة الموارد المائية للبلاد التونسية حاليا 64 ٪ وتكون نسبة التعبئة أرفع بالنسبة للمياه الجوفية (85 ٪) منها للمياه السطحية (66 ٪) وبذلك يكون الاحتياطي المائي المتوفر حاليا في حدود 36٪ من جملة الموارد المعروفة والقابلة للتعبئة. ويتوزع الاستعمال الحالي لهذه الموارد على القطاعات الاقتصادية الأساسية التالية :

– الفلاحة (الريّ) : 75 ٪ من الموارد المستعملة .

– ماء الشرب : 18 ٪ من الموارد المستعملة .

– الصناعة : 7 ٪ من الموارد المستعملة .

لتبيّن نسق تطوّر حاجيات البلاد من الموارد المائية يمكن الرجوع إلى الاستغلال الحاصل خلال العشرية المنقضية (1980–1990) وهي المرحلة التي شهدت تركيز أهمّ المشاريع الفلاحية السقوية بالبلاد وتميّزت بتطوّر ملحوظ في التزايد الديموغرافي ممّا أبرز حاجيات متزايدة في قطاع مياه الشرب سواء بالتجمعات السكنية الكبرى أو بالمناطق الريفية .

اعتمادا على التقييمات الدورية التي تقوم بها المصالح المختصة بوزارة الفلاحة (DGRE, 1991) فإن حاجيات مختلف القطاعات الإقتصادية للبلاد التونسية كانت في سنة 1980، في حدود 1700 مليون م 3/س، ثم بلغت سنة 1985، ما يقدّر بـ 2320 مليون م 3/س لكي تصل سنة 1990 مقدار 2800 مليون م 3/س. وبذلك يكون نسق تزايد الطلب على الموارد المائية بين 1980 و1985 في حدود 30 ٪ من المستغل ثم أصبح بين 1985 و 1990 في حدود 21 ٪ من المستغل، وينتظر أن لا يتجاوز الطلب على الموارد المائية خلال العشرية الموالية هذا النسق الأخير نظرا لأن أهم مشاريع البنية الأساسية في الفلاحة وتزويد التجمعات السكنية الكبرى بماء الشرب قد تمّ برمجتها في نطاق المخططات الخماسية للتنمية الثلاثة الأخيرة.

.واعتبارا لهذا الوضع الذي يبرز تزايدا ملحوظا في حاجيات مختلف القطاعات الاقتصادية من مياه شرب وزراعة وصناعة، وضعت المصالح المختصة بوزارة الفلاحة خطة عشرية (1990-2000) لتنمية الموارد المائية بحيث يمكن مجابهة حاجيات مختلف القطاعات في مستهل القرن الموالي سواء على المستوى الكمي أو باعتبار نوعية المياه المطلوبة. وتعتمد هذه الخطة العشرية على التوجهات الأساسية التالية (Ministère de l'Agriculture, 1990) .

- تعبئة كل الموارد المائية المعروفة سواء منها السطحيّة أو الجوفية وذلك بواسطة السدود والبحيرات الجبلية وتقنيات التحكم في مياه الجريان السطحي والتنقيبات العميقة والآبار السطحية .

- مواصلة استكشاف الطبقات المائية الجوفية ذات الأهمية الثانوية لتنمية الموارد وخاصة تلك التي يمكن أن تلبّي حاجيات المناطق الريفية من ماء الشرب .

- الالتجاء إلى الموارد المائية غير التقليدية من المياه المالحة المحلاة (لماء الشرب والصناعة) ومياه الصرف الصحّي المعالجة (للفلاحة) .

- الاقتصاد في استعمال المياه وخاصة في مجال الريّ الذي يستهلك 75 ٪ من الموارد المستعملة وذلك بالحدّ من الهدر وإعادة استعمال مياه الصرف جزئيا بعد خلطها بمياه عذبة وملاءمة الزراعات مع المياه ذات النوعية المتدنّية .

هذه الخطوط الأساسية للخطة العشرية لتنمية الموارد المائية وقع إقرارها في شكل مشاريع وانجازات تتمثّل بالأساس في تعبئة كل الموارد المتاحة المعروفة حاليا وذلك بإنشاء 21 سدّا كبيرا لتعبئة 739 مليون م 3/س، و 203 سدّا جبليا لتعبئة 110 مليون م 3/س، و 1000 بحيرة جبليّة لتعبئة 50 مليون م 3/س، و 2000 هيكل للتحكم في مياه جريان الأودية لتعبئة 47 مليون م 3/س إضافة إلى إحداث 1110 بئر عميقة لتعبئة 288 مليون م 3/س .

وينتظر أن توفّر الدراسات الجديدة موارد مائية إضافية كانت تعتبر من قبل ثانوية نظرا لارتفاع تكلفة تعبئتها وذلك في حدود 10 إلى 25 ٪ من الموارد المعروفة حاليا. كما أن الالتجاء إلى الموارد غير التقليدية من تحلية ومعالجة لمياه الصرف الصحي واستعمال المياه المالحة وشبه المالحة في الريّ سيزداد بحسب تزايد الطلب وتوزعه الجغرافي على مختلف مناطق البلاد وهو ما يمكن أن يساهم في تنمية الموارد المائية بنسبة تتراوح بين 10 و 15 ٪ من جملة الموارد المعروفة حاليا .

انطلاقا من التصور الحالي لتنمية الموارد المائية فإنّ البلاد التونسية ستواجه طلب ما بعد سنة 2000 بموارد جمليّة هي بين 5000 و 6000 مليون م 3/س. وستمكّن هذه الموارد من مواجهة حاجيات ينتظر أن لا تتجاوز 3500 مليون م 3/س. وهو ما يجعل البلاد تجتاز النصف الأول من القرن الموالي باحتياطي مائي يتراوح بين 30 و 40 ٪ من الموارد المتاحة .

7 - الخلاصة

جسّمت الموارد المائية بالبلاد التونسية منذ فجر تاريخ هذه البلاد محاولة الإنسان للتأقلم مع تقلبات المناخ. وهي تعكس جهوده من أجل بناء حضارة متكاملة يقوم فيها العمران على التفاعل بين الإنسان وبيئته. وما تعدد التقنيات المائية وتنوع منشآت تعبئة الموارد والتحكم فيها، إلاّ صفحات من تاريخ البلاد يمكن استقراء جوانبها التقنية لتبيّن مزيد من المعلومات عن الجوانب الاقتصادية والثقافية لحياة الإنسان الذي عاش فوق هذه الأرض وانعكست التهيئة المائية كبعد ثقافي في وجدانه ومعتقداته .

اليوم وقد أصبحت تعبئة الموارد المائية مؤشرا للنمو الاقتصادي وبعدا استراتيجيا يتحكم في مستقبل الشعوب، تبدو البلاد التونسية بمواردها المحدودة، من جملة الشعوب الواقعة في نطاق « منطقة العجز المائي » (جان خوري وعبد الله درويبي، 1990) والتي هي في حاجة إلى إحكام استغلال المتوفر لديها من هذه الموارد بكثير الجدوى الاقتصادية وتكامل الاستعمال وذلك للتمكّن من توفير وضعية مائية للأجيال القادمة أقل حدّة مما ينتظر الكثير من الشعوب الواقعة في نطاق نفس المنطقة المناخية .

اعتمادا على التقييمات المتوفرة للموارد المائية بالبلاد التونسية ولتوجه خطط تنميتها نحو ضمان التكامل والجدوى القصوى، فإن آفاق القرن المقبل لن تضع البلاد التونسية أمام إشكالات توفير الموارد ولكن سيتطلب منها وضع سنوات ما بعد سنة 2020، الكثير من التنسيق في استغلال المتوفر من الموارد المائية لضمان النوعية المطلوبة .

المراجع

(*) عبد الرحمان بن خلدون : **كتاب العبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، طبعة بيروت، ج 6، 119 .

(*) أبو عبيد البكري : « **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب** » وهو جزء من كتاب « **المسالك والممالك** »، طبعة المثنى بغداد (بلا تاريخ) .

عن البكري نقل العديد من الرحالة الذين جاؤوا بعده وعلى وجه الخصوص صاحب كتاب «**الاستبصار في عجائب الأمصار** » وهو كاتب مراكشي من القرن 6 هـ / 12 م. وقد نشر هذا الكتاب محققا، سعد زغلول عبد الحميد بالقاهرة (طبعة 1985) .

يذكر البكري في خصوص مواجل مدينة القيروان التي أنشأها هشام بن عبد الملك : « **وخارج مدينة القيروان خمسة عشر ماجلا للماء سقايات لأهلها منها من بنيان هشام بن عبد الملك وغيره وأعظمها شأنا وأفخمها منصبا، ماجل أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بباب تونس وهو مستدير متناهي الكبر في وسطه صومعة مثمنة في أعلاها قصبة لرقبة مفتحة على أربعة أبواب على أحد رجلا لا خلل بينهم كي لا يصل محط (هكذا) فإذا امتلأ الماجل كان ذلك وسطح هذه القصبة نحو ذراعين. كان ابن الأغلب يدخل هذه القبّة في مركب يسمى بالزلاج وتصل بها الماجل في قبليّه أقباء طويلة معقودة أزاجا على أزاج. وكان زيادة الله قد بنى على غربي هذا الماجل قصرا ويجوفي هذا الماجل ماجل لطيف متصل به يسمى الفسقيّة يقع فيه ماء الوادي إذا جرى، ينكسر فيه شدّة جريان الماء ثم يدخل منه إلى الماجل الكبير إذا ارتفع الماء في الفسقيّة قدر قامتين على باب بين الماجلين يسمى السّرح** ». (المغرب، ص 26) .

وقد أضاف صاحب « **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**» بعد أن نقل نص البكري ما يلي: « وهذا الوادي الذي يدخل الماجل إنما هو واد شتويّ يجري في أيام الشتاء، فإذا امتلأ هذا الماجل وغيره من المواجل، شرب منه أهل القيروان ومواشيهم. ويرفع هذا الماجل إلى أيام الصيف، فيكون ماؤه باردا عذبا صافيا لكثرة الماء فيه » (**الاستبصار**، ص 115) .

(*) ياقوت الحموي : **معجم البلدان**، طبعة بيروت، الجزء 5، ص 231 .

(*) جان خوري وعبد الله درويي (1990) : **الموارد المائية في الوطن العربي**، وثيقة مرجعية وتفسيرية للمصور الهيدروجيولوجي للوطن العربي والمناطق المجاورة صادرة عن الألكسو – اليونسكو، دمشق 1990 . 167 ص .

(*) فوزي محفوظ (1993) . **المنشآت المائية بإفريقية في العصر الوسيط** .

« المدار »، نشرية تصدر عن « مدينة العلوم بتونس »، عدد خاص 1993 حول « **الماء والإنسان في تونس عبر العصور** » .

(*) أحمد ممّو (1987) : **المنشآت المائية التقليدية بالجنوب التونسي**

ملتقى الألكسو بتونس حول المنشآت المائية التقليدية بالعالم العربي - جانفي 1987، 16 ص .

(*) أحمد ممّو (1981) : **استكشاف الطبقات المائية بالجنوب التونسي** - مجلة الحياة الثقافية - تونس؛ العدد 31، 1981 .

GASTANY G. & MARGAT J. (1977) Dictionnaire français d'Hydrogéologie.

B.R.G.M-Paris, 1977, 175 pp.

CRESWELL K.A.C. (1940) Early Muslim Architecture; "Ummayads, early Abbàsids and Tùlù nids, Part. II, Oxford, 1940, 290 p.

DAOULATLI A. (1993) L'alimentation en eau de Tunis sous le règne des Hafcides.

Revue "Madar" éditée par la Cité des Sciences à Tunis, Numéro spécial 1993 relatif à l'Homme et la maitrise de l'eau en Tunisie, 37-50 pp.

D.G.R.E (1991) Commission de réflexion sur le développement des ressources en eau de surface et souterraine. Rapport final. Ministère de l'Agriculture-Tunis, 55 p.

D.G.R.E (1994) Annuaire d'exploitation des nappes profondes de Tunisie 1993. Ministère de l'Agriculture, D.G.R.E - Tunis, 241p.

D.G.R.E (1990) Situation d'exploitation des nappes phréatiques en 1990. Ministère de l'Agriculture, D.G R.E) Tunis, 96p.

El Batti D., Mansour H et Habib A. (1974) Carte des ressources en eau souterraine de la Tunisie au 1 200 000, feuilles de Sousse et el Djem n 9 et 12.

Publications de la Division des Ressources en Eau (Ministère de l'Agriculture-Tunis), Décembre 1976, 28 p, 1 carte.

GAUCKLER P (1897) Enquête sur les installations hydrauliques romaines en Tunisie.

Rapport adressé au Résident Général de la République Française en Tunisie, le 31 Décembre 1896.

Imprimerie Rapide-Tunisie, 1897. en 2 Tomes

GOSSELIN M. (1952) L'inventaire des ressources hydrauliques de Tunisie.

Direct. T.P - Tunis, Annales des Ponts et chaussées N5&6, Oct.-Déc. 1951.

Imp. Nationale - Paris, 1952, 141 p., 79 Fig., 22 Tab.

GRESSE R. (1911) Etudes et travaux de recherches d'eau à Bir el Adine. Document inédit à la bibliothèque de la D.G.R.E à Tunis daté du 21 Mars 1911.

MAHJOUBI A. & SELIM H. (1993) La maitrise de l'eau à l'époque antique

Revue "Madar" éditée par la Cité des Sciences à Tunis, Numéro spécial 1993 relatif à "l'Homme et la maitrise de l'au en Tunisie". 31-36 pp.

MAMOU A. (1974) Les sources de la Presqu'ile de Kébili. Direction des Ressources en Eau (Mini. de l'Agriculture-Tunis) Juillet 1974, 88 p. MENARD

P. (1941) Note sur le barrage réservoir construit sur l'Oued Kébir à Sidi Bou Backer.

Direct. T.P-Tunis, Document inédit à la bibliot.

DGRE-Tunis daté du 29 Mars 1941, 6 p.

MINISTERE DE L'AGRICULTURE (1990) Stratégie nationale de développement des ressources en eau de la Tunisie au cours de la décennie 1991-2000. Direct. Génér. des Ressources en Eau-Tunis, Sept. 1990, 30 p. Annexes.

Mtimet A. (1993) La place de l'eau à l'époque préhistorique. Revue "Madar" éditée par la Cité des Sciences à Tunis, Numéro spécial 1993 relatif à "l'Homme et la maitrise de l'eau en Tunisie", 21-30 pp.

PENET P. (1913) L'hydraulique agricole dans la Tunisie méridionale Imp. Rapide-Tunis 1913, 212 p.

PERNINQUIERE L. (1912) Rapport sur une mission scientifique dans l'Extreme-Sud Tunisien.

Imp. Centrale-Tunis, 1912, 62 p.

SOLIGNAC M. (1936) Les travaux hydrauliques hafsides à Tunis

Extraits des actes du 2éme Congrès de la fédération des Sociétés Savantes.

SOLIGNAC M. (1953) Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes du VIII au XI siècle (J.C). Imp. LA TYPO-LITHO - Alger, 1953, 396 p.

VERNAZ L. (1884) Alimentation hydraulique de Tunis et de sa banlieue - Rapport présenté au Directeur Général des Travaux Publics le 25 Septembre 1884, 24 p. (Bibliothèque de la DGRE au Ministère de l'Agriculture-Tunis).

ZEBIDI H. (1968) Deuxième plan quadriennal. Rapport du groupe de travail sur les eaux souterraines. Rapport interne, DRES-Minist. de l'Agriculture-Tunis (TG 313).

أحمد حمّو

المهندسون بالبلاد التونسية في القرنين التاسع عشر والعشرين

ليس الغرض من وراء هذا العنوان تقديم بسطة تاريخية تتعلّق بفئة مهنية معيّنة انما هو تساؤل حول ظروف بروز هذه الفئة ومدى مساهمتها - ماضيا وحاضرا - في نقل الحداثة وبثّها بالبلاد التونسيّة.

هذه الحداثة التي قال عنها عبد الله العروي « إنها مسار على الدوام متفاوت لا ينتهي » يمكن أن نعرّف بها استنادا إلى التحديدين اللذين اقترحهما جورج بالنديه (G. Balandier) في كتابه « انتروبو / لوجيك ».

للحداثة حسب ما جاء به تحديده الاول « خصائص مشتركة بين البلدان الأكثر تفوقا في ميدان التقدّم التكنولوجي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي» .انظر

كيف أن البعد التكنولوجي في هذا التعريف بارز الاهمية . لكن بالنديه سبق له أن بيّن عند تناوله مفهوم الوضع الاستعماري - بيّن أن الاستعمار رغم تنوّع أسبابه ومبرّراته يتميّز بعلاقة مواجهة بين مجتمعات تختلف من حيث مستوى تقدمها التقني لأنّ العالم العصري لا قوام له بدون ملكة تكنولوجية .

تحديد ضروري لكنّه غير واف سببه منظور تطوّري يجسّمه عادة مشهد القاطرة وما تجره وراءها من عربات إلى حد أن الحداثة أصبحت تكتسي معه - عند استعراضنا لأغلبية البلدان - طابعا شبه أسطوري .

أمّا الحداثة في التحديد الثاني فإنها تعني « القدرة على الاستفادة من تناوب ما يكمن في كل جهاز اجتماعي » . فلم تعد تحدّد بالرجوع إلى مجتمعات أخرى إنما تعرّف بوصفها « قدرة » أو خاصيّة توجد في كل مجتمع .

ولا بدّ للتحديد بالرجوع إلى القدرات أن يتضمّن وجود الكفاءات . فعلى هذه الكفاءات يقوم غالبا تقدّم المجتمعات وإمكانية دخولها حيز الحداثة . وهذه الكفاءات عديدة متعدّدة لكن التقنية منها أصبحت اليوم أساسية أكثر فأكثر لفرط ما تميّز به القرن العشرون من شهرة في ميدان إخضاع الإنسان للطبيعة .

فإذا كان الأمر كذلك فإلى أي درجة تتوفّر اليوم هذه « الكفاءات التقنية » في مجتمعاتنا ؟ وإن هي توفّرت فهل تضطلع بدورها وتقيم الدليل على سعة استفادتها من تناوب ما يكمن في جهازنا الاجتماعي؟ .

سوف أفترض في البداية أن أصحاب الكفاءات هم المهندسون أساسا ثمّ أقترح تعريفين لكلمة « مهندسين » الأول لغوي استناداً إلى أصل الكلمة بالفرنسية ومعناها : القادرون على إنشاء المعدّات .وهي كلمة تتضمّن وجوبا بحكم اشتقاقها مفهومي الاختراع والاكتشاف .

أما التعريف الثاني فإنه يدل حسب ما جاء به قانون المؤسسات على صنف من الرجال والنساء أحرزوا على **شهادة** تقرّ **الكفاءة**. فإلى التعريف الثاني سوف أستند - في بداية هذا العرض على الأقل .

ويتألّف عرضي هذا من ثلاثة أجزاء :

1) جزء أوّل نبيّن فيه أن تكوين المهندسين في البلاد التونسية عملية حديثة العهد لأن عدّة عراقيل حالت دون ذلك التكوين في القرن التاسع عشر وفي العهد الاستعماري .

2) جزء ثان نحلّل خلاله سياسة التنمية في البلاد التونسية منذ الاستقلال مع محاولة إبراز للدور الذي خصّ به المهندسون ضمن مشاريع التنمية .

3) وأخيرا سوف نقدّم في الجزء الثالث عدّة افتراضات مشفوعة بملاحظاتنا وتحقيقاتنا حول ما يوجد من علاقات بين المهندسين وحركية المجتمع برمّته .

لم تكوّن البلاد التونسية حتى حدود الستينات الا عدداً ضئيلا من المهندسين. لماذا ؟

يعدّ التقويم المنجز في سنة 1961 والقائم على إحصاء التونسيين الذين زاولوا تعلّمهم في أهم معاهد المهندسين بتونس وفرنسا وسويسرا - يعد 231 مهندسا . منهم 86 تخرّجوا من المعهد الأعلى للفلاحة (المعهد الوحيد في تونس وكان يسمّى المدرسة الاستعمارية للفلاحة) وكان لا يوجد قبل ذلك التاريخ بخمس سنوات أي في عام 1956 (عام الاستقلال) إلا 84 مهندسا من بينهم 48 أنهوا دراساتهم في المعهد الأعلى للفلاحة المذكور . فما هو سرّ تواضع هذه الأرقام بالنسبة إلى مدّة عرفت فيها مهنة المهندس تقدّما في كل مكان بداية من القرن التاسع عشر؟ . لا شكّ أنه لوحظ في تونس وفي غيرها من البلدان محاولات إدخال تعليم تقني رفيع المستوى يرمي إلى تكوين المهندسين لكن المشروع مُني بالفشل لأسباب داخلية وأخرى خارجية سوف نتعرّض لتحليلها و لئن كان من المحتمل أن نفترض أن التأثير الأروبي والاستعماري وما عرفته فرنسا في ميدان التعليم التّقني من شأنهما أن يساعدا على تكوين نخبة مثقفة خاصّة في الميدان التقني . فإن العهد الاستعماري - على عكس ما قد يجوز تصوّره - تميّز بعرقلة كلّية ورفض بات إزاء أناس قادرين على تسخير تقنيات كان « المهيمنون » حريصين كل الحرص على احتكارها لأنفسهم. فلمثل هذه الأسباب وغيرها لم يتوجه إلا عدد ضئيل من الشبان الذين رزقوا نعمة التّعليم العالي - نحو مدارس تكوين المهندسين.

إن دولة الاستقلال هي التي يعود إليها الفضل في تكوين المهندسين ولكن بنسق أقول إنه كان بطيئا جدا. فصحيح أن عدد المهندسين ضرب بثلاثة بين سنتي 1956 و 1961 وإن عدد التلاميذ المترشحين للمهنة أصبح يساوي في سنة 1962 عدد من وصل منهم إلى سوق الشغل لكن لو استثنينا المدرسة العليا للفلاحة التي يعود تأسيسها إلى نهاية القرن التاسع عشر في عهد الحماية فإنه لم يقع إحداث أي مدرسة أخرى مماثلة حتى سنة 1969 . وابتداء من ذلك التاريخ فقط أسست على التوالي مدارس المهندسين بتونس ثم قابس وصفاقس والمنستير .

مهنة المهندس بالبلاد التونسية في القرن التاسع عشر

نعرف أن ازدهار مهن المهندسين في أروبا لا ينفصل عن الثورة الصناعية والتقدم التقني حافزها . فلئن كان التقدم التقني في البداية ولمدّة طويلة ثمرة اجتهاد «العمليين » من العمال والصنائعيين فإن التحسينات التقنية والاختراعات أصبحت منذ القرن السابع عشر ناجمة أكثر فأكثر عن علماء لا يكتفون بالاستدلال المجرّد والتنظير حول ما تمّ التعامل به من تقنيات . وعلى إثر ذلك ومن أجله وقع استنباط مشاريع تهدف إلى تكوين هؤلاء العلماء القادرين على التبحّر في تقنيات بدأ المسار بتأملات بيداغوجية (بيكون - ديكرت ...) تزداد تعقدا من يوم إلى آخر. ثم وقع افتتاح في القرن الثامن عشر لأولى مدارس تكوين المهندسين لأغراض حربية في البداية ثم ادارية فيما بعد . وكان الهدف من وراء ذلك كله إخضاع أهم توجيهات الدولة الاقتصادية لكفاءات تقنية .

أما المغرب فإنه مرّ في القرنين السابع عشر والثامن عشر بأزمة معرفية حادة . نذكّر أنّ ابن خلدون حاول منذ القرن الرابع عشر أن يلفت النظر في مقدمته إلى انعدام جدوى الطرق البيداغوجية القائمة في تكوينها العلمي على الحافظة وشرح النصوص . وكان يأسف لاختفاء العلوم العقلية في مؤسسات جامعية مثل الزيتونة. ولئن كان السلطان والمجتمع قد واضبا على احترام العلوم ورعايتها فإن هذه العلوم كانت أساسا علوماً دينيّة .

لم يكتب لأي مشروع صناعي ظهور في القرنين السابع عشر والثامن عشر . في بداية القرن التاسع عشر فقط وفي البلاد التونسيّة بالذات تجدر الاشارة إلى ما سعى إليه حمودة باشا الحسيني عندما رام تنمية تجارة البلاد الخارجية فشجّع على تصدير منتجاتها المجوّدة إلاّ أنّه لم يكن يوجد في حقيقة الأمر مشاريع صناعية من شأنها أن تستنهض كفاءات تقنية معينة وما كانت تعرفُ رغبة في تكليف المهندسين باختيارات السلطان الاقتصاديّة .

فلمّا تجلّت رغبة تكوين التقنيّين والمهندسين بالبلاد التونسية وغيرها من بلدان المنطقة فإنّها شملت الميدان العسكري قبل كل شيء . ففي ثلاثينات القرن التاسع عشر ينتدب حسين باي الثاني ضباطا فرنسيين وايطاليين وضباطا أتراكا تحصّلوا على تكوين أروبي - انتدبهم لتدريب قواد جيشه . وحاول الضابط

الايطالي كالقاريس الذي وقع انتدابه في ذلك الاطار أن يقنع الباي بضرورة إنشاء مدرسة عسكرية تدرس فيها الرياضيات وفنون الحرب . وتبنّى فكرة كالقاريس أحمد باي الاول خليفة حسين باي الثاني وكان حسب ما بيّنه خليفة شاطر «من أنصار التجديد والاقتباس من الغرب في كل ما يتعلق بالأمور الاقتصادية والعسكرية والثقافية ». وقد انتدب لذلك الغرض جمعا من المهندسين لم يعهد إليهم تأطير الجيش فحسب بل كلفهم أيضا بإنشاء عدة صناعات وإدارة أشغال البنية الأساسية.

يقول مارتز (MARTZ) في فصل من فصول المجلة التونسية (1897) معلقا على إقامة أحمد باي في بلاط الملك لويس فليب (نوفمبر سنة 1846) اندهش عقله خاصّة ببدائع تطبيقات الهندسة الصناعيّة وكانت من بين العجائب التي حظيت عيناه بمشاهدتها فسعى منذ ذلك الحين إلى استنباط مشروع فاضل يخلص الصنائع الأهلية من الرتابة التي تورطت فيها ويشجّعها على سلوك جادة التقدم ويجهّز بلاده بمؤسسات خصوصية تدعّمها وسائل إنتاج تجلّت له منافعها الاقتصادية.

وفي سنة 1840 يقع تأسيس المدرسة العسكرية بباردو التي حملت اسم « مكتب المهندسين » وسميت أيضا « المدرسة المتعددة الفنون » وهي أول مدرسة تونسية غير راجعة بالنظر إلى السلط الدينيّة - تدرس فيها فنون الحرب والعلوم والرياضيات . وقد أكّد أحد أساتذة المدرسة وهو الشيخ محمود قابادو في ديباجة تهذيبه لما عربه تلاميذه من كتاب« مختصر فنون الحرب » (أصول الحرب) - تأليف البارون هنري دي جوميني - أكّد على أهمية الاختراعات العلمية فيما سماه بنهضة «الكفرة » .

يذكر نور الدين سريب في أطروحته حول المدرسة الصادقية هذه الديباجة التي يُستشفّ فيها ما يلي : « إن العالم الاسلامي متخلّف رغم ما وهبه الدين الاسلامي من امكانيات تقدم . يجب البحث إذن عن أسباب ذلك التخلف خارج الدين. إن المقارنة بين العالم الاسلامي وأوروبا تبيّن أن ما يعوز العالم الاسلامي هي العلوم الدنيوية. ان اروبا اخضعت العالم الاسلامي عندما أخذت عنه العلوم بيد انه تركها. فلن يسترجع المسلمون سعادتهم أبدا ما داموا غير قادرين على استرجاع العلوم التي أضاعوها ». كان من واجب مكتب المهندسين أن يكوّن إطارات أكفاء لا للجيش فحسب بل للصناعات الجديدة والأخرى المزمع إنشاؤها

بعدها بفضل مساهمة المهندسين الأجانب والفرنسيين منهم خاصّة لكن تعليمه أسفر في الواقع على الخيبة لعدة أسباب منها :

1) **انتقاء التلاميذ** : وكانوا من قرابة السلطان - أتراكا أو مماليك يؤلفون طبقة خاصة ويعينون لقيادة الجيش (توفيق بشروش) رغم أن مستوى تعلّمهم كان في الغالب ضعيفا لا يسمح لهم بمتابعة دراسات علمية راقية .

2) **موقف علماء الدين من كل تعليم يبثّ خارج المساجد** : بينا أن مكتب المهندسين كان المؤسسة الوحيدة غير الدينية . وقد رفض مشائخ الجامع الأعظم التدريس فيها رفضا قطعيا . ولما كانوا يتوارثون خطة التدريس عن آبائهم فان الشيخ قابادو يعتبر هامشيا بالنسبة اليهم لأن أباه كان يصنع الأسلحة . فلما أنهى الشيخ قابادو دراسته و اختاره سليمان كاهية وزير الحرب معلما لولده لم يستطع إلى مؤالفة علماء الدين سبيلا فاضطر إلى السفر إلى روما ثم إلى تركيا ولم يرجع إلى تونس إلا في سنة 1842 لمناصرة أحمد باي في إصلاحاته .

3) **تحفظات « السلط الاوروبيّة »**

وأخيرا نستطيع أن نفترض أن المشروع اصطدم بعدم تشجيع - بل بمقاومة - السلط الأروبية . يقول مارتز MARTZ في فصل نشره بالمجلة التونسيّة عنوانه «الصناعات الأوروبية في البلاد التونسية » إن قناصل الدول الأروبية الحريصين على إبقاء تونس في وضع دائم التبعية لدولهم لم يقوموا باي محاولة تسعى إلى تشجيع مبادرات مواطنيهم الرامية إلى التصنيع .

ونتيجة لذلك يغلق « مكتب المهندسين » أبوابه في سنة 1854 ولم يفتحها من جديد إلا تحت تسمية جديدة وهي « مكتب الحرب » ولأهداف عسكرية بحتة (تكوين ضباط).

ساهمت هذه المؤسسة على كل في تكوين بعض المهندسين - عدد ضئيل في الحقيقة - حتى أن المهندسين المشار إليهم بمناسبة الأشغال الكبرى التي أنجزت في ذلك العهد إنما كانوا غالبا أجانب و فرنسيّين بالخصوص . نجد من بين التونسيين القلائل حسونة بن مصطفى الذي عهدت إليه - قبل أن يكلّف بالتدريس في المكتب الحربي - أشغال مثل بناء أروقة جامع الزيتونة وزاوية سيدي محرز وأسوار مدينة سوسة ومجار بين باب أبي سعدون وباب السويقة وهي أشغال استعمل فيها الجرار الآلي لحمل المواد لأول مرّة . ونجد أيضا الجنرال حسين

وزير التعليم في حكومة خير الدين وقد ساهم حسين في إصلاح « تعليم الزيتونة» (النص المؤرخ في 20 ديسمبر 1875) وتأسيس المدرسة الصادقية. ولنشر في هذا الصدد إلى أن أحد أهداف المدرسة الصادقية الرئيسية مجسّم في تكوين تلاميذ يوجّه الممتازون منهم لاقتحام مناظرات دخول مدارس المهندسين العليا بأروبا .

وقد فشل المشروع مرّة أخرى والحق أنه أجهض وذلك لأن سلط الحماية ادعت أن ضعف مستوى التلاميذ لا يبيح لهم مواصلة الدراسة بالمعاهد الباريسيّة التي وجّهوا إليها وحري بنا أن نأخذ بعين الاعتبار « يقظة » النظام الجديد الذي أصبح يخشى بروز نخبة تستطيع السيطرة على وسائل الحداثة . ولا يخفى أن نظام الحماية كان حريصا كل الحرص على احتكارها . هذا ما قد يفسّر إسراع سلط الحماية في دعوة الشبان المتحصلين على منح و حرصها على تشغيلهم كمترجمين في الادارة قبل أن تتوطّد حظوظهم الجامعيّة في فرنسا. كما أن سلط الحماية قسرت أفواج المدرسة الصادقية اللاحقة ولمدّة سنوات عديدة - على البقاء في تونس ليعملوا في الإدارة بعد انتهاء دراستهم .

عهد الحماية

رأينا كيف أن سلط الحماية حرصت على ترحيل النخبة التقنية المستقبلية من فرنسا وألغت منحا قد تساعد بعض الطلاب على تعلم مهنة مهندس . ولما كان عهد الحماية كله - من بدايته إلى نهايته متميّزا باستمراريّة رفض السلط الفرنسية تكوين الإطارات التقنية التونسية أو إدماجهم فإن ذلك يجرّنا بالطبع إلى إبداء الملاحظات التالية:

1) لئن كانت المصالح الأساسية للإدارة التونسية في بداية الحماية كاملة لم يجر عليها أي تغيير وفقا لنص الحماية فإنّ السلط الفرنسية سرعان ما أحدثت إلى جانبها مصالح جديدة جميع إطاراتها فرنسيّون لا يستعملون سوى اللغة الفرنسية. من بين هذه المصالح توجد بالخصوص المصالح التقنية (كالأشغال العمومية وإدارة الفلاحة) التي تشغّل المهندسين .

فكان يتعايش حتى حدود سنة 1920 إطاران مختلفان في الوظيفة العموميّة : إطار فرنسي وإطار وطني وكان الإطار الوطني خاليا من كل وظيفة تقنية . وقد تمّ العدول عن ذلك التمييز في سنة 1920 لكن المشرّع أصبح يشترط الخدمة

العسكريّة على الموظفين رغم التزام المنفّذ بتطبيق قانون 12 جانفي 1892 الذي يعفي منها كل تونسي تحصل على الشهادة الابتدائية . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن نصّ 1920 يقول : «ليس للتونسيين أو الجزائريين الحق في ممارسة وظائف السلطة أو المراقبة العليا التي تشملها اتفاقيّة 9 جوان سنة 1883» .

2) وكان الخطاب الرسمي أيضا ينهى عن الاتجاهات التقنية وعلى سبيل المثال نذكر الكلمة الذي ألقاها المقيم العام بيروطون في شهر نوفمبر 1935 والتي قال فيها: « نحن لا نريد تكوين إطارات تقنية عليا . نحن لا نريد وجود بطالين ليوم غد. لاخطأ أخطر من خطإ يصنع حامل شهادة ثم يرفضه ». هذا وفي نفس تلك الفترة كانت إدارة الأشغال العمومية تشغل بمفردها مائة وخمسين مهندسا كلهم فرنسيون . كما أشار إلى ذلك بول صبّاغ في كتابه « البلاد التونسيّة » .

3) ترفض المؤسّسات التي أحدثت منذ الحماية تشغيل المهندسين التونسيين عامة بدعوى أن أثرهم على العمال التونسيين وخيم من شأنه أن يمهّد السبيل لزعامتهم. إن عدد الشبان التونسيين الذين يمموا صوب مهنة مهندس كان في الواقع قليلا نادراً على طول امتداد عهد الحماية وذلك للأسباب التالية :

1) لو استثنينا المدرسة الاستعماريّة للفلاحة التي اقتصرت ولمدة طويلة على تكوين الفلاحين والتقنيين الفلاحيين لفائدة الاستعمار لواستثنينا تلك المدرسة لرأينا أن عهد الحماية لم ينشأ فيه أي معهد تعليم تقني عال مخصص لتكوين المهندسين. فقد كان الراغب في الالتحاق بمعاهد المهندسين مقسوراً على الذهاب إلى الخارج وفي غالب الأحيان بدون منحة تدعم دراسته .

2) إن أغلبية الشبان القادرين على مزاولة التعليم العالي كانوا ينحدرون من أسر المشائخ والأعيان الذين ظلّوا متحفّظين إزاء التكوين العلمي والدراسات باللغات الأجنبيّة .

3) أما الوظائف التقنية الشبيهة على مستوى التصوّرات الجماعية بالأشغال اليدوية فإنها كانت على عكس الوظائف العدلية أو المناصب الادارية تسام خسفا.

فلئن قدمنا بعض الافتراضات في سبيل تفسير اختيارات بعض الشبان الذين سجّلوا أسماءهم بالمدرسة الاستعمارية للفلاحة فإن تلك الافتراضات يجب أن تقرأ بحروف التبجيل - لا لخدمة الأرض - لكن لملكيتها . ثم إن جاذبية هذه المدرسة يجسمها وجودها بتونس وتبرّجها لقبول شبان أخفقوا في الحصول على

شهادة البكالوريا . ويجب أن نؤكد من جهة أخرى أن معظم من زاولوا تعلمهم في هذه المدرسة قبل الاستقلال إنما كانوا أبناء ملاكين عقاريين.

4) لما كانت الادارة مغلقة في وجوه الطلبة بسبب تشغيلها مجموع المهندسين فإن هؤلاء الطلبة فضلوا التوجه نحو المهن الحرّة مثل الطب والصيدلة والمحاماة .

5) لاقى المهندسون القلائل الذين استطاعوا أن يتكونوا في عهد الحماية متاعب جمّة بل عراقيل شاقة لما أرادوا دخول معترك الحياة . نذكر على سبيل المثال ما وقع لمهندسين اثنين أحدهما درس في المدرسة المركزية والآخر في المدرسة المتعددة الفنون الباريسيتين . إنهما لقيا رفضا باتا من لدن إدارة الأشغال العمومية التي زعمت أنه لا يوجد مركز شاغر لديها. فاضطر الأول إلى الاغتراب في بلاد الكنغو حيث وافاه الأجل بعدما أصيب بمرض الحمى الصفراء . أما الثاني فإنه اضطر إلى ارتضاء حرفة مقاول للاشغال العمومية بعد أن لاقى الويلات في سبيل الحصول عليها .

وفي سنة 1929 فقط يرجع مهندس شاب من فرنسا محملا بشهادات ثلاث مدارس وهي المركزية والمناجم والمتعددة الفنون . واقتفى الأثر . لكن بعد الحرب العالمية الثانية . جمع صغير يتألف من خمسة عشر مهندسا تشهد ملامح حياتهم المهنية على تعدّد تقلباتهم .

وفي نهاية هذا الجزء الأوّل لا يسعنا إلا أن نؤكّد على جسامة التخلّف المفروض على مسيرة البلاد التّنمويّة بسبب حرمانها من نخبة قادرة على تسخير التكنولوجيات العصرية والمساهمة في اختيار المتأكّدة منها.

دور المهندسين وسياسة التنمية في تونس المستقلة

سوف ندرس في هذا الجزء الثاني سياسة تونس المستقلة من حيث واقع تكوين المهندسين ومن حيث تخطيط التنمية التكنولوجية :

1) سياسة تكوين الاطارات

أكدّ الخطاب السياسي الوطني أيام الكفاح من أجل الاستقلال على أهمية التربية وتكوين الاطارات لكن الأولوية كانت تُعطى أساسا للأهداف السياسية . ويبدو أن تكوين بعض المهندسين حتى الستينات لم يكن الباعث إليه قرار سياسي إنما ميول واختيارات فرديّة . ولمّا تمّ التوقيع علىّ بروتكول الاستقلال ،ونتج عن ذلك

هجرة للإطارات الفرنسية مكثفة وجدت معظم المصالح من بينها المصالح التقنية وجدت نفسها عاجزة على إدارة شؤونها ولم تتدارك الأمر إلا بواسطة الاطارات الدنيا وصغار الموظفين وما أعدّه الحزب الحر الدستوري والاتحاد العام التونسي للشغل من وسائل دفاعيّة منذ سنة 1947 ضمن استراتيجية متبصّرة .

والحق أنه إذا ما تذكّرنا أن الحماية عرقلت تكوين الاطارات التقنية بما في ذلك الاطارات الدنيا أيقنّا أن النقص الحاصل اكتسى طابعا مأساويا. فاضطرت الدولة إلى ترغيب بعض المهندسين والإطارات الفرنسيين في البقاء بمراكزهم او اللجوء إلى جلب كفاءات أجنبية جديدة .

وقد فرضت أولوية الحاجة إلى « قطاعات السيادة » تكوين إطارات مثل إطارات الجيش والمالية والضرائب والبريد بصفة مستعجلة ناهيك أن جلّهم فصلوا عن المدارس الثانوية (قبل الحصول على الجزء الثاني من البكالوريا غالبا) أو التعليم العالي (قبل الإحراز على شهاداتهم). وكان بعضهم يستطيعون مواصلة دراسات عليا في معاهد المهندسين .

ولم تشجع الدولة بصفة خاصّة في بداية الاستقلال الشبان على مواصلة دراسات ترمي إلى الحصول على شهادات المهندسين . كانت الاختيارات أساسا فردية رغم أن الطلاب المسجلين في السنوات التحضيرية لمدارس المهندسين العليا كانوا يتمتّعون غالبا بمنح الدولة . ولا جرم في هذا الصدد من استثناء بعض المسؤولين الذين حاولوا الانذار بالخطر - بناء على تجاربهم وبحكم ما كان يؤهلهم لقيس أهمية الرهان - عندما وجدوا أنفسهم في ممارسة أعمالهم اليومية رهائن الفراغ الذي خلفته هجرة المهندسين الفرنسيين (ابن سالم 1990).

ولم تلتزم الدولة التونسية التزاما خاصا بتكوين إطارات على أمد طويل وحثّ التلاميذ المتفوقين في المواد العلمية على مواصلة دراستهم في معاهد المهندسين إلا بداية من حلول الستينات عندما أبرزت أزمة بنزرت (1961) حدّة الحاجة إلى الاطارات التقنية .

رأينا سابقا أن بعض المهندسين الفرنسيين أثبتوا في مراكزهم بعد الاستقلال كما دُعي مهندسون آخرون جلّهم فرنسيون . لكن حالة « الحرب » بين تونس وفرنسا تسبّبت في رجوع كل المهندسين الفرنسيين إلى بلادهم. وكان ذلك

امتحانا ودليلا على التبعيّة التي تخبّطت فيها تونس على مستوى تسيير مصالحها التقنية الحيوية باستثناء الفلاحية منها إلى درجة ما . وعلى إثر ذلك وقع الشروع في سياسة تكوين إطارات تقنية لم يصحبها حسب ما يفهم من قراءة المخططات برنامج توسّع تكنولوجي واضح المعالم . فلم تؤسّس أولى مدارس المهندسين (باستثناء مدرسة المهندسين الفلاحيّين وريثة المدرسة الفلاحية الاستعمارية القديمة) إلا ابتداء من سنة 1969 وكان أول فوج لخرّيجيها بتاريخ 1974.

ولئن أصبحت الجامعة التونسيّة تكوّن اليوم مهندسي أشغال ومهندسين أوائل في كافة الاختصاصات فإن الدولة ما فتئت ترسل ألمع طلابها يدرسون بالخارج في أبرز المعاهد العليا الفرنسيّة وأشهر الجامعات الامريكية على الأخص. ثمّ أنشئ تبعا لقرار حديث معهد تحضيري لمناظرات دخول مدارس المهندسين ومعهد متعدد الفنون رفيع المستوى يرجع السبب في تأسيسهما إلى هجرة لأفضل أدمغة البلاد عارمة وميل إلى البقاء في الخارج متفاقم بعد انتهاء الدراسة .

وتعدّ البلاد التونسية اليوم بين 7000 و 7500 مهندس أي قرابة مهندس واحد للألف ساكن(*) .

التقدّم التكنولوجي وسياسة التخطيط

يبيّن تحليل مخططات التنمية في تونس على اختلافها من «الآفاق العشرية » (1962 - 1971) إلى المخطط السابع أن إدراك التنمية تحقق بمنظار الاستثمار والتشغيل ونمو الانتاج .

ولئن كان عمل الانسان في هذه « الآفاق » يعرّف بوصفه أنفس المكاسب وأخصبها فإن مختلف المخططات تعتبر التشغيل عنصرا متغيّرا مسيّرا هدفه توفير الشغل ومحو البطالة قبل كل شيء .

وتخصّص كل المخطّطات تقريبا، لتكوين الاطارات فصلا وتؤكّد أهميّته . فالمخطط الثلاثي (1962 . 1964) يقول إن نقص الاطارات يؤدي إلى اختناق السبل ويلحّ على ذلك لكن الفصل لم يكن في الواقع الا حديثا عن التعليم الابتدائي والثانوي والعالي هدفه الأساسي الكم (عدد من يجب تكوينهم - حجم

(*) سجّل 6989 مهندسا اسماءهم في قائمة مجلس هيئة المهندسين بتاريخ 5 جوان 1994 ـ المصدر : مجلس هيئة المهندسين .

ما يجب رصده من استثمارات) أما الحاجيات على مستوى الاطارات التقنية فإنها لو استثنينا القطاع الفلاحي قليلا ما تذكر. ويتجلى ذلك بوضوح في الآفاق العشرية والمخطط الثلاثي . ويقول هذا المخطط الثلاثي في فصله المتعلّق بالفلاحة والصيد البحري - بعد ضبطه الأهداف الأولوية (نمو الانتاج الفلاحي - الاكتفاء الغذائيّ وأثرهما المنشط على القطاعات الأخرى وأخيرا ارتفاع مستوى معيشة سكان الارياف) يقول بصريح العبارة (ص 32) « يُخشى أن يظل تحقيق هذه الانجازات من باب المجازفة لو لم نعجّل بتكوين الاطارات الفلاحيّة كمّا وكيفا » .

وفي فصل من فصول « الآفاق » الحامل عنوان « تكوين الإطارات » لم تشمل الدقة إلا القطاع الفلاحي من حيث عدد مهندسيه حاضراً ومستقبلا . أما القطاع الصناعي فلا أثر لمتغيراته في ميداني التأطير والتكنولوجيا. إنما يوجد عدد جملي لألفي مهندس وهو الرقم المتعلّق بحاجيات القطاع . وتتميّز المخططات اللاحقة بما في ذلك المخطط السابع بنفس الصمت على مستوى تقييم الحاجيات من المهندسين كما وكيفا .

وتلاحظ من جهة أخرى عند قراءة المخططات تساؤلات جديدة حول منزلة المتغيّرات التكنولوجية في مسار التنمية . ولا تذكر هذه المتغيرات ضمن الأهداف العامة للتخطيط إنما يشار إليها على المستوى القطاعي في الفلاحة بالخصوص (استعمال مجموع مكوّنات الانتاج - الدّورات الزراعية - استعمال الآلات) والصنائع التقليديّة (إنقاذ التقنيات القديمة - اختيار التقنيات التقليدية وتجديدها - البحث عن علامات تضمن الجودة وعن تقنيات ملائمة لها) والقطاع الصناعي (مراقبة العلامات التي تضمن الجودة - تنسيق المواصفات - بحوث تكنولوجية). فبالنسبة للصناعة التعدينية تستطيع أن تقرأ في الصحيفة 232 : «إن الطريقة التي يحب اتباعها في هذا الميدان تتضمّن في مرحلة أولى إقامة وحدات تركيب لما يزمع توريده من عناصرها وفي مرحلة ثانية إنشاء بعض الصناعات الأساسية التي من شأنها أن تخفّف من حدّة توريد المنتوجات نصف المصنّعة وتيسّر فيما بعد تأصيل عدّة وحدات صناعية صغيرة » إنه لبرنامج تكنولوجي برمّته ! ولا أثر كذلك لدور التكنولوجيا - لو استثنينا القطاع الفلاحي - في مخططات تنمية العشرية الأولى. فلا يذكر المخطط الثاني (1962 - 1965) وكذلك الرباعي (1965 - 1969) إلا الانتاج والاستثمارات . والحق أن التقنيات توجد في المخطط الرباعي مسجلة لكنها لا تتعدى دور التجهيزات المزمع اقتناؤها .

ويرى المخطط الثالث (1969 - 1972) أن التعصير أول هدف نصبو إليه مؤكدا ما تميزت به الستينات من تقدم عجيب للعلم لكن الغايات تبقى في أولويتها كمية. هناك إشارة ملحة على التركيز (مؤسسات ضخمة - عصرية ومحكمة التصرف. ص 15) ويرى المخطّط انتشار التقنيات ونمو البحوث بمنظار **الاختيارات الاستثمارية لا بعين الاختيارات التكنولوجية**. وكذلك الشأن بخصوص المخطط الرابع والخامس والسادس **فاقتناء التكنولوجيات الجديدة** إذن هو الأساس. في المخطط الخامس تذكر مفاهيم التنافسية والانتاجية لأول مرّة لكن في صيغ «تزويد قطاع الانتاج واعتزال المبالغة في حماية بعض الصناعات » أما المخطط السادس فإنه ينص مباشرة على مفهوم انتاجية العمل من خلال «كثافته». والجديد في هذا المخطط السادس إنما هو ربط العلاقة بين البحث العلمي والتقني من جهة والمشاكل التكنولوجية من جهة أخرى.

فلم يُطرح مفهوم « **ملكة التكنولوجيا وترقيتها** » بكل وضوح إلا في المخطط السابع (1987 - 1991) رغم أن الانتاجية المنشودة تبقى دائما إنتاجية العمل. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى فصلين جديدين وهما الفصل المتعلّق «بملكة التكنولوجيا وتطوير البحث » (الفصل الثامن) والفصل المتعلق « بالاعلامية» المطابق هو الآخر للمطالب التي قدّمتها هيئة المهندسين منذ سنة 1981 والتي وقعت المصادقة عليها في اتفاقيّة سنة 1985...ولاول مرّة يدعى مجلس الهيئة للمشاركة في أشغال لجان المخطط الثامن القطاعية التحضيرية وينجم عن ذلك تحديد لبرامج عمل يهدف إلى إدماج العامل التكنولوجي في مسار التنمية واعطاء البحث العلمي منزلة أهمّ من التي كانت عليها . وكان من بين الأشياء المزمع إقرارها في نهاية المخطط الثامن تخصيص 0.40 % من الناتج الداخلي الخام للبحث العلمي (لم يخصّص إلا 0.25 % منه لذلك الغرض في سنة 1992).

ظلت ملكة التكنولوجيا في الواقع وعلى جميع المستويات شاغلا ثانويا . وما انفكّت المسائل تطرح بتطلّع متفاوت فالرغبة في اقتناء التكنولوجيا تفوق رغبة التجديد الذاتي والاقتباس كما ظلت الاختيارات التكنولوجية إلى حدّ كبير خاضعة لموارد التمويل أو العلاقات مع الشركات الاجنبية أو المناقصات على الصعيد الدولي حتى أن المهندسين (باستثناء من كانت لديهم سلطة القرار بوصفهم رؤساء مؤسسات) أصبحوا يعتبرون أنفسهم « مهمّشين » وهذا ما يبرز عندما نقرأ بانتباه ما ينشرون وبالخصوص ما يكتب في « المهندس التونسي » لسان حال مجلس الهيئة. يقولون : « نحن أعوان تطبيق نعدّ الدراسات ونطلق مشاريع

ونختم أخرى في آجال محدودة جدّاً لا تسمح لسياسة موفقة بالازدهار ... ماذا يبقى لبلادنا عندما تكبت مهارتنا وروح الخلق فينا ؟ » (العدد 11 ـ سبتمبر 1990 ـ ص 9).

دور المهندسين وحركية المجتمع برمّته

افتراضات

أوضح لنا تحليل مختلف المخططات الحالة التي كان عليها المهندسون والتكنولوجيا في مسار التنمية وفي نهاية المطاف لا بدّ من التساؤل عن المنزلة التي يحتلونها في المجتمع وعن نماذج الابتكارات التكنولوجية التي نشاهدها اليوم .

لا شك أن سياسة التعليم وتكوين الإطارات قد أنجبت عددا متزايدا من المهندسين الممتازين منذ الاستقلال وخاصّة منذ السبعينات عندما أسست مختلف المدارس المختصّة في البلاد .

مهندسون يعز علينا اليوم حصر عددهم في سوق الشغل بكل دقّة لأن الأرقام تختلف باختلاف المصادر خاصّة بعد أن أصبح القطاع الخاص يسمي مهندسا كل فنّي ترقى في خدمته وهي تسمية لا يعترف مجلس هيئة المهندسين بشرعيتها. بينا سابقا أن أقلّ من 7000 مهندس سجلوا أسماءهم في قائمة مجلس الهيئة . لكنه يوجد قرابة الالف من التقنيين الذين طلبوا منه توثيق شهاداتهم أو المصادقة على اللقب الذي تحصلوا عليه إثر ترقيات داخلية.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن تقديرات المخططات لم تنجز غالبا وأن الحاجيات المقدرة بأرقام جملية كانت تفوق عدد المهندسين الذين وقع بالفعل تكوينهم . وعلى سبيل المثال فهذا المخطط الخامس يبشّر بتكوين 758 مهندسا أثناء مدّته بيد أن 277 منهم فقط استطاعوا إنهاء دراستهم إثر نهايته .

وتجدر الاشارة رغم ذلك إلى نشوء ظاهرتين غريبتين وهما البطالة منذ خمس سنوات تقريبا وقد أدركت عشر العدد الجملي للمهندسين وتفاقم الصعوبات بالنسبة لإدماج حاملي الشهادات الجدد. هذا من ناحية و من ناحية أخرى نشاهد ألمع المهندسين وأخصبهم مستقبلا يستقرّون نهائيا بالخارج في الولايات المتحدة الامريكية بالخصوص أو في أروبا.

كيف يمكن أن نفسّر هذا التناقض بين ضعف النمو التكنولوجي الوطني وظاهرات مثل تهميش المهندسين في عمليات الانتاج وعلى مستوى الاختيارات التكنولوجيّة

بالخصوص وبطالة المهندسين وهجرة البارزين منهم إلى الخارج. سوف نحاول تفسير ما أمكن تفسيره من هذه الظاهرات مقتصرين في ذلك على عرض بعض الافتراضات في حدود ما وصلت إليه بحوثنا .

1) الافتراض الأول : نقدمه بناء على سياسة التنمية التكنولوجية التي حللناها بالرجوع إلى مخططات التنمية. فمسار التصنيع مثلا واستعمال الآلات في الفلاحة انما وقع تصوّرهما دون أن تؤخذ النواسخ التكنولوجية بعين الاعتبار . كان الاهتمام بالبرامترات الميدانية (الماء - الطاقة - الحاجيات - ترويج الانتاج - الاستثمارات) في مقدمة الشواغل . وعندما تضبط المشاريع كان يعتقد أن توريد التكنولوجيا بل الآلات كان كافيا إلى جانب انتداب التقنيين القادرين على استعمالها لا على تعهّدها (إلا نادراً) وعلى هذا الدرب سارت وكالة تطوير الاستثمارات المكلّفة بتمويل المشاريع الصناعية عندما تقع المصادقة عليها . وكانت تؤثر توريد التجهيزات وتلجأ إلى المساعدة التقنية دون أن تؤخذ قدرات السيطرة الوطنية على التكنولوجيا بعين الاعتبار فلا يتعارض ذلك مع سياسة البلدان المصنّعة التي يتمثّل هدفها الأساسي في بيع الآلات بل وحتّى المصانع بكلية جدرانها .

2) الافتراض الثاني : يتعلّق بتفوق القطاع العمومي في ميدان تشغيل المهندسين . ويتجلّى ذلك من خلال دراسة للسيدة سلمى الزواري يرجع تاريخها إلى سنة 1983 وهي قائمة على استغلال لجذاذات هيئة المهندسين من ناحية وتحقيق لدى 1499 مؤسسة صناعيّة من ناحية أخرى. تبيّن الدراسة أن القطاع العمومي يشغّل أكثر من 90 % من مجموع المهندسين (34.1 % في الادارة و56.4 % في المؤسسات العمومية) بيد أن القطاع الخاص لا يشغّل سوى 9.5 % منهم. والحالة من هذه الناحية تبدو بدون تحسّن رغم نمو القطاع الخاص . بل بالعكس، هناك مقالة بقلم الكاتب العام لمجلس هيئة المهندسين نشرت سنة 1992 في صحيفة تونسية ثم أعيد نشرها في العدد الأخير للمهندس التونسي تبيّن أن 4 % من المهندسين التونسين يعملون في القطاع الخاص وأنّ هذا القطاع يستأثر بـ 40 % من مجموع الاستثمارات العامّة.

ولا يتمتع بسلطة القرار الحقيقي إلا بعض المهندسين وحتى أولائك الذين يحتلّون أعلى وظائف القيادة . إن الدور الأساسي في ميدان الاختيارات التكنولوجية إنما

أبقيت على حالها تعمل في غير الأوضاع التي أنشئت من أجلها. لم تستطع إلا أقلية من المهندسين التفرغ في إطار عملهم إلى مسائل مثل النسخ (للآلات) والتكييف (لبعض التقنيات) والابتكار بصفة عامة. وذلك حتى في القطاع الخاص حيث يُفترض أن يعلّق كبار المقاولين ما لم تعلّقه الادارة من آمال على مهندسيها بشأن التوفيق في تعهّد الرصيد الآلي. ولئن أصبحت أغلبية المهندسين لا تستطيع إلى الابداع سبيلا فإن السبب في ذلك لا يرجع إلى نقص في رؤوس الأموال فحسب بل يرجع خاصّة إلى ما ينقصهم من محيط ملائم.

3) إن تكوين المهندسين محتاج هو الآخر إلى تقييم

افتراضنا الثالث هو أن تكوين المهندسين لا يغذي روح الخلق والابداع. هو تكوين نظري أكثر منه عملي - إن المهندس الشاب مهما كانت في البداية إرادته الابداعية - يجد نفسه في مواجهة مع وسط صدّام إلى حدّ أنه يفقده تحمّسه وقدراته التقنية والعلميّة بسرعة فائقة وذلك لعدة أسباب نذكر منها عدم الاكثرات بالابداع وحتى الارتياب في كثير من الأحيان إزاءه وقلّة المبادرات المسموح بها للتقنيين والمشاكل الماديّة التي تعترض الشبان (ضعف الجرايات - بطء الترقيات ...).

الخاتمة

بدأنا عندما حدّدنا الحداثة بإشارة ملحّة إلى التقدّم التكنولوجي ورأينا عبر قراءتنا للتاريخ أن هذه الحداثة تصطدم « بسدود » داخل المجتمع أساسًا إيديولوجية ثم بسدود مرتبطة بعلاقات الهيمنة التي تفرضها مجتمعات «المركز» بصفة غير مباشرة أو مباشرة بحكم الاستعمار وهي مجتمعات تتوقف تنميتها إلى حد كبير على ما يرتجى فتحه من أسواق يجسمها واقع البلدان المتخلّفة .

ثم رأينا منذ الاستقلال أن تنمية الفلاحة وكذلك الصناعة إنما كان تصوّرها بالكمّ أكثر منه بالقيمة . وقد كان يُنظر إلى التكنولوجيا وكأنها شيء يقتنى دائما ويستورد. فلم يكن مفهوم التبعية معرّفا بتعبير تكنولوجي إلا في المخططين الأخيرين اللذين خصّصا فصلا من فصولهما « لملكة التكنولوجيا وتطوير البحث » و نلاحظ اليوم ظاهرتين اثنتين : الأولى وتبدو هامّة جدًا هي « الابداع التكنولوجي الأصيل » الذي درسه منذ بداية الثمانينات المهندس التونسي المنصف بوشرارة وسماه » التصنيع الزاحف » أو « الابداع السرّي » . إنه لاحظ في بعض المناطق وجود ورش تصنع الآجر وأخرى السفن أو المنسوجات (قصر هلال) أو الاحذية بمعدّات وقع تصميمها بفضل ماأسماه « النسخ التكنولوجي » أو بواسطة تحسين التقنيات الجديدة وتكييفها أو عن طريق الاختراع لهذه التقنيات . ومعظم المبدعين عملة أو تقنيون أو صنائعيون تكوينهم بتواضعه متميّز وقد يوجد في صفوفهم بعض المهندسين .

أما الظاهرة الثانية التي تجدر الاشارة إليها فإنها تتمثل منذ المخطط السابع في بروز مواقف جديدة للسياسة الاقتصادية وذلك تحت تأثير مطالب قدّمها بعض المهندسين بإلحاح بصفة فردية أو بواسطة مجلس الهيئة. وقد ساهمت حرب الخليج في توعية الاوساط السياسية بأهميّة هذه المطالب . فأصبح المتغيّر التكنولوجي مأخوذا بعين الاعتبار أكثر من ذي قبل أثناء المناقشات التي دارت في إطار تهيئة المخطط الثامن واتخذت أخيرًا عدّة اجراءات منها إنشاء صندوق «تطوير الملكة التكنولوجية » يضطلع بدور التفضيل لفائدة البحث التنموي والمشاريع ذات القيم التكنولوجية القصوى - ومنح امتيازات للمؤسسات المبدعة في الميدان التكنولوجي.

المراجع

- ABDESSELEM. (A.) Les Historiens tunisiens du XVIIeme, XVIIIème et XIXème siècles. Essai d'histoire culturelle. Paris, Bibl. Klincksieck, 1973.

- BALANDIER (G .) Anthropo-logiques. Paris, P.U.F., 1985.

- BEN SALEM (A.) Kabadou. Tunis, C.E.R.E.S., 1975 (en Arabe).

- BEN SALEM (L.) Développement et problèmes de cadres. Le cas de la Tunisie. Tunis , C.E.R.E.S., 1972.

- BOUCHRARA (M.) " L'industrialisation rampante, ampleur , mécanisme et portée ", Revue Tunisienne des Sciences du Travail, n° 9, 1er sem. 1987.

- CHATEUR (K.) Dépendance et mutations pré-coloniales. La Régence de Tunis de 1815 à 1857. Tunis. Pub. de l'Université de Tunis, 1984.

- CHENOUFI (A.) " Un rapport inédit en langue arabe sur l'Ecole du Bardo", Cahiers de Tunisie, n° 95 / 96, 3ème / 4ème tr. 1976.

- DEMEERSEMAN (A.) " Tendances et orientations de la Tunisie dans le domaine culturel" I.B.L.A., 4ème tr. 1951.

Encyclopaedia Universalis, article " Technologie".

- GANA (F.) " Politique scientifique et technologique en Tunisie" in Politique scientifique et technologique au Maghreb et au Proche-Orient, Paris, C.N.R.S., 1982.

- LE THANH KHOI " Science et technologie : le choix du développement endogène.", La documentation Française, n° 459, 11 Mars 1983..

- MAGNIN (J.P.) " La profession d'ingénieur en Tunisie",I.B.L.A, n° 98, 1962 / 2 pp. 185 - 191.

- SEBAG (P.) La Tunisie, Paris , Ed. Sociales, 1951.

- ZOUARI (S.) Formation des ingénieurs et techniciens supérieurs, Ministère de l'Enseignement Supérieur , Dec. 1983.

إعداد : ليليا بن سالم

ترجمة : عبد المجيد الذويب

محمد بن الخوجة (1869 - 1942)
من أعلام النهضة الحديثة في تونس شغل وظائف سامية في الإدارة التونسية في الثلث الأول من القرن العشرين، اشتهر خاصة ببحوثه التاريخية، من أبرزها « صفحات من تاريخ تونس » 1986 و « تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد » 1985 ، نشر دار الغرب الإسلامي بتحقيق الأستاذين حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى .

أ

الأستاذ محمد بن الأصفر
محام، خريج كلية الحقوق والعلوم السياسيّة والاقتصادية بتونس؛ نشر دراسات وبحوثا متنوعة : « قلم سينمائي »، تونس، 1980 – الألقاب العائليّة بتونس (دراسة) – تاريخ المحاماة بتونس (دراسة) ...

الأستاذة ليليا بن سالم
أستاذة علم الاجتماع بكلية العلوم الانسانيّة والاجتماعية، لها بحوث ودراسات متعددة منشورة في المجلاّت العلميّة بتونس وخارجها .

الأستاذ محمد بن مسعود إدريس
أستاذ بالمعهد العالي للفن المسرحي، أصدر : « الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية، 1892 - 1940 » (بالاشتراك)، نشر بيت الحكمة، 1991 – « دراسات في المسرح التونسي : 1881 - 1956 » و « بيبليوغرافيا المسرح التونسي (إلى 1956) »، نشر دار سحر، 1993 ...

ب

الأستاذ محمد الأزهر باي
أستاذ بالمعهد الأعلى لأصول الدين (الجامعة الزيتونية – تونس) له دراسات متعدّدة حول تاريخ الجريد وأعلامه، قام بتحقيق « صلة السّمط » لابن شبّاط .

الدكتور محمود بلعيد
طبيب أديب نشر أقاصيص متعدّدة. من أعماله المنشورة « أصداء في المدينة » (مجموعة قصصيّة)، الدار العربية للكتاب 1977 ...

الأستاذ محمد أنور بوسنينة
انظر « دامت » II / 138 .

ج

الأستاذ ناجي جلّول
أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب (منوبة – تونس)، ناقش أطروحة دكتورا حول « الاستحكامات العسكريّة وتحصينات السواحل التونسية بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر » السربون، 1988 ، من آخر ما نشر مقال في مجلّة معهد الآداب العربيّة حول « تحصينات السواحل التونسيّة في العهد العثماني »، 1993 ، ص ص. 3 - 38 .

ح

الأستاذ أحمد الحمروني
انظر « دامت » III / 160 .

ذ

الأستاذ عبد المجيد الذويب
انظر « دامت » I / 137 .

ز

الأستاذ فوزي الزمرلي
أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب (منوبة) أصدر : « الكتابة القصصيّة عند البشير خريف » نشر الدار العربية للكتاب، 1988 ، وحقّق رواية « بلاّرة » تأليف البشير خريف، نشر بيت الحكمة، 1991 .

الأستاذ علي الزواري
انظر « دامت » I / 137 .

س

الأستاذ حمادي الساحلي
انظر « دامت » I / 137 .

ل

الأستاذ علي اللواتي
شاعر، مدير دار الفنون بتونس – من أعماله في ميدان النقد الفنّي والتشكيلي : « جماليّة الرسم الاسلامي (ترجمة لألكسندر بابا دوبولو) »، نشر عبد الكريم ابن عبد الله 1979 – « علي بن سالم »، الدار التونسية للنشر، 1986 – « بن زاكور، رسوم وتخطيطات »، نشر دار الفنون، 1992 . – « الهادي التركي »، دار الفنون . – « ألكسندر رويتزوف (توطئة نقدية)»، دار أليف للنشر 1994 .

م

الأستاذ رياض المرزوقي
انظر « دامت » I / 139 .

الأستاذ أحمد ممو
أديب حاصل على دكتوراه الدولة في العلوم عن أطروحة عنوانها « خصائص وتقييم الموارد المائية بالجنوب التونسي » 1990 . يشغل حاليا خطّة مدير للمياه الجوفية بالإدارة العامة للموارد المائية بوزارة الفلاحة. من أعماله الأدبية : « زمن الفئران الميكانيكية » وهي مجموعة قصصية، شركة « صفاء » للنشر والتوزيع والصحافة، تونس : 1980 .


الزبير التركي



« رجل ظريف » / 1990

زيت / قواش (56 X 36 سم)

« المرآة » / 1980

زيت / قواش (48 X 60 سم)





« القلادة » / 1986

زيت / قواش

(65 X 50 سم)

« يحشد الزبير التركي في عالمه صوَرًا ومشاهد
مختلفة من الحياة التونسية. إنه
الشاعر الذي يغني الإنسان من
الولادة إلى الموت .. مُرُورًا
بشتى الأحوال والأوضاع
التي تعرض في حياته ... »

(علي اللواتي)

« سيدي بوسعيد القديم » / 1980
زيت / قواش (74 X 51 سم)



« ساعي البريد » / 1980
زيت / قواش (56 X 36 سم)



« خالي علي » –
صانع الشاشية / '0
زيت / قواش
(48 X 60 سم)







الزبير التركي

باب الخضراء

«... وإسمه أزهى أسماء أبواب تونس، سمّي كذلك لأنه يعتبر منه لجهة الخضراء التي كانت معمورة بالزياتين، ويلوح أن بناءه كان في أواخر المائة العاشرة ...»

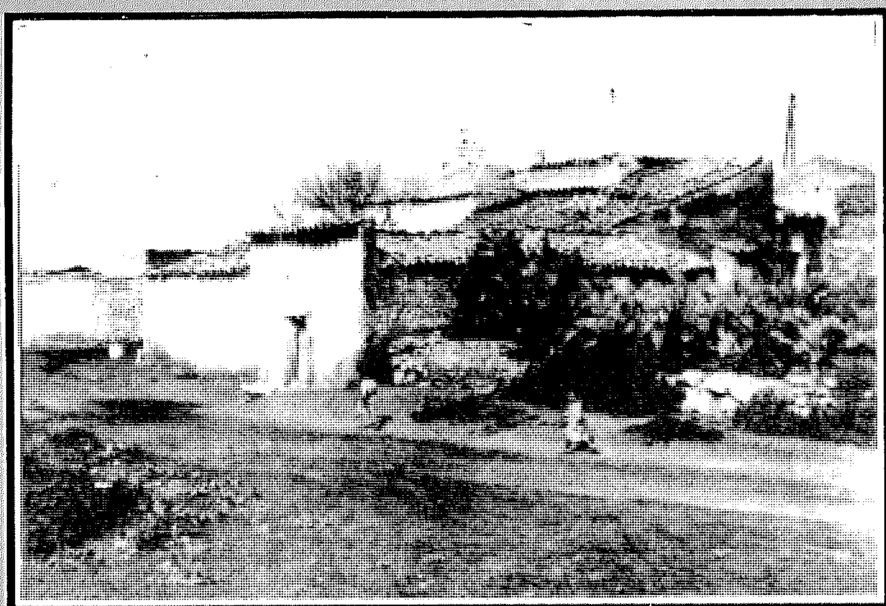
محمد بن الخوجة



السلوقية

« تقع على بعد 70 كلم جنوب غربي تونس
على وادي مجردة. وتدل الآثار المكتشفة
بها - فضلا عن المطمورة منها - على
قدمها في الحضارة، إذ هي
تعود إلى العهد الفينيقي ... »

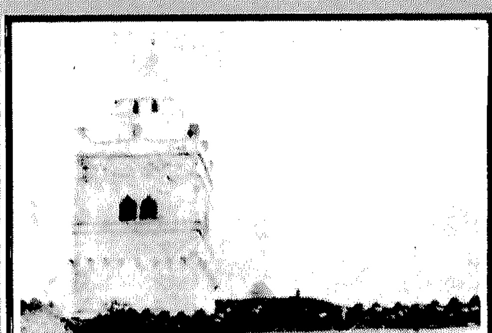
(أحمد الحمروني)



. السلوقية سنة 1950



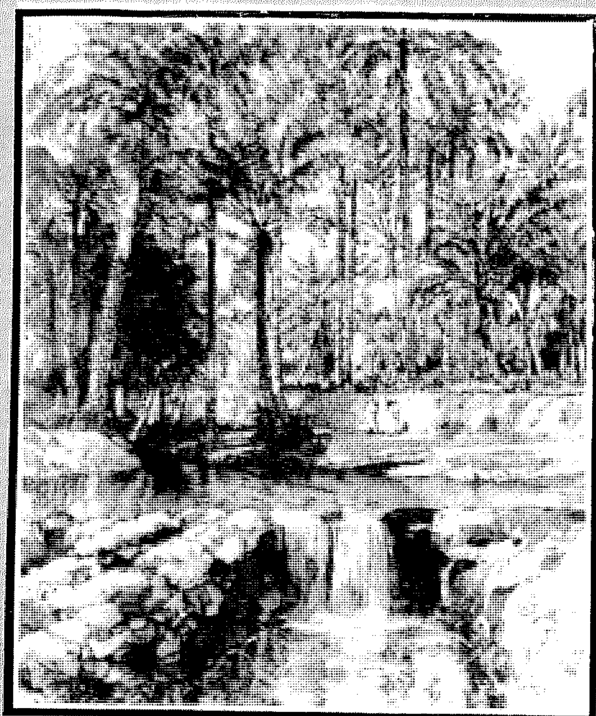
. من بقايا الآثار القديمة ...



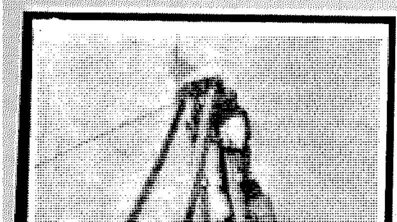
. واجهة جامع السلوقية قبل ترميمه



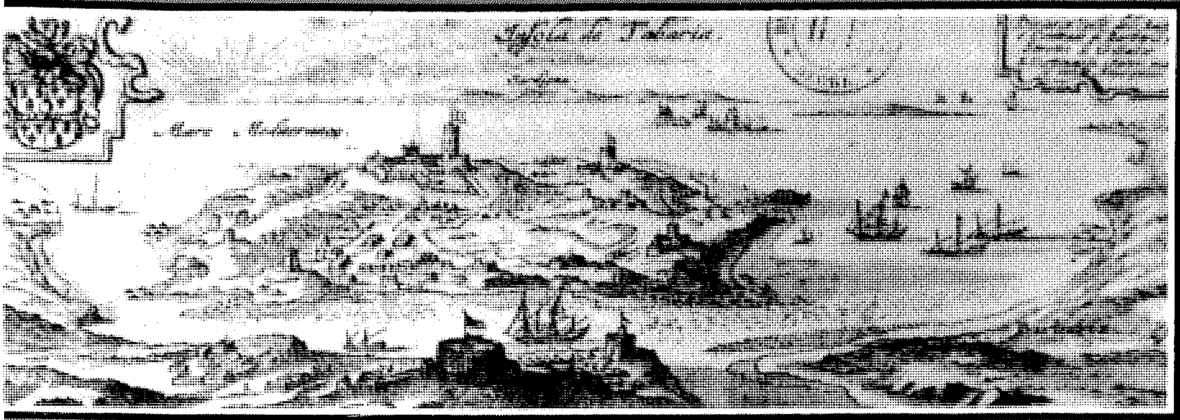
القبطان فرانسوا رودير



. « واد مالح » بالجريد ...



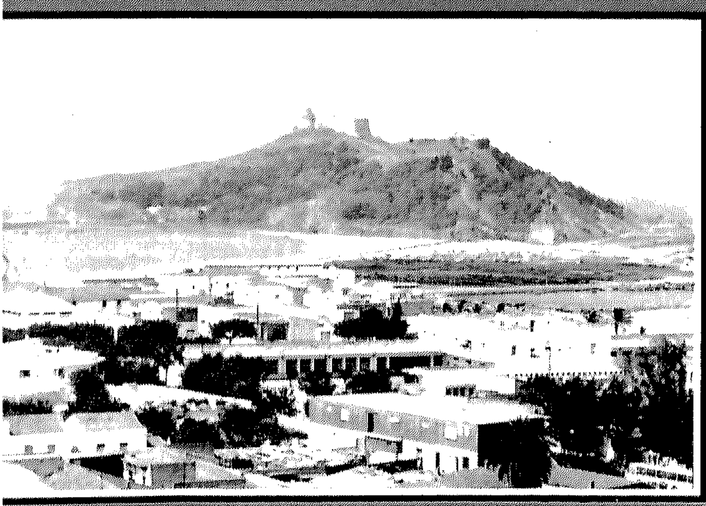
. . « مسبرة » أثناء الحفر ...



. طبرقة (حوالي سنة 1665 م) - محفورة -



. مدينة طبرقة كما تبدو سنة 1883



. طبرقة اليوم ...

- الصفحة الأخيرة من مخطوطة « صلة السمط وسمة المرط في شرح سمط الهدي في الفخر المُحَمّدِي » لابن شبّاط . [ص 10]
- الزبير التركي – تصوير رضا الزيلي – مصلحة التصوير بوزارة الثقافة . [ص 15]
- البشير خريف – مصلحة التصوير بوزارة الثقافة . [ص 25]
- صلاح الدين العمامي. عن كتاب « مشاهير التونسيّين » تونس، 1992 . [ص 42]
- الطاهر قيقة – تصوير رضا الزيلي – مصلحة التصوير بوزارة الثقافة . [ص 52]
- محمد المرزوقي - تصوير رضا الزيلي – م . ت - وزارة الثقافة . [ص 63]
- غلاف كتاب « نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأمصار » – المجلد الأول – للشيخ المؤرخ محمود مقديش . [ص 75]
- الشيخ محمد النخلي . [ص 84]
- خرائط الصفحات : 92 و 108 و 114 من إنجاز الأستاذ عبد المجيد الذويب
- خريطة « مشروع شط الجريد » التي قدّمها القبطان رودير للسلط المعنية . [ص 143]
- صورة نادرة لأول عرض لمسرحية « شهداء الغرام » التي قدمتها جمعية الآداب يوم أول مارس 1912 . [ص 166]
- مورد مائي عصري بالبلاد التونسية – تصوير رضا الزيلي – من مجموعته الخاصة . [ص 190]
- شفافات رسوم الزبير التركي – إنجاز رضا الزيلي – [ص ص 243 - 244 - 245]
- صور « السلوقية » – المعهد الوطني للتراث – تونس . [ص 247]
- مصدر صور « طبرقة » : الأستاذ الناجي جلّول . [ص 248]
- مصدر صور « مشروع شط الجريد » : الأستاذ محمد بن الأصفر . [ص 249]

أعــــلام

مواقـــع

قضايـــا

فهـرس المؤلفيـــن

نورد فيما يلي ما وصلنا من استدراكات وتصويبات تتعلّق بالكراسات الثلاثة الأولى من «دائرة المعارف التونسية» .ونوجّه الدعوة إلى كافّة المهتمّين بالبحوث والدراسات المنشورة في« دامت » كي لا يبخلوا علينا بآرائهم واستدراكاتهم، وذلك حتّى تعمّ الفائدة سائر القراء .

الكراس الأول

الصفحة	السطر	الخطــــأ	الصـــــواب
40	1	ينتمي محمد الطاهر بن محمد الطاهر	ينتمي محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ...
45	22	أبي الوليد بن الباجي الأندلسي ...	أبي الوليد الباجي الأندلسي
70	الأخير	« نوبة» الحالية ...	« منوبة » الحالية ...
72	7	وأراضي منخفضة ...	وأراضٍ منخفضة ...
113	11	عبد الملك ابن ...	عبد الملك بن ...
115	12	عز الإسلام والقيروان ...	عزّ الاسلام القيروان ...
119	6	... أبي علي الصوفي	أبي علي الصدفي
121	6 (في نهاية الصفحة)	... بن عبد العزيز أبي الصلت .	ابن عبد العزيز بن أبي الصلت
124	22	... المعجم الهربي ...	المعجم العربي
111	16 و 17	حذف « كما تنتج هذه المغروسات سنويا 110 مليون يوم عمل سنويًا	

الكراس الثاني

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
99	3	... كتكملة لشواطئ محافظة على طابعها ...	كتكملة لشواطئ قرطاج وميناتها العتيق ؛ هذا وقد بقيت البلدة محافظة على طابعها ...
121		الصورة المثبتة بعد العنوان	حذفها
140	22.21	بوابة المدرسة الحربيّة بباردو ...	حذف السطرين

الكراس الثالث

8		سالم بوحاجب (1924.1827)	سالم بوحاجب (1244 هـ / 1828 م. 1342 هـ / 1924 م)
6		... وهي السنة التي أحدث فيها المشير ...	... وهي السنة التي أحدث في 27 رمضان منها (غرة نوفمبر 1842) المشير ...
	12	وقرأ أيضا في جامع الزيتونة عن الشيوخ ...	وقرأ أيضا في جامع الزيتونة على الشيوخ ....
9	16	سنة 1265 هـ / 1849.1848 م)	سنة 1265 هـ / 1849 م

	18	باستثناء المدّة التي قضاها بأروبا وبخاصة بايطاليا من سنة 1290 هـ/ 1873 - 1874م إلى سنة 1296 هـ / 1878 - 1879 م ...	باستثناء المدّة التي قضاها بأروبا وخاصّة بايطاليا من ذي القعدة سنة 1290 هـ/ ديسمبر سنة 1873 م. إلى أواخر شهر جمادي الثانية سنة 1298 هـ/ أواخر ماي سنة 1881 م.
	22.21	وارتقى ... سنة 1850 ثمّ ارتقى في شوال 1280 هـ / 1864 م. إلى الطبقة العليا	وارتقى ... سنة 1275 هـ / 1859 م. ثمّ ارتقى إلى الطبقة الأولى سنة 1281 هـ / 1864 م .
10	9.8	سنة 1876	سنة 1293 هـ / 1876 م
	10 - 9	إلى سنة 1892	إلى سنة 1309 هـ / 1892 م .
	19 - 18	عند تأسيسه سنة 1858	عند تأسيسه في 20 محرّم 1275هـ / 30 أوت 1858 م .
	26	على المالية التونسية 1868	على المالية التونسية في أواخر ربيع الاول 1286 هـ / 5 جويلية 1869م
	29	... سنة 1864 ...	... سنة 1288 هـ / 1871 م .
	33	... معرض باريس سنة 1878 ...	معرض باريس سنة 1295 هـ / 1878 م
11	3	مفتيا مالكيا سنة 1905 ...	مفتيا مالكيا سنة 1323 هـ / 1905 م .
	4	... سنة 1919 ...	سنة 1337 هـ / 1919 م .

12	10	افتتاح نشاط الجمعية الخلدونية سنة 1896 ...	افتتاح نشاط الجمعية الخلدونية سنة 1314 هـ / 1869 م
13	13	... محمد الخضر حسين :	محمد الخضر حسين (الكامل)
	23.22	... المتفرعة عن لجنة النظر في اصلاح التعليم الزيتوني الأولى سنة 1898	... المتفرعة عن لجنة النظر الأولى في إصلاح التعليم الزيتوني سنة 1316 هـ / 1898 م .
	30	سنة 1896	سنة 1314 هـ / 1896 م
	14	1637	1628
63	28	خيمانات	خيماناث
65	18	كليها	إليها
66	24	إل	إلى
67	29.28	محمد البشير التواتي (ت 1311 هـ / 1984 م)	محمد التواتي (ت . 1894).
68	26	التي تتعلمها	إلى تعلمها
70	10	بها	به
71	12	ع 1	ج 1
		ع 10	ج 10
	14	العمارة	للعمارة

	24	Cindad	Cuidad
72	10	Etudes ... Moriscos	Etudes... Moriscos
86	ذيل المقال		إضافة اسم مترجم مقال الدكتور محمد الطالبي وهو : الاستاذ العربي عبد الرزاق
162	32	الصغير صاي بناه سنة 1812	عبد اللطيف

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة »

دائرة المعارف التونسية

الكراس 5 / 1995

* تحظى « دائرة المعارف التونسية » بتوصية بالنشر من وزارة الثقافة

* سحب من هذا الكراس في طبعته الأولى : 3000 نسخة

صورة الغلاف

* لوحة فنية تشكيلية من معرض « المفردة التشكيلية »

مركز الفن الحي لمدينة تونس - 1988 -

المطبعة : شركة فنون الرسم والنشر والصحافة - القصبة - تونس

REPUBLIQUE TUNISIENNE
Ministère de la Culture

ENCYCLOPEDIE DE LA TUNISIE

5è cahier / 1995

Académie Tunisienne des Sciences, des Lettres
et des Arts "Beït El Hikma" - CARTHAGE -